

Algernon Blackwood | The Willows | The Wendigo | ترجمات عالمية

ألجرتون بلاكفورد

مكتبة ٩٨٣

الصفصاف

و

الونديجو

ترجمة: خالد فاروق

المحرسة

مكتبة | سُرَّ مَنْ قَرَأَ | 983

نوفيلاتين

الصَّفْصَافُ

9

الونديجو

عنوان الكتاب: الصُّفَّافُ و الونديجو
The Willows -The Wendigo
المؤلف: ألجرتون بلاكوود Algernon Blackwood

ترجمة: خالد فاروق
مراجعة لغوية: محمود شرف

مكتبة
t.me/t_pdf

مركز
المحرسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - الملقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

 mahrousaeg
 almahrosacenter
 almahrosacenter
 www.mahrousaeg.com
 info@mahrousaeg.com
 mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٠٢١ / ١٥١٥٢
الترقيم الدولي: 978-977-313-860-8

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحرسة
2021

نوفيلاتين

مكتبة | سر من قرأ | 983

الصفصاف

و

الونديجو

أجرونون بلاكوود

ترجمة

خالد فاروق

مركز
المحرسة

للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

الطبعة الأولى 2021

مكتبة

t.me/t_pdf

29 9 2022



مكتبة المتاحف والآثار المصرية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

بلاكوود، ألجرون، 1869-1951

الصفصاف و الونديجو/ ألجرون بلاكوود؛ ترجمة: خالد فاروق، ط1
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2021

160 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 8-860-313-977-978

1 - القصص الانجليزية

أ- فاروق، خالد (مترجم)

ب- العنوان

823

رقم الإيداع 2021/15152

الصَّفَافُ

ا مكتبة

t.me/t_pdf

بعد أن تغادر فيينا، وقبل أن تبلغ بودابست بمسافةٍ طويلة، يدخل الدانوب منطقةً من العُزلة والوَحْشَة الفريديتَيْن، حيث تتوزّع مياهه على كل الجوانب، غير عابئةٍ بقناةٍ رئيسية، وتصبح البلد مُسْتَنْقَعًا لأُمَيَالٍ وراء أُمَيَالٍ، مُغْطَاةً ببحرٍ واسعٍ من شُجَرَات الصفصاف الواطئة. في الخرائط الكبيرة تصطبغ هذه البقعة المهجورة بلونٍ أزرق مزغب، يزداد شحوبًا كلما ابتعدت عن الضفاف، وقد تعبّرها كلمة SUMPFE -وتعني: "المستنقعات"- بأحرفٍ كبيرة مُبَعَثَرَة.

في الفيضان المرتفع تكون هذه المساحة الشاسعة من الرمال، وفرش الحصى، والجُرُر المكسوّة بالصفصاف، مُغْطَاةً حتّى قِمَمِهَا تقريبًا بالمياه، لكن في المواسم العادية تنحني الشجيرات وتُخْشِخِشُ في الريح الحُرّة، عارِضَةً أوراقها الفضية لضوء الشمس، في سَهْلٍ دائمٍ الحَرَكَة، مدهش الجمال. هذا الصفصاف لا يحظى أبدًا بمهابةِ الأشجار، ليس لديه جذوعٌ صُلْبَة، يبقى مجردَ شُجَرَاتٍ متواضعة، ذات قِمَمٍ مُدَوَّرَة

وخطوط خارجية ناعمة، تتمايل على سيقان اسطوانية تستجيب لأقلَّ ضَغْطٍ من الريح، طريّة كما العُشب؛ لذا فإنها تتحرّك باستمرارٍ حتى أنها تعطي، بطريقةٍ ما، الانطباع بأن السَّهل بأجمعه يتحرّك، وأنه حيٌّ. حيث ترسل الريح موجاتٍ تعلو وتهبط فوق السطح بأكمله، موجات من أوراق الشجر بدلاً من موجات الماء، عُباب أخضر كُعباب البحر، أيضًا، حتى تنقلب الأغصان وترتفع، ثم تَبْيَضُ كالفضّة، عندما تستدير جوانبُها السُّفلى للشمس.

سعيدًا بأن يُفِلَّت من نطاق سيطرة الضّفاف الصّارِمة، يتسكّع الدانوب هنا، كيفما يشاء، بين شبكة القنوات المُعقّدة التي تقطع الجزيرة، في كلِّ مكان، بدروبٍ مُتّسعة تتدفّق فيها المياه بصوتٍ هادرٍ، صانعةً دَوّامات وتيّاراتٍ مُعاكِسة ومُنحدراتٍ مُزبّدة، متكسّرةً على الضفاف الرملية، جارِفةً كُتلاً من الشاطئ وأجمات الصفاف، مُشكّلةً عددًا غير محدود من الجُزُر الجديدة التي تتغيّر يوميًا من حيث الحجم والشكل، ويكون لها -في أحسن أحوالها- حياةٌ غير مُستقرّة؛ إذ يحوّ موسم الفيضان أيّ وجودٍ لها.

في الحقيقة، يبدأ هذا الجزء الساحر من حياة النهر بعد مغادرة "برسبورج" بوقتٍ قصيرٍ، ونحن وصلنا إليه، على مَنّ قاربنا الكندي، ومعنا خيمةٌ عَجِرٌ ومِقلاة، في ذروة الفيضان المرتفع في منتصف يوليو تقريبًا. في ذلك الصباح نفسه، عندما كانت السماء تَصْطَبِغُ بِالْحُمْرَةِ قبل شروق الشمس، أنسللنا مُسرّعين عبر قِيْنًا التي كانت بَعْدُ نائمةً، تاركينها بعد بضع ساعاتٍ مُجرّدٍ بقُعةٍ من الدخان، عند الأفق، في مواجهة تِلال "فاينرفالد" الزرقاء. تناولنا إفطارنا جنوب "فيشرامند" تحت أجمةٍ من أشجار البتولا كانت تصطخب في الريح، وانطلقنا بعد ذلك فوق التيّار العنيف مجتازين "أورث" و"هاينبورج"، و"بترونيل" (حيث قلعة "كارنونتوم" الرومانية القديمة التي تنسب إلى "ماركوس أوريليوس")، وهكذا تحت مرتفعات "زيلسن" العابِسة على سفحٍ

من سفوح جبال "الكاربثيان"، حيث ينسلُّ وادي "المارش" بهدوء من اليسار ويعبر الحدود بين النمسا والمجر.

الانطلاق بِسُرْعَةٍ اثْنَيْ عَشَرَ كيلو مترًا في الساعة سرعان ما أخذنا بعيدًا داخل المجر، والمياه الموجلة -العلامة الأكيدة للفيضان- جنحت بنا على العديد من فُرُش الحصى، وأدارتنا مثل الفليئة في العديد من الدَّوَامات العنيفة المُفاجِئَة قبل أن تظهر أبراج برسبورج (بالمجرية: بوزوني) في عنان السماء، وانطلق القارب بأقصى سُرْعَةٍ بعد ذلك، وهو يتقافز كحصان مُفَعَّمٍ بالنشاط، تحت الأسوار الرمادية، ومَرًّا بأمان من السلسلة الغارقة للعبارة "فليجند برووك"، ودار بحدّة إلى اليسار حول الزاوية، وخاض على زَبَدٍ أصفرٍ في وحشة الجُرُر وضاف الرمال، ومن ورائها أرضُ المستنقعات، أرضُ الصّفصاف.

حدث التَّغْيِيرُ بشكل مفاجئ، كما يحدث عندما تتوالى سلسلةٌ من الصُّور السينمائية لشوارع بَلَدَةٍ ما، وتتحوّل من دون سابق إنذارٍ إلى مشهد بُحَيْرَةٍ وغبابة. دخلنا أرض الإقفار على أجنحة السرعة، وخلال أقلّ من نصف ساعة لم يكن هناك لا قاربٌ ولا كوخٌ صيدٍ ولا سَقْفٌ أحمر، ولا أي علامة واحدة على الحضارة والعُمران الإنسانيَّين على مدى البصر.

إن الشعور بالبُعد عن عالمِ البَشَر، والعزلة التامّة، وسحر عالم الصّفصاف الفريد هذا، والرياح، والمياه -ألقت جميعها بتعويدتها علينا بشكلٍ فوريٍّ، حتى أننا اتفقنا مع أَحَدِنَا الآخر، -بسخرية- على أنه كان يتعيّن علينا بالقانون أن نحمل جواز سفر من نوعٍ خاصٍّ يسمح لنا بالدخول، وأننا -بقدر من الجرأة- قد أتينا إلى مملكة العَجَبِ والسَّحَر الصغيرة المستقلّة، من دون أن نطلب إذنًا، المملكة التي حُجِرَت لصالح آخرين قد امتلكوا الحقّ فيها، مع تحذيراتٍ،

غير مكتوبة، للدُّخلاء، في كلِّ مكان، يكتشفها أولئك الذين قد امتلكوا الخيال.

رغم أن الوقت لم يزل مُبَكَّرًا في فترة ما بعد الظهر، إلَّا أن الضربات المستمرة للريح العاتية جعلتنا نشعر بالتعب؛ فبدأنا نتطَّلَع -من قُورِنَا- باحثين عن بُقْعَةٍ مُناسبةٍ للتَّخيم خلال الليل. لكن طبيعة الجُزُر المُحيِّرة جعلت من الرُّسُو أمرًا صعبًا. حملنا الفيضان الدَّوَامِيُّ إلى الشاطئ، ثم جَرَفْنَا بعيدًا مرَّةً أخرى، وَمَزَقَتْ فروعُ الصَّفصاف أيدينا عندما تَشَبَّثْنَا بها لإيقاف القارب، وسحبنا العديد من اليرادات من الضَّفَّة الرملية، إلى الماء، قبل أن نندفع أخيرًا إلى المياه الخلفية مع هَبَّةٍ جانبِيَّةٍ قوية من الريح، وَمَكَّنَّا من إرساء مُقدِّمة القارب وسط غيمَةٍ من الرذاذ. استلقينا بعدها على الرمال الصفراء الساخنة، ونحن نلهث ونضحك بعد الإجهاد الذي نال مِنَّا، مُستَترِّين من الريح، ومن فوقنا سماءُ زرقاء صافية، في السعير المُتَّقِد للشمس الحارقة، وجيش هائل من شُجيرات الصفصاف الراقصة الصائحة يُطبِّق علينا من جميع الجوانب، وهو يلتمع بالرذاذ، ويصْفُق بألف يدٍ صغيرة وكأنه يُهنِّئنا على جهودنا التي كُلَّلت بالنجاح.

- يا له من نهر!

قلَّتها لصاحبي، وأنا أفكِّر في طول الطريق الذي قد قطعناه من المنبع في الغابة السوداء، وكيف كان مُرْعَمًا في كثير من الأحيان أن يخوض ويدفع القارب في مياه الأعالي الضَّحَلَة في بداية شهر يونية.

- الأمر لا يَحْتَمِلُ المزيد من الهراء الآن. أليس كذلك؟

قالها وهو يَجُرُّ القارب لِيُقَرِّبَهُ أكثر من الأمان في أعلى الرمال، ثم راح يُعِدُّ نفسه لقليلولة. استلقَيْتُ إلى جانبه، سعيدًا ومُطمئنًا في حَمَامٍ من عناصر الطبيعة: الماء والريح والرمل ونار الشمس الهائلة، مُفَكَّرًا في الرحلة الطويلة التي باتت وراءنا، والمسافة الكبيرة الممتدَّة أمامنا

حتى البحر الأسود، وكم كنتُ مَحْظُوظًا أن يكون لي رفيقٌ سَفَرٍ مُبْهِجٍ وساحِرٍ مثل صديقي، السويدي.

لقد قُمْنَا معًا بالعديد من الرحلات المُشَابِهة، لكن الدانوب -أكثر من أي نهر آخر عرفته- أثارَ إعجابنا بحيويَّته منذ اللحظة الأولى، من مَدْخَلِهِ الصَّغِيرِ الفائر إلى العالمِ وسطِ حدائقِ غاباتِ الصنوبر في "دوناويشنجن"، وحتى هذه اللحظة عندما بدأ يمارس لعبة النهر الكبير بأن يُضَيِّعَ نفسه وسطِ المستنقعات المهجورة، غير مُراقَبٍ، وغير مُقَيَّدٍ، لقد بدا لنا الأمر وكأننا نَتَابِعُ مُوَّ كَائِنٍ حَيٍّ ما. كان هادئًا في البداية، لكنَّه -بتنمية رغباته العنيفة، فيما بعد، عندما أصبح واعيًا بروحه العميقة- تَدَفَّقَ، ككائنٍ سَائِلٍ ضَخِمٍ، خلال كُلِّ البلدان التي مررنا بها، حامِلًا قاربنا الصَّغِيرَ على كتفيه الجَبَّارَتَيْنِ، يتلاعب بنا في قسوة في بعض الأحيان، ومع ذلك، كان ودودًا وَحَسَنَ النِّيَّةِ على الدَّوام، حتى أننا أصبحنا، في النهاية، نرى فيه ذاتًا عظيمةً، لا محالة.

كيف -حقًا- يكون الأمر على غير ذلك، وقد أخبرنا الكثير عن حياته السرية؟ سمعناه في الليل، عندما رقدنا في خيمَتِنَا، يُعْنِي للقمَر، مُطْلَقًا تلك النغمة الغريبة ذات الصَّفير، التي تُمَيِّزُه، والتي يُقال إنها ناجمة عن الاندفاع السريع للحصى على طول مَجْراه، كبيرة هي سرعته المندفعة. عرفنا -أيضًا- صوت دَوَّامَاتِهِ المُعْرِغَةِ، تفور فجأةً بالفُفَّاعات على سطحٍ كان هادئًا تمامًا من قبل. وخير مياحه الضَّحَلَة ومنحدراته السريعة، وهديره الثابت المنتظم تحت جميع أصوات السطح الخالصة، والتكسُّر المتواصل لمياهه المثلَّجة على الضفاف. كيف نهض وصاح عندما سقط المطرُ على صفحته! وكيف دَوَّتْ ضَحَكُته عندما هَبَّتْ الريح في عكس اتجاه التيار، وحاولتْ كَبَحَ سُرْعَتِهِ المُتَزَايِدَةِ! عرفنا أصواته ونبراته جميعها، انحداره وإرغاءه، ورَشَّاشَه غير الضروري على الجسور، وتلك الثَّثرة الواعية بذاتها عندما كانت هناك تِلَالٌ ليتطلَّع إليها، والكرامة الجريحة لخطابه عندما مَرَّ

عبر البلدات الصغيرة، كانت جادةً لدرجة لا تسمح بالسخرية، وكل هذه الهمسات الحلوة الخافتة عندما قَبَضَتْ عليه الشمسُ بإحكامٍ في منحنى بطيءٍ ما، وَصَبَّتْ أَشِعَّتَهَا عليه حتى تَصَاعَدَ البُخَارُ.

كان زَاخِرًا بِالْحَيْلِ كذلك في حياته المُبَكَّرَةِ قبل أن يعرفه العالمُ الكبير، كانت هناك أَمَاكِنُ عند روافده وسط الغابات السوابية، حين لم تَكُنْ الأَقَاوِيلُ حول مصيره قد بَلَغَتْه بَعْدُ، وحيث اختار أن يختفي عبر ثَقُوبٍ في الأرض، ليظهر مرةً أخرى على الجانب الآخر من تلال الحجر الجيري، ويدشن نهرًا جديدًا باسمٍ آخر، مُخَلِّفًا كذلك قدرًا قليلًا جدًا من الماء في مجراه الذي تَعَيَّنَ علينا أن نَتَسَلَّقَهُ إلى الخارج، وأن نخوض وَنَدْفَعَ القارب عبر أميالٍ من المياه الضحلة.

كانت المُنْتَعَةُ الرئيسية -في تلك الفترة المبكرة من شبابه العاِبِث- أن يتواري، مثل الثعلب "برر"⁽¹⁾، قبل وقتٍ قَصِيرٍ من قدوم الروافد المضطربة الصغيرة من جبال الألب لتنضمَّ إليه، وأن يرفض الاعتراف بها عندما تصل، إلا أنه يجري معها جنبًا إلى جَنَبٍ لأميال، بخطِّ تقسيمٍ مُحدَّدٍ بوضوح، ومناسِبٍ شديدةِ التَّبَايُنِ، يرفض الدانوب بشكلٍ قاطِعٍ أن يعترف بالوافد الجديد.

في جنوب "باسُو" أَقْلَعَ -بشكلٍ ما- عن هذه الحيلة بالذات، حيث يتدخَّلُ نهر "الإن" بقوةً هَادِرَةً يستحيل تَجَاهُلُهَا، وهكذا يُزَاحِمُ ويزعج النهر الأب حتى أنهما يجدان مكانًا لهما بصعوبة في المضيق الطويل الملتوي الذي يأتي لاحقًا، ويُدْفَعُ الدانوب في كُلِّ الاتجاهات بمواجهة الجروف، ويُجبر على أن يزيد من سُرْعَتِهِ بموجاتٍ كبيرة وكثير من الاندفاع جيئةً وذهابًا بغرض العبور في الوقت المناسب. انزلق قاربنا أثناء المعركة من فوق كتفيه واستقرَّ على صدره، وعاش أكثر لحظات حياته إثارةً وسطَ الأمواج المُتصارِعَةِ، لكن نهر "الإن" لَقَّنَ

(1) شخصية خيالية من الحكاية الشعبية "العم رموس".

النَّهْرَ الْعَجُوزَ دَرَسًا، فَلَمْ يَعُدْ مِنْ بَعْدِ "بَاسُو" يَتَظَاهَرُ بِتَجَاهُلِ الْوَافِدِينَ الْجُدُدِ.

كَانَ هَذَا قَبْلَ عِدَّةِ أَيَّامٍ، بِالطَّبْعِ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا مِنْ حِينِهَا نَعْرِفُ جَوَانِبَ أُخْرَى مِنَ الْكَائِنِ الْعَظِيمِ، وَبِطَءٍ شَدِيدٍ، ارْتَحَلَ عِبْرَ سَهُولِ الْقَمَحِ الْبَاقَارِيَةِ فِي "شْتَرَاوِينِج"، تَحْتَ شَمْسٍ يُونِيَةِ الْمُتَوَهِّجَةِ، حَتَّى أَنَّهُ كَانَ بَوَسْعِنَا أَنْ نَتَخَيَّلَ الْمِيَاهَ وَهِيَ تَشْغَلُ بَضْعَ بَوْصَاتٍ فَقَطْ مِنَ السُّطْحِ، بَيْنَمَا هُنَاكَ بِالْأَسْفَلِ كَانَ يَتَحَرَّكُ جَيْشٌ كَامِلٌ مِنْ حَوْرِيَّاتِ الْمَاءِ، مُسْرَبَلَاتٍ بِمَا يُشَبِّهُ عِبَاءَةً حَرِيرِيَّةً، يَمُرُّرْنَ بِهَدْوٍ، غَيْرِ مَرْتِيَّاتٍ، وَقَدْ اتَّخَذْنَ طَرِيقَهُنَّ إِلَى الْبَحْرِ، فِي تَأَنٍّ بَالِغٍ كَذَلِكَ؛ مَخَافَةً أَنْ يُكْتَشَفْنَ.

كَثِيرًا أَيْضًا مَا سَامَحْنَاهُ إِكْرَامًا لِلصَّدَاقَةِ الَّتِي نَشَأَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَأْوِي إِلَى الشَّوَاطِئِ. تَصْطَفُ طُيُورُ الْغَاقِ عَلَى ضَفَافِ الْأَمَاكِنِ الْمُوَحِّشَةِ فِي صَفُوفٍ تُشَبِّهُ أَسِيَجَةً سَوْدَاءَ قَصِيرَةٍ. وَتَتَزَاوَمُ الْغُرَبَانُ الرَّمَادِيَّةُ فَوْقَ فُرُشِ الْحَصَى، وَتَقِفُ طُيُورُ اللَّفْلَقِ لِتَصِيدَ فِي آفَاقِ الْمِيَاهِ الضَّحَلَةِ الْمُتَشَعِّبَةِ بَيْنَ الْجُرُزِ، وَالصَّقُورِ وَالْبَجَعِ وَطُيُورِ الْمُسْتَنْقَعِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، تَمْلَأُ الْهَوَاءَ بِالشَّدْوِ وَالصَّرَخَاتِ النَّزِيقَةِ وَالْأَجْنَحَةِ اللَّمَّاعَةِ، كَانَ مِنْ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ نَشْعُرَ بِالْانْزِعَاجِ مِنْ نِزَوَاتِ النَّهْرِ بَعْدَ رُؤْيَيْنَا لَغَزَالٍ يَقْفِزُ إِلَى الْمَاءِ، عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، فَيُثِيرُ الرِّشَاشَ وَيَسْبِيحُ عَابِرًا مُقَدِّمَةً الْقَارِبِ، وَكَثِيرًا مَا رَأَيْنَا ظَبَاءً صَغِيرَةً تُحَدِّقُ فِينَا مِنَ الدَّغْلِ، أَوْ نَظَرْنَا مَبَاشِرَةً فِي الْعَيْنَيْنِ الْبُنِّيَّتَيْنِ لَوْعِلٍ، عِنْدَمَا كُنَّا نَنْدْفِعُ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ حَوْلَ زَاوِيَةٍ وَنَدْخُلُ مَنْطِقَةَ أُخْرَى مِنَ النَّهْرِ. الثَّعَالِبِ، أَيْضًا، سَكُنَتْ الضَّفَافِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، تَتَجَوَّلُ بِخَفَّةٍ بَيْنَ الْأَخْشَابِ الطَّافِيَةِ وَتَخْتَفِي فَجَاءَةً لِدَرَجَةٍ يَسْتَحِيلُ مَعَهَا أَنْ نَفْهَمَ كَيْفَ أَمَكَّنَهَا ذَلِكَ.

لَكِنِ الْآنَ، بَعْدَ مُغَادَرَتِنَا لِبَرِيسْبُورْجِ، تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى حَدٍّ مَا، وَأَصْبَحَ الدَّانُوبُ جَادًّا عَلَى نَحْوِ أَكْبَرِ، وَتَوَقَّفَ عَنِ الْعَبَثِ. كَانَ فِي مَتَنَصِفِ

الطريق إلى البحر الأسود، مُقْبِلًا على مسافة، يبدو أن مُعْظَمَهَا ينتمي لبلدان غربيَّةٍ أُخرى، حيث لن تكون أَيْةٌ حَيْلٍ مفهومةٌ أو مَسْمُوحًا بها. لقد أصبح ناضجًا فجأةً، واستدعى احترامنا، بل وحتى تبجيلنا. تَفَرَّقَ إلى ثلاثة أفرع، لشيء واحد، لن يَلْتَمِثَ ثَانِيَةً إِلَّا على بُعْدِ مائَةٍ كيلو متر جنوبًا، وبالنسبة للقارب لم تَكُنْ هناك أَيْةٌ مُؤَشِّرَاتٍ على الفرع المُزْمَعِ اتِّبَاعُهُ.

الضَّابِطُ المَجْرِي، الذي التقيناه في مَتَجَرِّ برسبورج بينما كُنَّا نشترى المُوْن، قال لنا:

- إذا التزمتم قناهَ جَانِبِيَّةً، قد تجدان نفسَيْكُما، عندما يَنْحَسِرُ الفيضان، على بُعْدِ أربعين ميلاً من أي مكان، مُنْعَزِلَيْن ومعدومي الحيلة، وربما تتضوَّران جوعًا بسهولة. ليس هناك بَشَرٌ، ولا مزارعٌ، ولا صيَّادون. أُحذِّرُكم من مواصلة الرحلة. لا يزال النهر يرتفع أيضًا، وهذه الرياح سوف تزيد. على الأقل، لم يُفْرِعْنَا احتمالُ ارتفاع النهر، لكنَّ مسألة أن نُتْرَكَ معزولين ومعدومي الحيلة على إثرِ انحسارٍ مفاجئٍ للمياه قد يكون أمرًا خطيرًا، وبالتالي، فقد دَبَّرْنَا مَخْزُونًا إضافيًا من المُوْن. من ناحِيَّةٍ أُخرى، تحقَّقَتْ نبوءةُ الضَّابِطِ، فعَصَفَتْ الرِّيحُ بِسَمَاءٍ صافِيَةٍ للغاية، وتزايدتْ باطِّرادٍ حتى بلغت مَنَزِلَةً عاصِفَةً غربيَّةً.

كان الوقت مُبَكَّرًا عن المُعتاد عندما خَيَّمْنَا، كانت الشمس على بُعْدٍ يزيد عن السَّاعة أو ساعتَيْن من خَطِّ الأفق، تركتُ صديقي نائمًا، لا يزال، على الرُّمال الساخنة، وتجوَّلتُ مُجْرِيًا فَحْصًا عابِرًا للنُّزُل الذي يأوينا، وَجَدْتُ أن مساحة الجزيرة تَقِلُّ عن الفدان، ضِفَّةٌ رَمْلِيَّةٌ خالِصَةٌ ترتفع ما يقرب من قَدَمَيْنِ أو ثلاثٍ فوق مستوى النهر. الطَّرَفُ البعيد، باتَّجاه غروب الشمس، كان مُغَطَّى بِرَذَاذٍ طَائِرٍ ساقته

العاصِفَةُ الرَّهِيْبَةُ مِنْ عَلَى قِمَمِ الْأَمْوَاجِ الْمُتَكَسِّرَةِ. كَانَتْ الْجَزِيرَةُ ذَاتَ شَكْلِ مُثَلَّثٍ، وَلَهَا قِمَّةٌ تُشْرِفُ عَلَى الْمَجْرَى.

وَقَفْتُ هُنَاكَ لِدَقَائِقٍ عَدِيدَةٍ، أَرَأَيْتَ الْفَيْضَانَ الْقُرْمَزِيِّ الْجَامِحِ وَهُوَ يَنْقُضُ بِهَدِيرٍ مُدَوٍّ، مُنْدَفِعًا بِأَمْوَاجِهِ إِلَى الضُّفَّةِ كَمَا لَوْ كَانَ يَهْدَفُ إِلَى اجْتِيَاحِهَا بِشَكْلِ كَامِلٍ. قَبْلَ أَنْ يَدُورَ مُدَوِّمًا فِي تَيَّارَيْنِ مُزِيدَيْنِ عَلَى كِلَا الْجَانِبَيْنِ. بَدَأَ أَنَّ الْأَرْضَ تَهْتَزُّ مَعَ الصَّدْمَةِ وَالْإِنْدِفَاعِ، بَيْنَمَا عَمَلَتْ الْحَرَكَةُ الْمَحْمُومَةُ لِشَجَرَاتِ الصَّفْصَافِ، حِينَمَا انْصَبَّتِ الرِّيحُ عَلَيْهَا، عَلَى تَفَاقُحِ الْوَهْمِ الْعَجِيبِ بِأَنَّ الْجَزِيرَةَ نَفْسَهَا تَتَحَرَّكُ بِالْفِعْلِ.

كَانَ بِإِمْكَانِي أَنْ أَرَى النَّهَرَ الْعَظِيمَ يَنْحَدِرُ تَجَاهِي مِنْ أَعْلَى، لِمَسَافَةٍ مِيلٍ أَوْ اثْنَيْنِ، كَأَنَّنِي أَتَطَّلَعُ عَالِيًا لِمُنْحَدَرٍ تَلٍّ مُنْزَلِقٍ، أَبْيَضُ ذِي زَبَدٍ، يَتَقَافَزُ فِي جَمِيعِ الْأَنْحَاءِ لِيُظْهَرَ نَفْسُهُ لِلشَّمْسِ.

كَانَتْ بَقِيَّةُ الْجَزِيرَةِ مُغَطَّاءَةً بِالصَّفْصَافِ عَلَى نَحْوِ كَثِيفٍ بِدَرَجَةِ لَا تَجْعَلُ مِنَ السَّيْرِ أَمْرًا مُمْتِعًا. لَكِنَّنِي قُمْتُ بِالْجَوْلَةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ. عِنْدَ الطَّرْفِ الْأَسْفَلِ تَغْيَّرَ الضُّوْءُ، بِالطَّبْعِ، وَبَدَأَ النَّهْرُ قَائِمًا وَغَاضِبًا. وَحَدَّثَهَا ظُهُورُ الْأَمْوَاجِ الطَّائِرَةِ كَانَتْ مَرْتَبَةً، مُوشِئَةً بِالزَّبَدِ، وَمَدْفُوعَةً بِقُوَّةٍ مِنْ قِبَلِ نَفْثَاتِ الرِّيحِ الْهَائِلَةِ الَّتِي بَاغَتْتَهَا مِنَ الْخَلْفِ. كَانَ النَّهْرُ مَرْتَبًا لِمَسَافَةٍ تَقِلُّ عَنِ الْمِيلِ، يَتَدَفَّقُ جِيئَةً وَذَهَابًا بَيْنَ الْجُزُرِ، ثُمَّ يَخْتَفِي بَعْدَ ذَلِكَ فِي اجْتِيَاحِ هَائِلٍ لِأَشْجَارِ الصَّفْصَافِ، الَّتِي تَحَلَّقَتْ حَوْلَهُ كَقَطِيعٍ مِنْ كَائِنَاتٍ بَشَعَةٍ، مِنْ قَبْلِ التَّارِيخِ، تَحْتَشِدُ بِالْأَسْفَلِ لِتَشْرَبَ. جَعَلْتَنِي أَفْكَرَ فِيمَا يَشْبَهُ كُتْلًا إِسْفَنْجِيَّةً عَمَلَقَةً اِمْتَصَّتِ النَّهْرَ إِلَى دَاخِلِهَا. لَقَدْ تَسَبَّبَتْ فِي اخْتِفَائِهِ عَنِ الْأَنْظَارِ. كَانَتْ تَتَجَمَّعُ هُنَاكَ بِأَعْدَادٍ هَائِلَةٍ.

كَانَ مَشْهَدًا مُؤَثِّرًا عَلَى الْإِجْمَالِ، بَعُزْلَتِهِ الْمُطْلَقَةِ، وَإِيْحَاءَاتِهِ الْعَجِيبَةِ، وَعِنْدَمَا نَظَرْتُ، بِإِمْعَانٍ وَتَدْقِيقٍ، بَدَأَ شَعُورٌ مُتَفَرِّدٌ يَتَحَرَّكُ فِي مَكَانٍ مَا

من أعماقي. في خِصَمِّ ابتهاجي بالجمالِ البرِّيِّ، تَسَلَّلَ إِلَيَّ شعورٌ غريب
بالانزعاج، غير إرادي وغير مُبرَّر، يكاد يكون تحذيرًا.

إن نهرًا فائضًا، ربما يوحى دائمًا بشيء من سوء الطالع، العديد
من الجُزُر الصغيرة التي رأيتها بعينيَّ من المُحتمَل أن تُمحي بحلول
الصباح، هذا الفيضانُ الهادر، الذي لا يُقاوم، لمس عندي شعورًا
بالرَّهبة، كنت واعيًا -مع ذلك- بأن عدم ارتياحي يقع أعمق كثيرًا
من مشاعر الرَّهبة والعَجَب. لم يكن الأمر مُتعلِّقًا بما شعرتُ به، وليس
له دَخلٌ مُباشرٌ بقوة الريح الدافعة، بهذا الإعصار المُدوي الذي يكاد
أن يطيح ببضعة أفدِنَةٍ من الصِّفصاف في الهواء، ويذروها كالقَش فوق
المنظر الطبيعي. كانت الريح تستمتع ببساطةٍ، حيث لا شيء يبرز لها
من المنظر الطبيعي المُسطَّح ليوقفها، كنت على وعي بمشاركتي في
لعبتها الكبيرة بنوعٍ من الإثارة المُمتعة. مع ذلك، لم يكن للريح دَخلٌ
في هذا الشعور المُستجد. كان شعور الكَرَب الذي عَائِثُهُ غامضًا، حقًا،
لدرجةٍ استحال عليَّ معها أن أتتبعه حتى مَصَدْرِهِ، وأن أتعاطى معه
وفقًا لذلك، على الرغم من أنني كنتُ مُنتَبِهًا بشكلٍ ما إلى أن للأمر
علاقةٌ بإدراكي لثألتنا التامة إزاء هذه القُوَّة المُفْرِطَة لعناصر الطبيعة
من حولي. كذلك كانت له علاقة بالنهر بالغِ النُموِّ، تلك الفكرة
المُؤرِّقة الغامضة بأننا بشكلٍ ما قد عبثنا مع قوى الطبيعة العظيمة
هذه، والتي نقف عاجزين أمام قُدْرَتِها في كل ساعة من ساعات الليل
والنهار. في تلك اللحظة، كانت مُنهمكة في اللعب مع بعضها البعض،
بصورة عملاقةٍ، حقًا، وكان المنظرُ فِتْنَةً الخيال.

لكن بدا لي أن مشاعري -بقدرٍ ما أستطيع أن أفهمها- تَرْتَبِطُ بشكل
أكثر تحديدًا بشُجيرات الصِّفصاف، بهذه الفدادين تلو الفدادين من
الصِّفصاف، المُتزاخِم، الذي ينمو هناك بكثافةٍ شديدة، مُحْتَشِدًا في كل
مكانٍ تستطيع العَيْنُ أن تَبْلُغَهُ، ضاغِطًا على النهر كما لو كان يخنقه،

مُصْطَفًى تَحْتَ السَّمَاءِ فِي تَشْكِيلٍ كَثِيفٍ لِأَمِيَالٍ وَرَاءَ أَمِيَالٍ، يُرَاقِبُ،
يَنْتَظِرُ، يَتَنَصَّت.

وَبِمَعْزِلٍ كَامِلٍ عَنْ عُنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ، رَبطَ الصَّفَافِ نَفْسَهُ
بِانْزِعَاجِيٍّ، عَلَى نَحْوِ بَارِعٍ، مُهَاجِمًا الْعَقْلَ بِشَكْلِ مُخَاتِلٍ إِلَى حَدٍّ مَا،
بِفِعْلِ أَعْدَادِهِ الْهَائِلَةِ، وَسَاعِيًا -بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى- إِلَى تَجْسِيدِ قُوَّةٍ
جَدِيدَةٍ وَجَبَّارَةٍ أَمَامَ الْخِيَالِ، هِيَ فَوْقَ ذَلِكَ، لَيْسَتْ قُوَّةً وَدِيَّةً تَمَامًا
بِالنِّسْبَةِ لَنَا.

بِالطَّبْعِ، لَمْ تَفْشَلِ التَّجَلِّيَّاتُ الْكُبْرَى لِلطَّبِيعَةِ أَبَدًا فِي إِثَارَةِ الْعَجَبِ،
بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى، وَكُنْتُ مَعْتَادًا عَلَى أَمْرِجَةٍ مِنْ هَذَا النُّوعِ: رَهْبَةُ
الْجِبَالِ، وَرُغْبُ الْمُحِيطَاتِ، بَيْنَمَا يَمَارِسُ غَمُوضُ الْغَابَاتِ الْعَظِيمَةِ سِحْرَهُ
الْخَاصَّ. لَكِنْ كُلُّ هَذَا يَرْتَبِطُ، بِطَرِيقَةٍ مَا، عَلَى نَحْوِ وَثِيقٍ، عِنْدَ نَقْطَةٍ
أَوْ أُخْرَى، بِحَيَاةِ الْبَشَرِ وَخَبَرَتِهِمْ. يَحْرُكُ مَشَاعِرَ مَفْهُومَةٍ، حَتَّى وَإِنْ
كَانَتْ مُنْذِرَةً. تَمِيلُ إِلَى التَّبْجِيلِ بِشَكْلِ عَامٍ.

مَعَ هَذَا الْعَدَدِ الْوَافِرِ مِنْ شُجَيْرَاتِ الصَّفَافِ، كَانَ مَا شَعَرْتُ بِهِ
-عَلَى أَيِّ حَالٍ- شَيْئًا مُخْتَلَفًا كَثِيرًا. انْبَعَثَ مِنْهَا بَعْضُ الْعِطْرِ فَحَاصِرِ
الْقَلْبِ. اسْتَيْقِظَ شَعُورٌ بِالرَّهْبَةِ، حَقًّا، لَكِنَهَا رَهْبَةٌ لَمْ تَسْتَ مَكَانًا مَا
بِرُغْبٍ غَامِضٍ. صَفُوفُهَا الْمُتَرَاصَّةُ، الَّتِي تَزْدَادُ قَتَامَةً فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنْ
حَوْلِي كُلَّمَا تَعَمَّقْتُ الظُّلَالَ، مُتَحَرِّكَةً مَعَ الرِّيحِ بَعْنَفٍ لَا يَخْلُو مِنْ
نَعُومَةٍ، أَيْقَظَتْ بِدَاخِلِي الْخَاطِرَ الْغَرِيبَ وَغَيْرَ الْمَرِيحِ بِأَنَّهَا قَدْ تَخَطَّيْنَا
حُدُودَ عَالَمٍ غَرِيبٍ، عَالَمٍ، كُنَّا دُخْلَاءَ عَلَيْهِ، حَيْثُ لَمْ نَكُنْ مَدْعُومِينَ أَوْ
مُرْجَبًا بِنَا لِلْبَقَاءِ فِيهِ، وَحَيْثُ رَجْمًا نَكُونُ قَدْ خُضْنَا فِي مَخَاطِرَ جَسِيمَةٍ،
إِنْ هَذَا الشُّعُورُ -عَلَى كُلِّ حَالٍ- وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يُسْفِرْ عَنْ حَقِيقَتِهِ
الْكَامِلَةِ بِالتَّحْلِيلِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُكْذِّرْنِي فِي حِينِهِ بِالْإِحْسَاسِ بِالتَّهْدِيدِ. وَمَعَ
ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُنِي هَانِيًّا الْبَالِ قَطُّ، حَتَّى خِلَالِ الْأَشْغَالِ شَدِيدَةِ
الْعَمَلِيَةِ مِثْلَ تَنْصِيبِ الْخِيَمَةِ فِي إِعْصَارِ الرِّيحِ وَإِعْدَادِ النَّارِ لِإِنْدَاءِ

اليخنة. لقد بقي، بالقدر الكافي لِيُسَبَّبَ الإزعاجُ والتَّشَوُّشُ، وليسلب أكثرُ المُخَيَّماتِ إمتاعًا قدرًا كبيرًا من سحرها. على أي حال، لم أتفوّه بشيءٍ لصاحبي؛ لأنني كنتُ أعتبره رجلًا يُعوِّزُهُ الخيالُ. من ناحية، لا يمكنني أبدًا أن أفسّرَ له ما أعنيه، ومن ناحيةٍ أخرى، كان ليسخر منِّي بغباءٍ إنِ فَعَلْتُ.

كان هناك انخفاضٌ طفيفٌ في وسط الجزيرة، نَصَبْنَا الخِيمةَ عنده. تكفَّلَ الصَّفَصافُ المُحيطُ بِكسرِ حِدَّةِ الريحِ قليلًا.

عندما انتَصَبَت الخِيمةُ واقِفَةً أخيرًا، أبدى السويدي -رابطُ الجأش- مَلاحَظَتَه:

- مُخَيِّمٌ بائِسٌ.

- لا توجد حجارة، والخطَبُ قليلٌ للغاية. أنا مع التَّحرُّكِ في الغد المبكِّر... هه؟ هذه الرمالُ لن تحتفظَ بأيِّ شيءٍ.

لكن تجربة الخيمة المنهارة في منتصف الليل قد علَّمتنا العديدَ من التدابير، فجعلنا المنزلَ العَجْرِيَّ المُرِيحَ آمِنًا بقدر الإمكان. ثم شرعنا في جمع مخزونٍ من الخشب يدوم حتى وقت النَّومِ.

لا تُسَقِطُ أشجارُ الصَّفَصافِ أيَّ أغصان، فكانت الأخشاب الطافية هي مصدرُ إمدادنا الوحيد. فَتَّشْنَا الشواطئَ بشكلٍ جيِّدٍ جدًّا، كانت الضَّفاف مُتداعِيَةً في كل مكان، حيث حمل عليها الفيضانُ المُرتَفِعُ، وجَرَفَ جزءًا كبيرًا منها برشْرشةٍ وبَقْبَقَةٍ.

قال السويدي الدقيق:

- إن الجزيرة أَصْبَحَتْ أصغَرَ كثيرًا ممَّا كانت عليه عند وصولنا.

- بهذا المُعدَّل، لن تدوم كثيرًا، سيكون من الأفضل لو سَحَبْنَا القاربَ قَريبًا من الخيمة، وكُنَّا على استعدادٍ لأن ننطلق في لَمَحِ البصر، سوف أنام بملابسي.

كان يتسلَّق بطول الضُّفَّة، على مسافة قصيرة، وسمعتُ ضحكه
المَرِحَ إلى حَدٍّ ما عندما تحدَّث. بعد لحظة، سمعته يصيح:
- بحقِّ الرَّبِّ.

واستدرْتُ لأرى ما الذي قد تَسَبَّب في إثارة تَعَجُّبه، لكنه، في هذه
اللحظة، كان مُخْتَفِيًا وراء الصفصاف، ولم أتمكَّن من العثور عليه.
سَمِعْتُهُ يصيح مرَّةً أخرى، وقد اكتسى صوته بالجديَّة في هذه المرَّة:
- أَيُّ عَجَبٍ هذا؟

ركضتُ مُسرِّعًا، وَلَحِقْتُ به على الضُّفَّة. كان يتطلَّع صَوْبَ النهر،
مُشيرًا نحو شيءٍ ما في الماء. صاح بانفعال:
- يا إله السَّموات، إنها جُثَّة رَجُلٍ! انظُر!

كان شيء أسودٌ يدور ويدور في الأمواج المُزبِدة، انجرف بسرعة
مُبتَعِدًا. ظلَّ يختفي ويطفو على السطح ثانيةً. كان يَبْعُدُ حوالي
عشرين قدمًا عن الشاطئ، ومجرَّد أن أصبح في مواجهة البُقعة التي
نقف عليها بالضبط تَمَّايَل مُستَدِيرًا، ونظر صوبنا مُباشرةً. عندما
انقلبت الجُثَّة، رأينا عينيها وهي تعكس غروب الشمس، وتلتَمِعُ
بُصفرة غريبة. ثم أتت بَعْطَسَةٍ سَريعةٍ صاخبةٍ، وغاصت مُتواريةً عن
الأنظار في ملح البصر.

هتفنا في نَفَسٍ واحدٍ ضاحِكَيْنِ:

- يا الله، إنه قُنْدُس!

كان قُنْدُسًا، حيًّا، خرج للصيد، ومع ذلك فقد بدا -بالضُّبط- وكأنه
جُثَّة رَجُلٍ غارق تدور عاجِزةً في التيار. ظهر على السطح مرَّةً أخرى
على مسافة إلى الجنوب، ورأينا جلده الأسود، مُبلَّلًا ويلتَمِع في ضوء
الشمس.

بعد ذلك، بمجرد أن عُدنا مُحَمَّلَيْن بالأخشاب الطافية، حدث شيء ما أعادنا إلى ضفة النهر مرةً أخرى. هذه المرة كان رجلاً دون ريب، بل أكثر من ذلك: رجلاً في قارب. إن قارباً صغيراً في الدانوب كان مَشْهَداً غير مُعتادٍ في أي وقت، لكن هنا في هذه المنطقة المهجورة، وفي وقت الفيضان، كان شيئاً غير مُتَوَقَّعٍ على الإطلاق، حتى أنه يُثَلَّ حَدَثاً حَقِيقِيّاً. وقفنا وأَطلَّنا النَّظْرَ.

لا أستطيع أن أجزم، إن كان الأمر راجعاً إلى ضوء الشمس المنحرف، أو إلى الانكسار في الماء المضاء على نحو رائع، لكن، أيّاً كان السبب، فإنني واجهتُ صعوبةً في تركيز نظري، بشكلٍ ملائم، على الشبح الطائر. على أي حال، بدا أنه رَجُلٌ يقف مُستقيماً في قارب من النوع مُسطَّحِ القاع، يُسَيِّرُهُ بواسطة مجدافٍ طويل، ويرتحل صوبَ الشاطئ المقابل بوتيرةٍ هائلة. كان على ما يبدو يتطلَّع في اتجاهنا عبر النهر، لكن المسافة كانت كبيرة جداً وكان الضوء شديداً الإخفاء، لدرجةٍ لا تسمح لنا أن نستنتج بوضوحٍ ما الذي كان مُقَدِّماً على فعله. بدا لي أنه كان يومئٍ ويرسل إلينا بإشاراتٍ. جاءنا صوته عبر الماء يصيح بشيء ما بطريقة عنيفة، لكنَّ الرِّيحَ كَتَمَتِه بحيث لم تكن هناك كلمة واحدة مسموعة. شيء غريب كان يَحُصُّ المشهدَ بأكمله: رَجُلٌ وقاربٌ وإشاراتٌ وصوتٌ- شيء ترك فيَّ انطباعاً لا يتناسب مع مُسبِّبه. صَحْتُ:

- إنه يرشُم الصليب على نفسه!

وأَضَفْتُ:

- انظُرْ، إنه يصنع علامة الصليب!

- أعتقد أنَّك على حَقٍّ.

قالها السويدي وهو يُظَلِّلُ عينيه بيده ويراقب الرجل البعيد عن الأنظار. بدا أنه ذهب في لحظةٍ، ذاب هناك في بحر الصِّفَاف الذي

بَاغَتْتَهُ الشَّمْسُ فِي مَنْحَى النَّهْرِ وَحَوَّلَتْهُ إِلَى حَائِطٍ قُرْمَزِيٍّ ضَخْمٍ مِنَ الْجَمَالِ. كَانَ الضُّبَابُ أَيْضًا قَدْ بَدَأَ فِي الْخِدَاعِ، فَأَصْبَحَ الْهَوَاءُ مُغْبِشًا. قُلْتُ شِبْهَ مُحَدِّثٍ نَفْسِي:

- لكن، أي شيء يفعل عند هبوط الليل في هذا النهر الفائض؟
ثم أضفتُ مُتَسَائِلًا:

- إلى أين يذهب في مثل هذا الوقت؟ وماذا قصد بإشاراته وصياحه؟ هل تظنُّ أنه حاول تحذيرنا من شيء ما؟
قال صاحبي:

- لقد رأى دُخَانَنَا، وَظَنَّ أَنَّنَا قَدْ نَكُونُ أَرْوَاحًا.
ثم أكمل ساخرًا:

- يؤمن هؤلاء المَجْرِيُونَ بجميع أنواع التُّرَهَاتِ، أَنْتِ تَذْكُرُ بَائِعَةَ الْمُتَجَرِّ فِي بَرَسْبُورْجٍ وَهِيَ تُنَبِّهُنَا إِلَى أَنَّهُ لَا أَحَدَ عَلَى الْإِطْلَاقِ قَدْ هَبَطَ هُنَا؛ لِأَنَّ الْمَنْطِقَةَ تَنْتَمِي إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْكَائِنَاتِ مِنْ خَارِجِ عَالَمِ الْبَشَرِ! أَعْتَقَدُ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْجِنِّيَّاتِ وَالسَّحَرَةِ، وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ الشَّيَاطِينِ أَيْضًا. ذَلِكَ الْمُزَارِعُ فِي الْقَارِبِ رَأَى أَنَا سًا عَلَى الْجُرُزِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ.

وأضاف بعد صمتٍ قصير:

- لقد أثار الأمرُ رُعبَهُ، هَذَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ.

لَمْ تَكُنْ نَبْرَةً صَوْتِ السُّوَيْدِيِّ مُقْنَعَةً، وَافْتَقَدَ أَسْلُوبَهُ شَيْئًا مَا كَانَ مَوْجُودًا عَادَةً. لَقَدْ لَاحَظْتُ التَّغْيِيرَ عَلَى الْفُورِ عِنْدَمَا تَكَلَّمْتُ، وَرَغْمَ ذَلِكَ لَمْ أَكُنْ قَادِرًا عَلَى تَحْدِيدِهِ بِدَقَّةٍ.

- إِذَا امْتَلَكُوا مَا يَكْفِي مِنَ الْخِيَالِ...

قُلْتُهَا وَضَحَكْتُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ. أَذْكَرُ أَنَّنِي حَاوَلْتُ أَنْ أَثِيرَ الصُّوْضَاءَ
بِقَدْرِ مَا أَسْتَطِيعُ، وَاصَلْتُ:

- ... لَكَانَ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَعْمُرُوا مَكَانًا مِثْلَ هَذَا بِالْآلِهَةِ الْقَدِيمَةِ
لِلْعُصُورِ الْغَابِرَةِ، لَا بُدَّ أَنَّ الرُّومَانَ قَدْ أَسْكَنُوا بِهَذِهِ الْمُنْطَقَةِ
كُلَّهَا، تَقْرِيْبًا، أَضْرَحَتْهُمْ وَحَدَائِقَهُمُ الْمُقَدَّسَةَ وَالْهَتَمَ الْأَوَّلِيَّةَ.

تَرَكْنَا الْمَوْضُوعَ وَعُدْنَا إِلَى إِنَاءِ الْيَخْنَةِ؛ لِأَنَّ صَدِيقِي لَمْ يَكُنْ يَمِيلُ
إِلَى الْمُحَادَثَاتِ الْخَيَالِيَّةِ، بِشَكْلِ عَامٍ، كَمَا أَنَّنِي أَذْكَرُ شَعُورِي وَقَتَهَا
بِالسُّرُورِ الْوَاضِحِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ خَيَالِيًّا، بَدَأَ لِي فَجَاءَةً أَنْ طَبِيعَتُهُ الْعَمَلِيَّةُ
الْبَارِدَةُ شَيْءٌ مُرِيحٌ وَمُسْتَحَبٌّ. شَعَرْتُ أَنَّهَا طَبِيعَةٌ جَدِيرَةٌ بِالْإِعْجَابِ،
يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوجِّهَ الْقَارِبَ فِي الْمُنْحَدَرَاتِ وَكَأَنَّهُ هِنْدِيٌّ أَحْمَرٌ، وَأَنْ يَنْقُذَ
مِنَ الْجَسُورِ الْخَطِرَةِ وَالذَّوَامَاتِ أَفْضَلَ مِنْ أَيِّ رَجُلٍ أَبْيَضَ رَأْيْتُهُ عَلَى
مَتْنٍ قَارِبٍ. كَانَ زَمِيلًا عَظِيمًا لِرَحْلَةٍ مَحْفُوفَةٍ بِالْمَخَاطِرِ، وَكَانَ خَيْرَ
عَوْنٍ عِنْدَمَا أُمْتُ بِنَا الْمِلْمَاتِ. نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ الْقَوِيِّ وَشَعْرِهِ الْأَشْقَرِ
الْمُمُوجِّ وَهُوَ يَتِمَايَلُ تَحْتَ كُومَةِ الْأَخْشَابِ الَّتِي يَحْمِلُهَا، وَالتِّي تَبْلُغُ
ضِعْفَ حِجْمِ كُومَتِي، وَانْتَابَنِي شَعُورٌ بِالرَّاحَةِ. نَعَمْ، كُنْتُ مُسْرُورًا
بِشَكْلِ وَاضِحٍ فِي حِينِهِ لِأَنَّ السُّوَيْدِيَّ كَانَ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُبْدِ
قَطُّ، مُلَاحَظَاتٍ تُلْمَحُ إِلَى أَكْثَرِ مِمَّا قَالَهُ.

- لَا يَزَالُ النَّهْرُ يَرْتَفِعُ، مَعَ ذَلِكَ.

قَالَهَا، كَمَا لَوْ كَانَ يَتَابِعُ بَعْضًا مِنْ أَفْكَارِهِ، ثُمَّ أَلْقَى بِحِمْلِهِ وَهُوَ
يَلْهَثُ، وَقَالَ:

- سَتَكُونُ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ تَحْتَ الْمَاءِ فِي غُضُونِ يَوْمَيْنِ لَوْ اسْتَمَرَّ
الْأَمْرُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ.

قُلْتُ:

- أَمَلُ أَنْ تَهْدَأَ الرِّيحُ، لَا أَهْتَمُّ بِالنَّهْرِ أَدْنَى اهْتِمَامٍ.

في الحقيقة، لم يكن الفيضان يتسبب لنا في أيّ دُعرٍ، يمكننا المغادرة في ظرف عشر دقائق، وكلّما ازداد الماء كلّما أعجبنا الأمر، فهو يعني تزايدًا في التيّار، وطمس فُرْشِ الحصى الغادِرة التي كثيرًا ما هَدَدَت بتخريب قاع القارب.

على العكس من توقّعاتنا، لم تهدأ الرِّيحُ مع غروب الشمس، يبدو أنها تزداد مع الظلام، تعوي فوق رؤوسنا وتهزُّ الصفاف من حولنا مثل أعواد القَشِّ، تصحبها أصواتٌ غريبة في بعض الأحيان، تُشبه انفجار المدافع الثقيلة، هَبَطَت على الماء والجزيرة بصفعاتٍ شديدة ذات قوّة هائلة، جعلتني أفكّر في الأصوات التي لا بُدَّ وأنْ تَصْدُرَ عن كوكبٍ يُسافر عبر الفضاء، لو استطعنا فقط أن نسمعه. لكنّ السماء ظَلَّتْ خاليةً تمامًا من السُّحب، وبعد العشاء بوقت قصير ارتفع القمرُ المُكتمِلُ من الشرق وغطّى النهر وسهل الصفاف الصّاخِبَ بضوءٍ يُشبه ضوء النهار.

استلقينا على البُقعة الرملية المجاورة للنار، ندخُن، ونُنِصْتُ إلى ضوضاء الليل من حولنا، ونتحدّث بسعادةٍ عمّا قطعناه بالفعل من الرحلة، وعن خُططنا المُقبِلة. كانت الخريطة مُنَبِّسَةً على باب الخيمة، لكن الرِّيحَ العاصفة جعلت من دراستها أمرًا صعبًا، كُنّا في وقتها قد أرخينا الستار وأطفأنا الفانوس، كانت إضاءة النار كافيةً لأن ندخُن ونرى وجه أحدهما الآخر، وكان الشَّرَرُ يتطاير في الهواء مثل الألعاب النارية. على بُعد يارداتٍ قليلة خلفنا، كان النهر يُبْقِي وَيُهَسِّسُ، ومن حينٍ لآخر تُعْلِنُ رَشْرَشَةٌ ثقيلةٌ عن سقوط أجزاء إضافية من الضفة.

لاحظتُ أن حديثنا قد تعلّق بالمشاهد والحوادث البعيدة لمُخيّماتنا الأولى في الغابة السوداء، وموضوعاتٍ أخرى بعيدة كلّ البعد عن الوضع الحالي، حيث لم يتحدّث أيٌّ مِنّا عن اللحظة الراهنة أكثر

مِمَّا اقْتَضَتْهُ الضَّرُورَةُ، كَمَا لَوْ كُنَّا -تَقْرِيئًا- اتَّفَقْنَا ضَمْنِيًّا عَلَى تَجَنُّبِ
مُنَاقَشَةِ الْمُخَيِّمِ وَحَوَادِثِهِ. عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، لَمْ يَنْلِ الْقُنْدُسُ وَلَا رَجُلُ
الْقَارِبِ شَرَفَ الذِّكْرِ وَلَوْ لِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَذَا كَانَ لِيُشْغَلَ
-عَادَةً- الْجُزْءُ الْأَكْبَرُ مِنْ مُنَاقَشَةِ الْمَسَاءِ. كَانَتْ، بِالطَّبَعِ، أَحْدَاثًا مُمَيَّزَةً
فِي مِثْلِ هَذَا الْمَكَانِ.

جَعَلَتْ نُدْرَةُ الْأَشْجَابِ الْمُحَافِظَةَ عَلَى النَّارِ مُشْتَعِلَةً هُوَ شَغَلْنَا
الشَّاعِلَ؛ إِذْ أَنَّ الرِّيحَ الَّتِي كَانَتْ تَسُوقُ الدُّخَانَ إِلَى وَجْهِنَا أَيْنَمَا
جَلَسْنَا، سَاعَدَتْ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ عَلَى صُنْعِ تِيَارِ تَهْوِيَةٍ. تَبَادَلْنَا الْقِيَامَ
بِبَعْضِ جَوْلَاتِ الْبَحْثِ فِي الظَّلَامِ، وَدَائِمًا مَا كَانَتْ الْكَمِّيَّةُ الَّتِي يَعُودُ
بِهَا السُّوَيْدِي تَجْعَلُنِي أَشْعُرُ أَنَّهُ اسْتَغْرَقَ وَقْتًُا طَوِيلًا، بِشَكْلِ غَيْرِ
مَعْقُولٍ، فِي الْعَثُورِ عَلَيْهَا، كُنْتُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا أَبَالِي كَثِيرًا بِتَرْكِ وَحِيدًا،
وَمَعَ ذَلِكَ بَدَأَ دَوْمًا أَنَّهُ دَوْرِي فِي النَّبْشِ وَسُطِّ الشَّجَرَاتِ أَوْ التَّسْلُقِ
بَطُولِ الصُّفَافِ الزَّلْقَةِ تَحْتَ ضَوْءِ الْقَمَرِ. إِنْ مَعْرَكَةُ النَّهَارِ الطَّوِيلَةِ مَعَ
الرَّيْحِ وَالْمَاءِ -تِلْكَ الرِّيحِ وَذَلِكَ الْمَاءِ!- قَدْ أَتَعَبَتْنَا كِلَيْنَا، وَكَانَ النَّوْمُ
مُبَكَّرًا هُوَ الْبِرْنَامُجُ الْبَدِيهِيُّ. مَعَ ذَلِكَ، لَمْ يُبَادِرْ أَيُّ مِنَّا بِالتَّحَرُّكِ إِلَى
الْحَيْمَةِ. اسْتَلَقَيْنَا هُنَاكَ، نَعْتَنِي بِالنَّارِ، وَتَبَادُلْ أَحَادِيثَ غَيْرَ مُتْرَابِطَةٍ،
وَنُحَدِّقُ فِي شُجَرَاتِ الصُّفَافِ الْكَثِيفَةِ مِنْ حَوْلِنَا، وَنُنْصِتُ إِلَى هَدِيرِ
الرَّيْحِ وَالنَّهْرِ، كَانَتْ وَحْشَةً الْمَكَانِ قَدْ تَسَلَّلَتْ عَمِيقًا فِي عِظَامِنَا، وَبَدَأَ
أَنَّ الصَّمْتَ طَبِيعِيًّا؛ إِذْ أَصْبَحَتْ نَبْرَةً أَصْوَاتِنَا -بَعْدَ قَلِيلٍ- مُصْطَنَعَةً
وَمُتَكَلِّفَةً إِلَى حَدٍّ مَا. شَعَرْتُ أَنَّ الْهَمْسَ رُبَّمَا كَانَ الْأُسْلُوبَ الْأَمْثَلَ
لِلتَّوَاصُلِ، وَأَنَّ الصَّوْتَ الْبَشَرِيَّ الَّذِي طَالَمَا بَدَأَ سَخِيفًا، إِلَى حَدٍّ مَا،
وَسُطِّ هَدِيرِ عُنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ، حَمَلَ فِي طَيَّاتِهِ شَيْئًا غَيْرَ مَشْرُوعٍ
تَقْرِيئًا، كَانَ مِثْلَ التَّحَدُّثِ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ فِي الْكَنِيسَةِ، أَوْ فِي مَكَانٍ مَا
حَيْثُ لَا يَكُونُ مُبَاحًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْقَانُونِيَّةِ، وَرَبَّمَا لَا يَكُونُ أَمْرًا مَأْمُونًا
الْعَاقِبَةُ بِشَكْلِ كَبِيرٍ، أَنَّ تُسْمَعَ مُصَادَفَةً.

أظنُّ أن غرابة هذه الجزيرة الموحِشة مَسَّتْنا كَلَيْنًا، بموقعها وسط مليون صفصافَةٍ، يجتاحها إعصارٌ، وتحيط بها المياه العميقة المتسارعة. تقبع هناك تحت القمر، لم تَطأها قَدَمُ إنسانٍ، تقريبًا لا يعرفها إنسان، بعيدة عن تأثير البشر، على حدودِ عالَمٍ آخر، عالم غريب، عالم مُحْتَلٌّ بالصفصاف، فقط، وأرواح الصفصاف. ونحن بتهوُّرنا قد جَرَّوْنا على غزوها، ولو للاستفادة منها! اضطرب بداخلي شيءٌ ما أكثر من قُوَّةِ غُموضها بينما كنتُ مستلقيًا على الرمال، جاعِلًا قدميَّ باتجاه النار، ومُدَقِّقًا النظر لأعلى من خلال أوراق الشجر صَوَّبَ النُجُوم. نهضتُ كي أَجْلِبَ حَطَبًا للمرأة الأخيرة. قلتُ بحَزَمٍ:

- عندما يَحْتَرِّقُ هذا، سأتحوَّل إلى الداخل.

وراقبني صاحبي بكسَلٍ بينما كنتُ أتحركُ في الظلال المُحيطة.

فَكَّرْتُ أنه بَدَأَ مُتَفَتِّحًا في تلك الليلة، على غير العادة، بالنسبة لشخصٍ يَنْقُصُهُ الخيالُ، لم يَكُنْ، عادةً، مُنْفَتِحًا لإحياءات الأشياء، بخلاف الإحياءات الحِسِّيَّة. تأثَّر هو الآخرُ بِجَمالِ وَوْحِشَةِ المكان. أذكر أنني لم أَكُنْ راضِيًا، بشكلٍ تامٍّ، لملاحظة التَغَيُّرِ الطفيف الذي طرأ عليه، وبدلًا من أن أجمع أعواد الحطب لفوري، اتَّخَذْتُ طريقي إلى النقطة البعيدة من الجزيرة حيث يمكن رؤية ضوء القمر على السهل والنهر بصورةٍ أفضل. انتابتني الرَغْبَةُ في الانفراد بنفسي على نحوٍ مفاجئٍ، عَادَتْ رَهْبَتِي السابقة بقوة، كان بداخلي شعورٌ مُبْهِمٌ مَمْنِيْتُ لو أواجهه وأُسِرَ غَوْرَه.

عندما وَصَلْتُ إلى النقطة النائية من الرِّمال وسط الأمواج، حلَّ عليَّ سِحْرُ المكان بصدمةٍ إيجابية. ما من مشهدٍ طبيعي كان ليُخْلِفَ مثل هذا الأثر. ثَمَّة شيء أكبر هنا، شيء يبعث على الحذر.

حدَّقْتُ عبر خراب المياه الهائجة، وشاهدتُ الصَّفصافَ المُتْهَامِسَ، وسمعت الضربات المتواصلة من الريح التي لا تَكِلُ، وجميعها، كُلُّ

بطريقته الخاصة، حرّكت بداخلي إحساسَ الكرب الغريب هذا. وعلى وجه الخصوص شُجيرات الصفصاف؛ إذ راحت تُثْرِثُرُ وتتحدّث فيما بينها، تضحك قليلًا، وتصرخ بصوتٍ أَجَشٍّ، وتتنهّد أحيانًا، وأيًا كان ما أثار حماسها إلى هذا الحدِّ فقد انتمى إلى الحياة السرية للسَّهل الكبير الذي تسكنه. وكان غريبًا تمامًا عن العالم الذي عرفته، أو عن ذلك العالم الخاص بعناصر الطبيعة الضارية التي لا تخلو، مع ذلك، من رَحْمَةٍ. دفعتني الشَّجيراتُ إلى التفكير في مجموعة من الكائنات على مستوى آخر من الحياة، ربما كان نشوءًا آخرَ بأكمله، جميعها تناقش سرًّا معروفًا لها فقط. شاهدتها تتحرّك معًا بانشغال، تهزُّ رؤوسها الكبيرة المشعّعة بشكلٍ غريب، تُدير أوراقها التي لا تُحصَى، ولو لم تكن هناك ريح. تحرّكت بمحضِ إرادتها كما لو كانت حيّةً، ولمست، بطريقة ما لم تكن في الحسبان، مفهومي الدقيق لِمَا هو مُفزع.

وقَفْتُ هناك في ضوء القمر، كجَيْشٍ ضَخْمٍ يُحِيطُ بِمُخِيْمِنَا، تهزُّ رِمَاحها الفُضِيَّة التي لا تُحصَى، في تحدٍّ، مُتَّخِذَةً وضع الاستعداد للهجوم. إن سيكولوجية الأماكن، بالنسبة لبعض المُخيَّلات على الأقلِّ، تكون حيّةً للغاية، بالنسبة للرَّحالة، على وَجْهِ الخُصوص، تحمل المُخيَّمات "علامتها" سواء بالترحاب أو بالرفض. قد لا تكون واضحةً في البداية دائمًا؛ لأن الإعدادات المَحْمُومَة للخِيْمَة والطهي تحُولُ دون ملاحظتها، لكن مع أوَّلِ تَوَقُّفٍ، وعادةً ما يكون بعد العشاء، تحضر وتعلن عن نفسها. وعلامة مُعَسَّكَرِ الصَّفصاف، هذا، أَصْبَحَتْ واضحةً لي بشكلٍ لا لَبَسَ فيه: كُنَّا مُتَطَفِّلِينَ ودُخلاء، ولم يَكُنْ مُرَحَّبًا بنا. تَمَلَّكَنِي شعورٌ بالغربة بينما كنت واقفًا هناك أَتَطَّلَعُ. لقد وَطِنَا حدود منطقةٍ كان حضورنا فيها مَحَلًّا استياء. من الوارد أن يُسَمَّحَ لنا بِقضاء ليلة، ولكن لإقامة طويلة الأمد ومُتَطَفِّلة، لا! بِحَقِّ كُلِّ آلِهَةِ الأشجار والبرِّيَّة، لا! كُنَّا أوَّلِ التأثيرات البشرية على هذه الجزيرة، ولم يَكُنْ مرغوبًا فينا، كان الصفصاف ضَدَّنَا.

أفكارٌ غريبة كهذه، أخيلةٌ عجيبة، لا أعرف من أين أتت، وجدتُ لها مكانًا في عقلي بينما كنتُ واقفًا أنصتُ. تساءلتُ، ماذا لو ثبتت في النهاية أن شجيرات الصفصاف المطاطية، هذه، حيّة، ماذا لو نهضت فجأةً مثل فرقة من الكائنات الحيّة حشدتها الآلهة التي قد انتهكنا منطقة نفوذها، واندفعت نحونا من المستنقعات الشاسعة، مدويةً في سماء الليل، قبل أن تستقر! عندما نظرت كان من السهل جدًا أن أتخيل أنها تتحرك بالفعل، تزحف مُقترِبةً، تتراجع قليلًا، تتكؤم معًا في كُتلٍ، عدائيةً، منتظرةً الرّيح التي لا بُدَّ في النهاية أن تعطيها إشارة الانطلاق. كنتُ لأقسم أن هيئتها تغيرت قليلًا، وأن صفوفها تعمقت وانضغطت معًا بإحكام.

تردّدت في السماء صرخةً حادةً كئيبه لطائرٍ ليلى، وكِدْتُ أفقد توازني فجأةً؛ إذ سقط الجزء الذي أقِفُ عليه من الضفة في النهر مُثيرًا رشاشًا كبيرًا، بعد أن قوّضه الفيضان. تراجعتُ للخلف في الوقت المناسب، وواصلتُ التّقيبَ عن أعواد الحطب مرّةً أخرى، ساخرًا بعض الشيء من الأخيلة الغريبة التي ازدحمت بكثافة في عقلي وألقت تعويذتها عليّ. استعدتُ ملاحظة السويدي عن المُضيّ قُدّمًا في اليوم التالي. كنتُ أفكّر لتوّي بأنني أوافقُه تمامًا، عندما استدّرتُ فجأةً لأراه واقفًا أمامي مباشرةً. كان قريبًا جدًا. فقد غطى صخبُ الطبيعة على اقترابه.

مكتبة

t.me/t_pdf



- لقد ابتعدت كثيراً!

صاح رافعًا صوته فوق صَخَبِ الريح، ثم أضاف:

- اعتقدتُ أن شيئاً ما قد حَدَثَ لك.

لَكِنَّ شَيْئًا فِي نَبْرَةِ صَوْتِهِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى سَمْتِ مَا عَلَى وَجْهِهِ، أَبْلَغَانِي بِأَكْثَرِ مِنْ كَلِمَاتِهِ الْعَادِيَّةِ، وَفَهِمْتُ عَلَى الْفُورِ السَّبَبَ الْحَقِيقِيَّ وَرَاءَ مَجِئِهِ. وَهُوَ أَنَّ سِحْرَ الْمَكَانِ قَدْ دَخَلَ إِلَى رُوحِهِ هُوَ الْآخِرُ، وَلَمْ يَحِبْ أَنْ يَبْقَى بِمُفْرَدِهِ. صَاحَ مُشِيرًا إِلَى الْفَيْضَانِ فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ:

– لا يزال النهر يرتفع!

ثم أضاف:

– والريّح فطيعة حقّا.

لطالما قال نفس الكلام، لكنَّ التماس الصُّحبة هو ما أضفى على كلماته أهميَّةً حقيقيَّة.

رَدَدْتُ عليه صياحه:

- من حُسْنِ الحظ أن خيمتنا في التجويف، أظنُّ أنها ستتماسك على نحوٍ جيّد.

أضفتُ شيئاً عن صعوبة العثور على أخشاب؛ حتى أبرَّرَ غيابي، لكنَّ الريح التَّقَطَّتْ كلماتي وطَوَّحَتْ بها عبر النهر، حتى أنه لم يسمع، لكنه تطلَّع إليَّ فقط من خلال الأغصان، مُومِّئاً برأسه.

- سنكون مَحْظُوظين لو أَفْلَتْنَا من دون كارثة!

صاح بذلك، أو بشيءٍ له نفس الأثر، وساوَرَنِي تجاهه شعورٌ ببعض الغَضَبِ لأنه صاغ الفِكرةَ في كلمات، فقد كان هذا بالضبط ما شعرتُ به أنا نفسي. كانت هناك كارثة وشيكة في مكانٍ ما، وتلبَّسَني إحساسُ التَّطَيُّرِ على نحوٍ كريه.

عُدْنَا إلى النار، وأحدثنا تَوَهُُّجاً أخيراً، ونحن نَطَوُّها بأقدامنا. ألقينا نظرةً أخيرةً من حولنا. لولا الريح لكانت الحرارةُ كريهةً. صُغْتُ هذه الفكرةَ في كلمات، وأذكر أن رَدَّ صديقي صَدَمَنِي بشكلٍ غريب: إنه كان يُفَضِّلُ الحرارة، طقس يوليو المعتاد، على هذه "الريح الشيطانية".

كان كُلُّ شيءٍ مُرتَبِّباً أثناء الليل: يرقد القارب مقلوباً إلى جوار الخيمة، ومن تحته المجدافان الأصفران كلاهما، كيس المِوْنِ مُعلَّقاً على جذع صفصافة، الأطباق المغسولة وُضِعَتْ على مسافةٍ آمِنَةٍ من النار، جاهزةً لوجبة الصَّبَاح.

أطفأنا جمرات النَّار بالرمال، ثم انتقلنا إلى الداخل. كان مصراع باب الخيمة مرفوعاً، فرأيت الأغصان والنجوم وضوء القمر الأبيض. كانت شُجَيرات الصفصاف المهْتَزَّةُ وصفعات الريح الثَّقِيلَةُ على منزلنا

المشودود الصغير هي آخر ما أذكره عندما هبط النومُ وغمر كلَّ شيء
بنسيانه الناعم اللذيذ.

وجدتُ نفسي، فجأة، أرقد مستيقظًا، أُحدِّق عبر باب الخيمة من
فِراشي الرملي. تطلَّعتُ إلى ساعتِي المُثَبَّتَةِ على قماش الخيمة، ورأيتُ
على ضوء القمر السَّاطع أنها قد تَخَطَّت الثانية عشرة، على عتبة
يَوْمٍ جديد، وأكون بذلك قد نِمْتُ ساعتَيْن. كان السويدي لا يزال نائمًا
إلى جوارِي، والريح تعوي كما في السابق، انخلع شيءٌ في قلبي وجعلني
أشعر بالخوف. كان هناك إحساسٌ بالانزعاج على مقربةٍ مباشرةٍ مِنِّي.
نهضتُ مُسرِّعًا وتطلَّعتُ إلى الخارج، كانت الأشجار تَمَایِلُ بعُنفٍ
جِيئةً وذهابًا كما لو كانت الرياح تَبِطِشُ بها، لكنَّ قِطْعَةَ القماش
الأخضر الصغيرة التي تَخُصُّنا كانت ترقد في تجويفها آمِنَةً في استكانة،
حيث كانت الرِّيح تَمُرُّ من فوقها من دون أن تَلْقَى مقاوِمَةً كافية
لأن تثير شرورها. لم ينقضِ شعور القلق، على كل حال، زحفتُ بهدوءٍ
إلى خارج الخيمة لأرى إن كان مَتاعُنَا في أمان، تحرَّكتُ بحرصٍ حتى لا
أوقِظَ صاحبي. كانت بداخلي إثارة غريبة.

كنتُ في منتصف الطريق للخارج، راكعًا على أربع، عندما مَيَّزَت
عيني أوَّلًا قِمَمَ الشجيرات المواجهة، بتشابُكات أوراقها المتحرَّكة، وهي
تصنع أشكالًا على خلفيَّة السماء. جلستُ على عَجِيزَتِي وَحدَّقْتُ. كان
الأمر مُدهِشًا، بالتأكيد، لكن كانت هناك، بمواجهتي ولأعلى بعض
الشيء، أشكالًا من نوعٍ غيرٍ مُحدَّدٍ وسط الصِّفَاف، وعندما كانت
الأغصان تميل مع الرِّيح بدا أنها تتجمَّع حول هذه الأشكال، مُكوِّنَةً
سلسلةً من الخطوط الخارجية الممسوخة التي تحرَّكت بسرعة تحت
القمر. رأيتُ هذه الأشياء عن قُرب، على بُعْدٍ حوالي خمسين قدمًا
أمامي.

خطر لي أولاً أن أوقِظَ صاحبي، الذي قد يراها هو الآخر، لكن شيئاً ما جعلني أتردد، قد يكون إدراكي المفاجئ أنه لا ينبغي عليّ السَّعي إلى تأكيد الأمر. وفي هذه الأثناء جَثَمْتُ هناك أُحدِّق في دُهوْل بعينين بهما حُرْقَة. كنتُ مستيقِظاً تماماً، أتذكّر قولي لنفسي أنني لم أَكُن أحلم.

في البداية، أَصْبَحَت هذه الأشكالُ الضخمة مرئيةً، بشكل واضح، من خلال قِمَمِ الشجيرات فقط، هائلة، ذات لون برونزي، متحرّكة، ومستقلّة تماماً عن تمايل الأغصان. رأيْتُها بوضوح، ولاحظْتُ -بعد أن أَصْبَحْتُ أَتَفَحَّصُها بهدوء أكبر- أنها أكبر كثيراً من البَشَر، وأن هناك شيئاً في مظهرها، حقاً، يبوح بأنها ليست بشريّةً على الإطلاق. كان من المؤكّد أنها ليست مُجرّد حركة شبكة الأغصان في مواجهة ضوء القمر. كانت تنتقل بشكل مُستقلّ. تصعد في تيّارٍ متواصل من الأرض للسماء، تتلاشى تماماً بمجرد أن تبلغ ظِلْمَةَ السماء. يتداخل أحدها مع الآخر، فتصنع عموداً عظيمًا، ورأيْتُ ضلوعها وأجسادها الهائلة تذوب مُندَمِجَةً ومُنْفَصِلَةً بعضها عن بعض، لتُشكِّلَ هذا الخَطَّ الأفعواني الذي ينحني ويتمايل ويلتفُّ بشكلٍ حلزونيٍّ مع التواءاتِ الأشجار التي تلتطمها الرياح. كانت أشكالاً عاريةً سائلةً، تمرُّ فوق الشجيرات، مُتخلِّلَةً الأوراقَ بالكاد، صاعدةً إلى السماء في عمودٍ حيٍّ. لم أتمكّن من رؤية وجوهها قَطُّ. تتدفّق لأعلى من دون توقُّف، تتمايلُ في مُنَحْنِيَّاتٍ كبيرة مُقوّسة، مع طيفٍ برونزيٍّ شاحبٍ على بشرتها.

حدّقتُ، مُحاولاً أن أستنفر كلّ ذرّةٍ رؤيَةٍ في عيني. ظننتُ لفترة طويلة أنها لا بُدَّ أن تختفي وتتماهى في أي لحظةٍ مع حركة الأغصان، وأن يتّضح أنها خداعٌ بصريٌّ. بحثْتُ في كلّ مكان عن دليل على الواقع، حتى فَهِمْتُ فجأةً أن معيار الواقع قد تغيّر. لأنني كلّما أَمَعَنْتُ النظر ازداد يقيني بأن هذه الأشكال حقيقيّةٌ وحيّة. على الرغم من أن ذلك قد لا يتَّفِقُ مع المعايير التي تلتزم بها الكاميرا وعُلماء الأحياء.

بعيداً عن شعوري بالخوف، استحوذ عليَّ إحساسٌ بالدهشة والعَجَب لم أعرف مثله قطُّ. بدا لي أنني أُحدِّق إلى تجسيد القوى الطبيعية لهذه المنطقة البدائية المسكونة. إِنَّ تَطَفُّلَنَا قد حَفَظَ قوى المكان على الحركة، كُنَّا نحن مَنْ تَسَبَّبَ في الإزعاج، وامتلاً ذهني، حتى كاد ينفجر، بقصص وأساطير أرواح وآلهة الأماكن التي أقرَّ بها البَشَرُ وعَبَدوها في كل مراحل تاريخ العالم. لكن قبل أن أتمكَّن من الوصول إلى أيِّ تفسير مقبول، دَفَعَنِي شيء ما للخروج أكثر من ذلك، فَرَحَفْتُ إلى الأمام على الرَّمال ونهضتُ واقِفًا، شعرتُ بالأرض لا تزال دافئةً تحت قدميَّ الحافيتين. لَفَحَتِ الرِّيحُ وجهي وشعري، ودَوَّى صوتُ النهر في أذنيَّ بهديرٍ مفاجئٍ. كنت أعرف أن هذه الأشياء حقيقية، وأنها تُبرهنُ على أن حواسِّي تعمل بشكلٍ طبيعيٍّ، مع ذلك، كانت الأشكال لا تزال تصعد من الأرض إلى السماء، صامتةً، بجلالٍ، في دَوَّامةٍ عظيمة من البهاء والقُدرة غَمَرَتَنِي طويلاً بشعورٍ أصيل وعميق بالتَّنَسُّك. شعرتُ أنني يجب أن أخِرَّ مُتَعَبِّدًا، عبادةً مُخْلِصةً.

رَبِّمَا كُنْتُ لأفعل ذلك في اللحظة التالية، لولا أن اجتاحتني عاصفةٌ من الرياح بقوة هائلة حتى أنها أطاحت بي جانبًا، فتعثَّرتُ وكِدْتُ أَسْقُطُ. بَدَتْ وكأنَّها تنفضُ الحُلُمَ عَنِّي بعنف. على الأقلِّ، فقد مَنَحَتَنِي -بطريقةٍ ما- وجهةَ نظرٍ أخرى. لا تزال الأشكالُ هناك، تصعد إلى السماء من قلب الليل، لكنَّ منطقي بدأ يَفْرِضُ نفسَه أخيرًا. جادَلْتُ نفسي: إنها حَتَمًا تجربةٌ ذاتِيَّة، الأمر الذي لا يُقَلِّلُ من واقعِيَّتِها، لكنها مع ذلك تبقى ذاتِيَّةً. اجتمع ضوء القمر والأغصان لعكس هذه الصور على مرآة الخيال، ولسببٍ ما أسقطتها على الخارج وجَعَلَتِها تبدو موضوعيَّةً، أدركتُ أن الحالة لا بُدَّ أن تكون على هذا النِّحو، بالطبع. اسْتَجَمَعْتُ شجاعتي، وبدأتُ في التَّحَرُّك قُدَمًا عبر بُقَع الرمال المفتوحة. بحَقِّ الرب، مع ذلك، هل كان الأمرُ كُلُّه

هَلُوسَةً؟ هل كان مَحَضٌ ذاتِيَّةٌ؟ أَمْ يُجَادِلُ مَنْطِقِي بالطريقة القديمة العقيمة بالمعيار البسيط للمُدرِك؟

كل ما أعلمه أن عمودًا عظيمًا من الأشكال كان يصعد في الظلام إلى السماء لما بدا أنه فترة زمنية طويلة، وبالمقياس المُطلَق للواقع الذي اعتاد مُعظَمُ الناس استخدامه. ثم اختفت فجأة!

وبمجرد أن اختفت، وانقَضَت الدَّهْشَةُ المباشرة لوجودها الطاعني، هبط الخوفُ عليَّ باندفاعٍ بارِدَةٍ. اندلع بداخلي، فجأةً، المعنى المُستَرِّ لهذه المنطقة الموحشة والمسكونة، وبدأتُ أرتعش بشكلٍ رهيب. أَلْقَيْتُ نَظْرَةً خَاطِئَةً من حولي -نظرة رعب اقتربت من الهلع- محاولًا -عَبَثًا- الاستدلالَ على طُرُقٍ للهرب، ومُدرِكًا من ثم كَمْ كُنْتُ عاجِزًا على الإتيانِ بِأَيَّةِ أَفْعَالٍ مُؤَثِّرَةٍ حَقًّا، زَحَفْتُ عَائِدًا إلى الخيمة بهدوء، واستلقيتُ مُجدِّدًا على فِرَاشِي الرَّملي، بعد أن أَرَحَيْتُ مِصْرَاعَ باب الخيمة لأحجب مشهدَ الصَّفْصاف الذي يضيئه القمر، وبعد ذلك دَفَنْتُ رَأْسِي عميقًا قدرَ استطاعتي تحت الأغطية كي أُسَكِّتَ صَوْتَ الرِّيحِ المُرْعِبَةِ.

وكأنَّما لإِقْناعِي أَكْثَرَ بأنَّني لم أكن أحلم، أذكر أن فترةً طويلة قد انقضت قبل أن أسقط مجدِّدًا في نوم مضطربٍ ومُزعِج، وحتى عندما حدث ذلك لم تَنَمْ سوى القِشْرَةِ العُلْيَا مُني، ومن تحتها شيءٌ ما لم يَغِيبَ عن الوعي تَمَامًا، إنما بَقِيَ مُنْتَبِهًا ومُتَرَقِّبًا.

لكنَّني في هذه المرة الثانية انتَفَضْتُ على بداية حقيقة للرُّعب. لم يَكُنْ ما أيقظني هو الرِّيحُ ولا النهر، بل الاقتراب الحثيث لشيء ما تَسَبَّبَ في أن تُصْبِحَ حِصَّتِي من النوم أصغرَ فأصغرَ حتى تلاشت تَمَامًا في النهاية، ووجدتُ نفسي جالِسًا في وضعٍ عَمُودِيٍّ، أَتَنَصَّت.

بالخارج، كان هناك صوتُ طَقْطَقَاتٍ خفيفةٍ بأعداد كبيرة، وكنتُ مُدرِكًا أنها مُستمرةٌ منذ فترة طويلة، وقد بدأتُ أسمعها في نومي.

جلستُ مُتَوَتِّراً في يقظة تامةٍ وكأَنني لم أُنمَ بالمرّة. بدا لي أن أنفاسي تَخْرُجُ بصعوبة، وأن هناك ثِقْلاً كبيراً على سطح جسدي. بالرغم من الليلة الحارّة، كنت أشعر أَنني مُرطبٌ بالبرودة وأرتجِفُ. كان هناك شيء، بالتأكيد، يضغط بانتظام على جوانب الخيمة ويرمي بثقله عليها من أعلى. أيكون جَسَدَ الرِّيح؟ أيكون هو المطر الويل؟ قَطُرُ أوراقِ الشجر؟ الرِّذاذ الذي حَمَلَتْهُ الرِّيحُ من النهر وقد تَجَمَّع في قطراتٍ كبيرة؟ توارَدَت عشرات الأشياء على فكري.

ثم فجأةً، قفز التفسير إلى ذهني: غصن من الحور، الشجرة الكبيرة الوحيدة في الجزيرة، قد سقط بفعلِ الرِّيح. لا يزال نصفُ مُعلَّقٍ بالأغصانِ الأخرى، وقد يسقط مع العاصفة التالية ويسحقنا، وفي ذلك الوقت كانت أوراقه تَحَنُّكَ بِقُماشِ الخِيمة وتَنقُرُ على سطحه المَشْدود. رَفَعْتُ المِصرَاعَ السَّائِبَ واندَفَعْتُ إلى الخارج، مُنادِياً على السويدي كي يتبعني.

لكنني عندما أصبحتُ بالخارج وانتصبْتُ واقِفاً رأيتُ أن الخيمة كانت حُرّةً. ليس هناك أي أغصان مُعلَّقة، ليس هناك مَطَرٌ ولا رِذاذٌ، ما من شيءٍ كان يَتَهَدَّدُنا.

ضوءٌ رماديٌّ باردٌ نَفَذَ من خلال الشجيرات وسقط على الرمال ذات البريق الباهت. كانت النجوم لا تزال مُحْتَشِدَةً بالسَّماء فوق رأسي مباشرةً. والرياح لا تزال تعوي بشكلٍ رائعٍ، لكن النار لم تُعَدِ تُصْدِرُ أيَّ وَهَجٍ، ومن خلال الأشجار، رأيتُ الشرق يتلوّن بخطوطٍ حمراء. لا بُدَّ أن ساعاتٍ عديدةً قد انقضت منذ وَقَفْتُ هناك من قبل أراقب الأشكال الصاعدة، وعندها، عادت ذكرها إليَّ على نحوٍ مُرَوِّع، مثل حلمٍ شرير. أوه، كم أتعَبَتَنِي تلك الرِّيحُ المحمومة التي لا تهدأ! مع ذلك، بالرغم ممَّا أصابني من كَلَلٍ شديدٍ جرَّاءَ ليلةٍ مُورَّقة، كانت أعصابي تَخِرُّني بفعل خوفٍ لا يهدأ بالمثل، ولم تكن أيّة فكرةٍ للراحة

مَحَلَّ مناقشة. رأيتُ أن النهر قد ازداد ارتفاعاً. ملأ هديره الهواء،
ومن خلال قميص نومي الخفيف شعرتُ بقدرٍ مُعْتَبَرٍ من الرّذاذ.
مع ذلك، لم أجد في أيِّ مكانٍ أدنى دليلٍ على وجود ما يُثير الريبة.
هذا الاضطراب العميق الذي طال أَمَدُه في قلبي بَقِيَ غَيْرَ مُعَلَّلٍ على
الإطلاق.

لم يكن صاحبي قد تحرّك عندما نادَيْتُه، ولم أجد بي حاجةً لإيقاظه
حينها. أَمَعَنْتُ النَّظَرَ من حولي، مُدَقِّقاً في كل شيء: القارب المقلوب،
المجدافَيْن الصّفراويْن كِلَيْهِمَا، أنا أكيدٌ من ذلك، كيس المُوْن والفانوس
الإضافي مُعَلَّقَيْن على الشجرة معاً، وفي كل مكان من حولي، كان
الصفصاف يَحْتَشِدُ، مُغْلَقاً كُلَّ شيء، هذا الصفصاف المُهْتَزُّ اللانهائي.
صدق طائرٌ بصيحته الصباحية، ومرّ في السماء سِرْبٌ من البَطِّ بطيران
مُرْفَرِفٍ عند الشَّفَق. دوّمت الرّمالُ في الريح، جافّة ولاسعة، حول
قدمي العاريّتين.

سِرْتُ حول الخيمة ثم انحرَفْتُ قليلاً إلى داخل الدَّغْل، حيث
يمكنني أن أرى المنظر الطبيعيّ بصورةٍ أفضلَ عبر النّهر، واستحوذ عليّ
مرّةً أخرى شعورُ الضّيق العميق نفسه -وغير المُحدّد مع ذلك- لدى
رؤيتي بحر الصّفصاف الشاسع يمتدُّ حتى الأفق، يبدو شَبَحِيّاً وغير
حقيقيٍّ في ضوء الفجر الشاحب. مَشَيْتُ على مهلٍ هنا وهناك، مُتَحِيرّاً،
ما زِلْتُ، بسبب صوت الطقطقة اللا نهائية الغريب ذلك، وبسبب
ذلك الضغط على الخيمة الذي قد أيقظني. فَكَّرْتُ أنها كانت الريح
بلا شك -تنقُضُ الريح على الرمال الحارّة السّايِبة حاملةً الحُبِيبات
الجافّة بقوةٍ نحو القُماش المشدود- كانت الريحُ تَحُطُّ بشدّة على
سقفنا الهشّ.

ظَلَّتْ عَصِيَّتِي وتَوَعَّكِي يتزايدان بشكلٍ ملحوظٍ.

عَبَرْتُ إِلَى الشَّاطِئِ الْبَعِيدِ وَلاَحَظْتُ كَيْفَ كَانَ خَطُّ السَّاحِلِ قَدْ تَغَيَّرَ
فِي اللَّيْلِ، وَكَمْ مِنْ كُتَلِ الرَّمَالِ قَدْ جَرَفَهَا النَّهْرُ، غَطَّسَتْ يَدَيَّ وَقَدَمَيَّ
فِي التِّيَّارِ الْبَارِدِ، وَغَسَلَتْ جَبْهَتِي، كَانَ وَهْجٌ مِنَ الشَّمْسِ الْمُشْرِقَةِ قَدْ
ظَهَرَ فِي السَّمَاءِ بِالْفِعْلِ.

فِي طَرِيقِ عَوْدَتِي، مَرَرْتُ تَحْتَ الشُّجَيْرَاتِ نَفْسَهَا حَيْثُ قَدْ رَأَيْتُ
عُمُودَ الْأَشْكَالِ يَرْتَفِعُ إِلَى الْهَوَاءِ، وَفِي مَنْتَصَفِ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْأَجْمَاتِ
وَجَدْتُ نَفْسِي مَأْخُودًا، فَجْأَةً، بِشُعُورٍ بِالِغِ بِالرُّعْبِ. شَكْلٌ ضَخْمٌ عَبَّرَ
مِنَ الظُّلَالِ مُسْرِعًا. شَخْصٌ مَا مَرَّ بِي، أَنَا مَتَأَكَّدٌ مِنْ ذَلِكَ كُلِّ التَّأَكِيدِ...

كَانَتْ هَبَّةٌ كَبِيرَةٌ مُذْهِلَةٌ مِنَ الرِّيحِ هِيَ الَّتِي سَاعَدَتْنِي عَلَى الْمُضِيِّ
قُدُّمًا مِنْ جَدِيدٍ، وَبِمَجْرَدِ أَنْ خَرَجْتُ إِلَى فِضَاءٍ أَكْثَرَ اتِّسَاعًا، تَلَاشَى
إِحْسَاسُ الرُّعْبِ بَغْرَابَةً. أَتَذَكَّرُ أَنَّنِي قُلْتُ لِنَفْسِي إِنْ الرِّيحَ كَانَتْ فِي
الْمَكَانِ وَكَانَتْ تَمْشِي؛ لِأَنَّ الرِّيحَ تَتَحَرَّكُ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ كَحُضُورِ طَاغٍ
تَحْتَ الْأَشْجَارِ. وَبِالْإِجْمَالِ فَإِنَّ الْخَوْفَ الَّذِي حَامَ حَوْلِي كَانَ ضَرْبًا
مَجْهُولًا وَهَائِلًا مِنْ ضُرُوبِ الْخَوْفِ، لَا يَشْبَهُ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ أَيِّ شَيْءٍ
قَدْ شَعَرْتُ بِهِ مِنْ قَبْلُ، حَتَّى أَنَّهُ أَيْقِظُ فِيَّ شُعُورًا بِالرَّهْبَةِ وَالْإِنْدِهَاشِ
بَذَلْتُ الْكَثِيرَ مِنَ الْجُحُودِ لِمُوَاجَهَةِ أَسْوَأِ أَثَارِهِ، وَعِنْدَمَا بَلَغْتُ نُقْطَةً
مُرْتَفَعَةً فِي مَنْتَصَفِ الْجَزِيرَةِ يُمْكِنُنِي مِنْهَا أَنْ أَرَى الْإِمْتِدَادَ الْمُتَّسِعَ لِلنَّهْرِ،
بِلَوْنِهِ الْقُرْمِزِيِّ تَحْتَ ضَوْءِ الشَّمْسِ، كَانَ جَمَالُهُ السُّحْرِيُّ طَاغِيًا بِكَامِلِ
بَهَائِهِ، حَتَّى إِنْ نَوْعًا مِنَ الشُّوقِ الْوَحْشِيِّ اسْتَيْقِظَ بِدَاخِلِي، وَكَادَ يَدْفَعُ
بِصْرَخَةٍ إِلَى حَلْقِي.

لَكِنْ هَذِهِ الصَّرَخَةُ لَمْ تَجِدْ لَهَا مَنَفَذًا، فَعِنْدَمَا جَالَتْ عَيْنَايَ مِنْ
السَّهْلِ رَجُوعًا إِلَى الْجَزِيرَةِ مِنْ حَوْلِي، وَوَقَعَتَا عَلَى خِيَمَتِنَا الصَّغِيرَةِ
نِصْفَ مُخْتَفِيَةٍ وَسَطِ الصَّفْصَافِ، قَفَزَ إِلَى وَجْهِهِ اكْتِشَافٌ مُرَوِّعٌ، بَدَأَ
فَرَعِي مِنَ الرِّيحِ الَّتِي تَمْشِي شَيْئًا لَا يُذَكِّرُ مُقَارَنَةً بِهِ.

لأنني وجدتُ تَغْيِيرًا قد طرأ على تنسيق المشهد بشكلٍ ما. لم يَكُن الأمر أن زاوية النظر تَمُنحني رؤيةً مختلفة، بل أن تَغْيِيرًا قد أثار بوضوح على علاقة الخيمة بالصفصاف، والصفصاف بالخيمة. إن الشجيرات تحتشد الآن على مقربةٍ أكبر، بشكل غير ضروري، وغير مريح. لقد تحرّكت مُقتربة.

كان الصفصاف قد اقترب خلال الليل، زاحفًا بأقدام صامتةٍ على الرمال المتحرّكة، مُقترَبًا بحركاتٍ ناعمةٍ مُتمهّلةٍ غير ملحوظة. لكن أتكون الرّيحُ قد حرّكته، أم أنه قد تحرّك من تلقاء نفسه؟ استرجعتُ صوت الطقطقات الصغيرة اللانهائية، والضغط على الخيمة، وعلى قلبي- الذي أدّى إلى إيقاظي مَفزوعًا. ملّت مع الرّيح للحظةٍ مثل شجرة، مُلاقيًا صعوبةً في الحفاظ على وضعي مُستقيمًا على الربوة الرّمليّة.

كان هناك إحياءٌ بقوةٍ مُسيطرّة، نيّةٍ مُتعمّدة، عدوانيّةٍ عنيفة، وقد أثار هذا رُعبي بشكلٍ قاسٍ.

ثم أتى ردُّ الفعل سريعًا. كانت الفكرة غريبةً للغاية، وعبثيّةً للغاية، حتى إنني شعرتُ بالرغبة في الضحك، لكن الضحك لم يَكُن أكثرَ سهولةً من الصُّراخ؛ لأن معرفتي بأن عقلي كان مُنفَتِحًا لمثل هذه التَّخيُّلات الخطيرة جَلَبَت عليّ رُعبًا إضافيًا من أن الهجوم يمكن أن يأتي من خلال عقولنا وليس من خلال أبداننا، وقد كان آتيًا.

طَوَّحَتني الرّيحُ، وصَعَدَت الشَّمْسُ فوق خَطِّ الأفق، بسرعةٍ على ما يبدو، فقد كانت الساعة الرابعة، ولا بُدَّ أنَّني مكثتُ على هذه القِمّة الرّمليّة الصغيرة أطولَ ممّا كنتُ أتصوّر، خائفًا من الهبوط إلى مناطقٍ مُتأخّمةٍ للصفصاف. عُدْتُ إلى الخيمة في هدوءٍ، ورُعبٍ، بعد أن أُلقيتُ نظرةً أخرى مُرهقةً من حولي، وأجريتُ بعض القياسات

-نعم، أَعترفُ بذلك- قِسْتُ المسافة بين الصفصاف والخيمة بخطواتي على الرمال الدافئة، مُدَوِّنًا ملاحظةً عن أقصر مسافة بوجه خاصّ.

زَحَفْتُ تحت غطائي خلسةً. كان صاحبي، كما هو واضح، لا يزال يَغْطُ في نومه، وكنتُ مَسرورًا بذلك. عِلْمًا بأن خبراتي لم تَكُنْ مُؤكِّدةً، فربما كان بوسعي -بطريقةٍ ما- أن أجِدَ القُوَّةَ اللازمةَ لِنَفْيِهَا. يمكنني في ضوء النّهار أن أَقْنَعَ نفسي بأنها كانت هلاوسَ ذاتيّةٍ كُلِّها، خيالات الليل، انعكاسًا من خيال مُستتار.

لم يطرأ أيُّ جَدِيدٍ يُزَعِجُنِي، ووقَعْتُ في النوم مرّةً واحدةً تقريبًا، كنت مُجهدًا تمامًا، ولا أزال خائفًا، مع ذلك، من سماع ذلك الصوت الغريب للطَّقْطَقَاتِ المُتعدِّدة مرّةً أخرى، أو من الشعور بالضغط على قلبي الذي قد جعل من تنفُّسي أمرًا صعبًا.

كانت الشمس في كَيْدِ السَّماء عندما أيقظني صاحبي من نومٍ ثقيلٍ، وأعلَنَ أن العصيدة قد أُعِدَّتْ، ولم يَبْقَ وقتٌ سوى للاستحمام. دَخَلْتُ الرّائِحَةَ المُحِبَّةَ للحم الخنزير المُقَدَّد من باب الخيمة.

قال:

- لا يزال النّهرُ يرتفع.

وأضاف:

- والعديد من الجُرُر في منتصف المجرى قد اختفت تمامًا. إن جزيرتنا أصغر منها كثيرًا.

سألته بصوتٍ ناعسٍ:

- هل بَقِيَتْ أيّةُ أخشابٍ؟

أجابني ضاحكًا:

- ستنتهي الأخشاب والجزيرة غدًا، في الدّور النهائي.

- لكنّ لدينا ما يكفينا للبقاء حتى يحدث هذا.

غَطَسْتُ في الماء من رأس الجزيرة، التي كانت -بالتأكيد- قد تغيّرت في الحجم والشكل في أثناء الليل، وانحدرت في لحظةٍ إلى مكان الرُسُو في مواجهة الخيمة. كان الماء مُثَلَّجًا، والضفتان تنسابان عابرتين كما ينساب الريف على جانبي قطار الإكسبريس. كان الاستحمام عمليةً مُنعِشَةً في مثل هذه الظروف، وبدا أن رُعبَ الليل قد أُزيل من داخلي بفعلِ عمليةٍ بَخُرٍ في الدُّماغ. كانت الشمس مُتَقِدَّةَ الحرارة، ما من سحابة تلوح في أيِّ مكان، مع ذلك، لم تكن الرياح قد هدأت ولو بمقدار ذرّة.

لَمَعَ المعنى المُستترُ لكلمات السويدي داخلي على حين غرّة، كاشفًا أنه لم يُعد يرغب في الرحيل على وجه السرعة، وأنه قد غيّر رأيه. "ما يكفينا للبقاء حتى الغد"، افترض أن علينا البقاء في الجزيرة لليلةٍ أخرى. لقد صدمني إلى حدٍّ كبير. في الليلة البارحة كان شديد الاقتناع بالرأي الآخر. كيف حدث هذا التغيّر؟

عند الإفطار حَدَّثت انهياراتٌ كبيرة في الضفّتين، مُثيرةً رشاشًا هائلًا وسحاباتٍ من الرّذاذ، حَمَلَتْها الرياحُ إلى مِقلاتنا، وتحدّث رفيقُ رحلتي بلا انقطاعٍ عن الصعوبة التي لا بُدَّ أن تلاقيها بواخرُ قيينا- بيست في العثور على القناة في الفيضان. لكنني كنتُ مَشغولًا ومُتأثّرًا بحالته الذهنية بدرجةٍ أكبر كثيرًا من انشغالي وتأثّري بحالةِ النّهر والصعوبات التي تلاقيها البواخر. لقد تغيّر على نحوٍ ما منذ مساء البارحة. كان سلوكه مُخْتَلِفًا: مُتحمّس قليلًا، خَجول قليلًا، يشوب صَوْتَه وإيماءاته قَدْرٌ من الارتياب. أستطيع بالكاد أن أَصِفَ الأمرَ الآن بِدَمٍ بارد، لكنني أذكر كيف كنتُ وقتها شَبَهَ مُتأكّدٍ من أمرٍ واحد، وهو أنه أصبح... خائفًا؟ لقد أكل قَدْرًا قليلًا جدًّا من وجبة الفطور، وعزف عن تَدخين

غُلِّبُونِه على غير عادته. كان قد بَسَطَ الخريطة مفتوحةً إلى جواره،
وانهمك في دراسةِ علاماتها.

- يُسْتَحْسَنُ بنا أن نرحل بعد ساعةٍ بالضبط.

قُلْتُهَا لِتَوَي، مُتَلَمِّسًا مدخلًا قد يدفعه بشكلٍ غير مباشرٍ إلى اعترافٍ
جزئيٍّ أيًّا كان. لكنَّ رَدَّه حَيَّرَنِي على نحوٍ غير مريح:

- إن كانوا سيسمحون لنا، على الأصح!

سألته سريعًا، مُصْطَنِعًا اللا مُبالاة:

- مَنْ الذي سيسمح لنا؟ عناصرُ الطبيعة؟

- قوى هذا المكانِ البائس، أيًّا كانت.

أجاب، مُبَقِّيًا عينيه على الخريطة. ثم أضاف:

- إِنَّ الآلهة موجودةٌ هنا، هذا إن وُجِدَتْ بالأساس في أيِّ مكانٍ
في العالم.

- عناصر الطبيعة هي دائمًا الآلهة الحقيقية.

أَجَبْتُ، ضاحِكًا بشكلٍ طبيعيٍ قدرَ إمكاني، كنت أعلم مع ذلك
أن وجهي فَضَحَ مشاعري الحقيقية عندما نظر إليَّ بجديَّةٍ، وتكلَّم من
عبر الدُّخان:

- سنكون مَحْظُوظِينَ إن أفلتنا دون المزيد من المصائب.

هذا هو بالضبط ما كنتُ أخشاه، لقد أَفْسَدْتُ الأمر على نفسي
حتى اضطرَّرتُ للسُّؤال المباشر. كنتُ كَمَنْ يمنح طبيبَ الأسنانِ
مُوافَقَتَه على خلعِ ضرسه، كان الأمر ليحدث على كلِّ حالٍ في المدى
البعيد، والباقي كان مُجرَّدَ ذريعةٍ.

- المزيدُ من المصائب! لماذا؟ ماذا حدث؟

قال بهدوء:

- من جهةٍ، اختفى مجدافُ التَّوجيه...

- اختفى مجداف التَّوجيه!

كرَّرتها بانفعالٍ شديد؛ لأن هذا كان بمثابة الدِّقَّة لنا، والدانوب في الفَيضان من دون دَقَّةٍ هو انتحار.

- لكن ماذا...

- وهناك شقٌّ في قاع القارب.

أضاف بارتعاشةٍ خفيفةٍ حقيقيَّةٍ في صوته.

واصلتُ التَّحديقَ فيه، غير قادرٍ سوى على تكرار الكلمات في وجهه بحماقةٍ إلى حدٍّ ما. هناك، في تَوَقُّدِ الشمس، وعلى هذه الرمال المحترقة، كنتُ مُدرِّكًا أن جَوْا مُتَجَمِّدًا يحلُّ علينا. نهَضْتُ لألحق به، حيث لم يَزِدْ أن أتى بإيماءةٍ جادَّةٍ من رأسه، وتَقَدَّمَ الطريق نحو الخيمة التي تَبْعُدُ يارداتٍ قليلةً على الجانب الآخر من المَوْقِد. كان القارب لا يزال مُلقًى كما رأيته في الليل لآخر مرَّةً، ضلوعه لأعلى، والمجدافان -أو بالأحرى: المجداف- إلى جانبه على الرُّمال.

- لا يوجد سوى واحد.

قالها، وهو يتوقَّف ليلتقطه، ثم أضاف:

- وها هو الخَرْقُ في دُعامةِ القاعدة.

كان على طرف لساني أن أخبره أنني قد لاحظتُ كِلَا المجدافَيْن بوضوح قبل ساعاتٍ قليلة، لكنَّ خاطِرًا آخر دَفَعَنِي للتَّروُّي في التفكير، ولم أَتَفَوَّه بشيء. تقدَّمتُ لأرى.

كان هناك شقٌّ طويلٌ، صُنِعَ بمهارة، في قاع القارب حيث كانت شريحةٌ من الخشب قد انتزَعَتْ بنظافةٍ تامَّة، بدا وكأنَّ سِنَّ صخرةٍ

حادّة أو جذع مكسور قد التهمها بكامل طولها، وظهر بالفحص أن الثقب كان نافذاً. لو كنّا انطلقنا بالقارب دون أن نلاحظ الشقّ لكنّا غرقنا حتماً. في البداية، كان من شأن الماء أن يجعل الخشب ينتفخ حتى يسدّ الفجوة، ولكن بمجرد خروجنا لمنتصف المجرى لا بدّ أن يتدفّق الماء إلى الداخل، ولم يكن ليرتفع أكثر من بوصتين فوق السطح، إلّا ويمتليء القارب ويغرق بمنتهى السرعة.

سمّعه يقول، متوجّهاً بالحديث إلى نفسه أكثر منه إليّ:

- كما ترى، إنها محاولة تجهيز ضحيّة لتقديمها كقربان.

ثم أضاف وهو ينحني إلى الأمام ويمرّ أصابعه على الشقّ:

- ضحيتين على الأحرى.

بدأت في الصّفير -وهو الشيء الذي طالما فعّلته من دون وعي عندما أكون مُشوّشاً كليّاً- وصرفْتُ انتباهي عن كلماته مُتعمّداً. عَقَدْتُ العزم على اعتبارها سخافاتٍ.

قال لفوره، وهو يعتدل مُنهيّاً فحَصَه وينظر في أيّ اتّجاه غير اتجاهاي:

- لم يكن موجوداً في الليلة الماضية.

توقّفتُ عن الصّفير لأقول:

- لا بدّ أننا حَكَمناه عند الرُّسُو، بالتأكيد؛ فالصُّخورُ حادّة للغاية.

توقّفتُ فجأةً؛ لأنه -عند تلك اللحظة- استدار ونظَرَ في عينيّ مباشرةً. كنتُ أعلم، مثلما كان يعلم هو، إلى أيّ دَرَجَةٍ كان تفسيري مُستحيلاً. لم تُعد لديّ أيّة حُجَج.

- ولدينا هذا، بعدُ، يحتاج لتفسيرٍ هو الآخر.

أضاف بهدوء، وهو يُناوِلني المجداف مُشيراً إلى طرفه.

أصابني شعورٌ جديدٌ وغريبٌ بالجُمود عندما تناولتُ المجدافَ وفَحَصْتُهُ. كانت راحَتُهُ مكشوفةً من كُلِّ جِهَةٍ، كُشِطَتْ بِجَمَالٍ، كما لو كان أحدهم قد صَنَقَرَهَا بعناية؛ ممَّا جعلها رقيقةً للحدِّ الذي قد يُتيح لأيِّ ضربةٍ قويَّةٍ أن تَبْثُرَهَا من عند المرفَق.

قلتُ بصوتٍ واهنٍ:

- أهدنا قد سار في نومه وفعلها، أو... أو رُبَّمَا الرِّيحُ قد دَفَعَتْ تِيَّارَ حُبِّيَّاتِ الرَّمْلِ الْمُنْتَظَمِ تَجَاهَهَا فَكَشَطَهَا.

استدار السويديُّ مُبْتَعِدًا، وهو يضحك قليلًا، وقال:

- آه، تستطيع أن تُفسِّرَ كُلَّ شيء.

صَحْتُ من خلفه:

- هي نفس الريح التي حَمَلَتْ مجدافَ التَّوجِيهِ وطَوَّحَتْهُ بِالْقُرْبِ مِنَ الضَّفَّةِ لِيَسْقُطَ مَعَ أَوَّلِ كُتْلَةٍ مُنْهَارَةٍ.

كنتُ عازِمًا كُلَّ الْعِزْمِ عَلَى الْإِتْيَانِ بِتَفْسِيرٍ لِكُلِّ شَيْءٍ طَرَحَهُ عَلَيَّ.

- هو كذلك.

رَدُّ عَلَيَّ الصِّيَاحِ، مُدِيرًا رَأْسَهُ لِيَنْظُرَ إِلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْتْفِيَ وَسَطَ شُجَيْرَاتِ الصَّفْصَافِ.

بمَجَرَّدِ أَنْ أَصْبَحْتُ بِمُفْرَدِي مَعَ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ الْمُحِيرَةِ عَلَى وَجُودِ قُوَّةٍ مُسَيِّطَرَةٍ، أَظُنُّ أَنَّ أَوَّلَى أَفْكَارِي كَانَتْ عَلَى هَيْئَةٍ: لَا بُدَّ أَنَّ أَحَدَنَا قَدْ قَامَ بِهِذِهِ الْأُمُورِ، وَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهُ لَيْسَ أَنَا. لَكِنْ فِكْرَتِي الثَّانِيَّةُ جَزَمَتْ بِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ بِمَكَانٍ أَنْ أَفْتَرِضَ -تَحْتَ أَيِّ ظَرْفٍ مِنَ الظُّرُوفِ- أَنْ أَيًّا مِنَّا قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ.

إن افتراضَ أن صاحبي، الصديق المؤتمن لعشرات الرحلات المماثلة، قد تكون له يدٌ في ذلك عن قَصْدٍ، هو افتراضٌ لا يمكن قبوله أبدًا.

ويبدو على نفس القدر من العَبَثِ التَّفْسِيرُ القَائِلُ بأن هذه الطبيعة الهادئة والعملية على نحوٍ شديدٍ قد أصابها الخَبَلُ فجأةً وأصبحت مُنْشَغِلَةً بِمَآرِبِ جُنُونِيَّةٍ.

مع ذلك، تَظَلُّ الحقيقة أن أكثرَ ما أزعجني، وأبقى على مخاوفي حيَّةً حتى في هذه الشمس المَتَوَهِّجَة وهذا الجَمال البَرِّي، هو التَّيَقُّنُ الواضح من أن تَبَدُّلاً غريباً ما قد طرأ على عقله -أصبح عصبيًا، مُتَهَيِّئًا، مُرتَابًا، مُدرِكًا لما يجري ولا يريد أن يتحدث عنه، يراقب سلسلة من الأسرار والأحداث التي لا يُمكنه ذِكْرُهَا- مُنْتَظِرًا، باختصارٍ، الذُّرْوَة التي يتوقَّعُهَا، والتي أَظُنُّ أنه يتوقَّعُهَا في القريب العاجل. نَشَأَت هذه الفكرة في عقلي بشكلٍ حَدَسِيٍّ، لم أَكِدْ أعرف كيف.

أَجْرِيْتُ فَحْصًا مُتَعَجِّلًا للخيمة وما يحيط بها، لكنني وَجَدْتُ أن قياسات الليل بَقِيَتْ على حالها، هناك حُفْرٌ عميقةٌ قد تَشَكَّلَتْ في الرمال كنتُ ألاحظُهَا لأوَّلَ مَرَّةٍ، اتَّخَذَتْ هَيْئَةً آتِيَةً ذاتِ ساعاتٍ وأعماقٍ مختلفة، تتراوح من حجم كوب الشاي إلى حجم وعاء كبير. كانت الرِّيح -بلا شَكٍّ- هي المسؤولة عن هذه الحُفَرِ المُنْمَنَةِ، تمامًا كما كانت هي المسؤولة عن تحريك المجذاف والإطاحة به في الماء. يبدو أن خَرَقَ القارب كان الشيء الوحيد الذي استعصى على التفسير، ومع ذلك، بالإمكان تَخَيُّلُ أن نتوءًا حادًا قد أصابه عندما كُنَّا نرسو. لم يُدْعَمَ الفحص الذي أَجْرَيْتُهُ للشاطئ هذه النظرية، لكنني، بالرغم من ذلك، تشبَّثْتُ بها اعتمادًا على ذلك الجانب المُتَقَلِّص من إدراكي الذي أدعوه "المنطق". كانت هناك حاجة ماسَّةٌ إلى تفسيرٍ من أي نوع، تمامًا، كالحاجة إلى أي تفسير مقبول للكون، مَهْمَا كان سخيًّا، من أجل سعادة كل شخص يريد أن يؤدِّي واجبه في العالم، وأن يواجه مشكلات الحياة. بدا لي التَّشْبِيهُ -في ذاك الحين- مُنْطَبِقًا تمامًا.

وَضَعْتُ الْقَطْرَانَ، عَلَى الْفُورِ، لِيَذُوبَ، وَانْضَمَّ إِلَى السُّوَيْدِي فِي الْعَمَلِ قَبْلَ قَلِيلٍ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْ الْقَارِبَ لَنْ يَكُونَ آمِنًا لِلسَّفَرِ حَتَّى الْيَوْمِ التَّالِي فِي أَحْسَنِ الظُّرُوفِ. لَقْتُ انْتِبَاهَهُ عَرَضًا إِلَى الْحُفْرِ فِي الرَّمَالِ، فَقَالَ:

- نعم، أعلم. إنها تنتشر في جميع أنحاء الجزيرة. لكنَّكَ تستطيع أن تُفسِّرَهَا، مِنْ دُونِ شَكٍّ!

أَجَبْتُ بِلا تَرَدُّدٍ:

- إنها الريح، بالطبع. أُلِمَ يسبق لك أن رأيتَ تلك الزَّوَابِعَ الصغيرة في الشارع تدير وتُدوِّمُ كُلَّ شَيْءٍ فِي دَائِرَةٍ؟ هذه الرَّمَالُ سَائِبَةٌ بِمَا يَكْفِي لِنَصَاعِ الْريحِ، هَذَا كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ.

لَمْ يَرُدَّ، وَعَمَلْنَا فِي صَمْتٍ لَبْرَهَةٍ. رَاقِبْتُهُ خُفِيَّةً طَوَالَ الْوَقْتِ، وَكَانَ لَدَيَّ إِحْسَاسٌ أَنَّهُ يُرَاقِبُنِي. بَدَأَ، كَذَلِكَ، أَنَّهُ يُنِصِتُ بِاهْتِمَامٍ إِلَى شَيْءٍ مَا، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْمَعَهُ، أَوْ رُبَّمَا إِلَى شَيْءٍ مَا، كَانَ يَتَوَقَّعُ سَمَاعَهُ؛ فَقَدْ دَاوَمَ عَلَى التَّلَقُّفِ مِنْ حَوْلِهِ وَالتَّحْدِيقِ فِي الشُّجَيْرَاتِ، وَفِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقِهِ، وَفِي الْبُعْدِ عَبْرَ الْمَاءِ حَيْثُ يَكُونُ مَرْتَبًا مِنْ خِلَالِ الْفَرَاقَاتِ بَيْنَ الصَّفَافِ. حَتَّى أَنَّهُ أَحْيَانًا كَانَ يَضَعُ يَدَهُ خَلْفَ أُذُنِهِ وَيُبْقِيهَا لِدَقَائِقِ عِدَّةٍ. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِي شَيْئًا عَنِ الْأَمْرِ، وَلَمْ أَطْرَحْ أَيَّ أَسْئَلَةٍ. وَبَيْنَمَا كَانَ يُعَالِجُ الْقَارِبَ الْمَكْسُورَ بِمَهَارَةٍ وَجَذْقٍ هَنْدِيٍّ أَحْمَرَ، كُنْتُ مُسْرُورًا بِمُلَاحَظَةِ اسْتِغْرَاقِهِ فِي الْعَمَلِ؛ فَقَدْ كَانَ بِدَاخِلِي تَخَوُّفٌ غَامِضٌ مِنْ اِحْتِمَالِ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ التَّغْيِيرِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى هَيْئَةِ الصَّفَافِ. وَإِذَا كَانَ قَدْ لَاحَظَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَعُدْ بَوَسْعِ خَيَالِي أَنْ يَقْدَمَ لَهُ تَفْسِيرًا كَافِيًا مُقْنِعًا.



في نهاية المطاف، بدأ في الحديث، بعد صَمِتٍ طويل:

- شيءٌ غريبٌ.

ثم أضاف بصوتٍ مُتَعَجِّلٍ نوعًا ما، كما لو كان يريد أن يقول شيئًا وينتهي منه:

- شيءٌ غريب. أعني، ذلك القُنْدُس في الليلة الماضية.

كنتُ أنتظر شيئًا مُخْتَلِفًا تمامًا، لدرجة أنه أصابني بالدهشة، فَتَظَرْتُ لأعلى بحدّة، وقلتُ:

- إنه يُظهِرُ مدى وحشة هذا المكان؛ فَالْقَنَادِيسُ كائِنَاتٌ حَـجَوَلَةٌ إلى حَدٍّ بعيد...

قاطَعَنِي قَائِلًا:

- لم أَقْصِدْ ذلك، بالطَّبْع.

ثم أضاف:

- أقصد، هل تَظُنُّ -هل ظَنَنْتَ- أنه كان قُنْدُسًا حَقًّا؟

- وماذا يكون غيرَ ذلك، ماذا قد يكون، بحَقِّ السماء؟

- أنتَ تعلم، إنني رأيته قَبْلَكَ، وقد بَدَأَ لي، لأوَّلِ وَهْلَةٍ، أكبرَ كثيرًا من أن يكون قُنْدُسًا.

أَجَبْتُهُ:

- لقد كَبَّرَهُ غُرُوبُ الشمس، عندما نظرتَ إلى الناحية الأخرى من المجرى، أو شيءٍ من هذا القبيل.

تَطَّلَعَ إِلَيَّ شَارِدًا لِلْحَظَةِ، وكأنها كان عقله مُنْشَغِلًا بأفكارٍ أخرى، ثم قال، مُحَدِّثًا نفسه إلى حَدٍّ ما:

- كانت عيناه صَفراوين على نحوٍ غير معهود.

- هذه كانت الشمس أيضًا.

ضَحِكْتُ، بِفَهْقَةٍ طَفِيفَةٍ، ثم أَضَفْتُ:

- أتَوَقَّعُ أن تتساءل الآن إذا كان ذلك الرَّفِيقُ في القارب...

قَرَّرْتُ فجأةً ألا أكْمِلَ الجُمْلَةَ. كان قد عاد إلى وضع الإصغاء، مُدِيرًا رأسه تجاه الريح، وجعلني شيءٌ ما، في تعبير وجهه، أتوقَّف عن الكلام. تركنا الموضوع، وانخرطنا من جديدٍ في سَدِّ الشَّقِّ. لم يَبْدُ أنه قد انتبه لجُمْلَتِي غير المُنتَهِيَةِ. إلَّا أنه -بعد مرور خمس دقائق- تَطَّلَعَ نحوي من فوق القارب، مُمَسِّكًا في يده بالقطران الذي يتصاعد منه الدُّخان، وقد تَجَهَّم وجهه إلى حَدٍّ بعيد.

- لَشَدَّ ما تساءلتُ، إذا أردتَ أن تعرف.

قالها ببطءٍ، قبل أن يضيف:

- أذكر أنني كنتُ أفكرُ وقتها أن ذلك الشيء على مَتْنِ القارب لم يَكُنْ إنسانًا، بَدَأَ أن الأمر بِرُمَّتِهِ قد خرج من الماء على حين غِرَّةٍ.

صَجَبْتُ بالضحك في وجهه مرَّةً أخرى، لكنني شعرت في هذه المرَّة بنَفَادِ صبري، وبَضْغِ الغَضَبِ على أعصابي، فصَحْتُ به:

- انظُرْ إلَيَّ الآن، هذا المكان غريبٌ بما يكفي من دون أن نَجْنَحَ

لِتَحْيَلِ أشياء! ذلك القارب كان قاربًا عاديًّا، والرجل على متنه

كان رَجُلًا عاديًّا، وكلاهما كانا مُنْطَلِقَيْنِ مع التِّيَّارِ بأقصى سرعةٍ

مُمْكِنة. والقُنْدُسُ كان قُنْدُسًا، فدَعْنَا لا نتحامق بهذا الخصوص!

تطلع إلَيَّ في ثباتٍ بتعبير التَّجَهُُّمِ ذاته. لم يَكُنْ به أدنى انزعاج.

شَجَّعَنِي صَمْتُهُ، فواصلتُ:

- وبعقُ السماء، لا تُواصلِ التَّظَاهُرَ بأنك تسمعُ أشياء؛ لأن هذا

لا يُجدي نَفْعًا سوى في إخافتي، وليس هناك ما تَسْمَعُهُ سوى

النَّهْرِ وهذه الرِّيحِ العجوز اللعينة الهادِرة.

أجاب بصوتٍ خفيضٍ مصدوم:

- أنت أحمقُ!

ثم أضاف هازنًا بصوتٍ تشوبُه نبرةُ ازدراء، وقَدَّرِ من الإحباط:

- أنت أحمقُ كُلِّيًا، تلك بالضبط هي الطريقة التي يتكلَّمُ بها

كل الضحايا. كما لو كنتَ لم تُدركِ الأمرَ بالقدر نفسه الذي

أُدرِكُه أنا به!

ثم أضاف:

- إن أفضل شيءٍ يُمكنُكَ فعلُه هو أن تبقى هادئًا، وتحاول أن

تحتفظ بثباتٍ عَقْلِكَ قدرَ الإمكان. هذه المحاولة البائسة

لخداع الذات ستؤدّي فقط إلى جعل الحقيقة أصعب عندما
تُضطرُّ إلى مواجهتها.

لقد بَاءت محاولتي المتواضعة بالفشل، ولم يَعد لديّ شيء أقوله؛
لأنني كنتُ أعلم تمامَ العلم أن كلماته كانت صادقةً، وأنني كنتُ
الأحمق، لا هو. ظلُّ يتقدّمني بسهولة حتى مرحلةٍ مُعيّنة من
المغامرة، وأظنُّ أنني شعرتُ بالانزعاج لأنني كنتُ مُغيّبًا، الأمر الذي
يُبين أنني أقلُّ منه تَبَصُّرًا وحساسيةً تجاه هذه الأحداث غير العادية،
وأنني كنتُ شبهَ جاهِلٍ طيلةَ الوقت بما يجري تحت أنفي مباشرةً.
كان -على ما يبدو- يدرك الأمر منذ بداياته المُبكرة. لكن آنذاك فاتني
تمامًا المغزى من وراء كلماته عن ضرورة وجود ضحيّة، وأنه كان مُقدَّرًا
لنا أن نلبي هذه الحتميّة. من حينها، أسقطتُ كلَّ ادّعاء، لكن من
حينها، كذلك، زاد خوفي بشكلٍ مُطرِد حتى بلغ الذرّوة.

قال قبل أن يُغلق الموضوع:

- لكنّكَ كُنْتَ مُحِقًّا تمامًا بخصوص شيءٍ واحد. وهو أنه من
الحكمة ألا نتكلّم عن الأمر، أو حتى نفكّر فيه؛ لأن ما يُفكّر
فيه المرء يفصح عن نفسه في الكلمات، وما يقوله المرء؛
يتحقّق.

بعد ظهر ذلك اليوم، بينما كان القارب يَجِفُّ ويتصلّب، أنفقنا
الوقت في محاولاتٍ لصيد السمك، وفي اختبار التّسرّب، وجمّع الأخشاب،
ومُراقبة الفيضان الهائل للمياه المرتفعة. كانت كُتْلُ الأخشاب الطافية
تندفع على مقربةٍ من شواطئنا في بعض الأحيان. وكُنّا نلتقطها
باستخدام قَرعٍ صَفصافٍ طويل.

أصبحت الجزيرة صغيرةً بشكلٍ ملحوظ؛ إذ جُرِّقت الضفاف برشاشٍ
وتَجَرُّعاتٍ ضخمة. ظلَّ الطّقسُ صَحْوًا على نحوٍ رائع حتى الساعة
الرابعة تقريبًا، ثم أظهرت الرّيحُ علاماتٍ على تراجعها للمرة الأولى

على مدى ثلاثة أيام. بدأت السُّحُب تتجمّع في الجنوب الغربي، ثم انتشرت ببطءٍ على صفحة السماء. ألقى انحسار الريح هذا بمثابة ارتياحٍ كبير؛ لأن الدَّوِّيَّ والقَرَعَ والإرعَادَ المتواصلين قد وتَّروا أعصابنا. مع ذلك، حلَّ الصَّمْتُ مع توقُّفها المفاجئ، فَرَابَة الساعة الخامسة، بطريقةٍ مُزعِجَة للغاية. بعد ذلك، احتوى هديرُ النَّهر كُلَّ شيءٍ بطريقةٍ خاصَّة، فملاً الهواءَ بدمَمَة عميقة، أكثر موسيقىَّةً من ضوضاء الريح، لكنها أكثر رتابةً إلى حدٍّ بعيد. اشتَمَلَت الرِّيحُ على نغمات عديدة، مرتفعة، وهابطة، تَوَقَّع دائماً بلحنٍ طبيعيٍّ عظيم، بينما تَقَعُ أغنيةُ النَّهر بين ثلاث نغماتٍ على الأكثر، نغمات متواصلة باهتة، تحتوي على طابعٍ حزينٍ مُتَنَافِرٍ مع الريح، وبطريقةٍ ما، بدا لي، في حالتي العصبية حينها: إنها ترديدٌ رائعٌ لموسيقى الفناء.

كان من غير العادي -كذلك- أن يذهب الانسحابُ المفاجئ لضوء الشمس الساطع بكل شيءٍ يبعث على البهجة في المنظر الطبيعي. وحيث أن هذا المنظر تحديداً قد أمكَّنه بالفعل أن يوحى بشوْمٍ ما، فبالطبع أصبح التَّغْيِيرُ لا فِتْناً للنظر وغير مُسْتَحَبٍّ على نحوٍ أكبر. أعلم أن المنظر المتزايد في القَتَامَة أصبح أكثر إثارةً لتَوَجُّسِي بشكلٍ واضح، وَضَبَطْتُ نفسي -أكثر من مرَّة- أحسب الوقت الذي قد يستغرقه البدر، بعد غروب الشمس، ليظهر في الشرق، وما إذا كانت الغيوم المتجمَّعة ستؤثِّرُ بشكل كبير على إضاءته للجزيرة الصغيرة.

في ظلِّ ذلك السكون الشامل للريح، التي لا تزال -على الرغم من ذلك- مُسْتَرَسَلَةً في هَبَّاتٍ قصيرة مُتَقَطَّعة، بدا لي أن النهر يزداد اسوداداً، وشجيرات الصفصاف كثافةً. حافظت الأخيرة، كذلك، على نوعٍ من الحركة المستقلَّة الخاصة بها، مُحْشِخِشَةً فيما بينها عندما لا تُحرِّكها الريح، ومُهْتَزَّةً بغرابة من جذورها إلى أعلى. عندما تصبح الأشياء المألوفة مشحونةً بإيحاءات مُرْعَبَة، بهذه الطريقة، فإنها تُحفِّزُ الخيال أكثر بكثير من الأشياء ذات المظهر غير المألوف. وهذه

الشجيرات الْمُحْتَشَدَة حولنا، صَوَّرَت لي، في الظلام، مَظْهَرًا غَرِيبًا بَشْعًا أَكْسَبَهَا -بطريقةٍ أو بأخرى- هَيْئَةً كائِنَاتٍ حَيَّةٍ وذاتِ إِرَادَة. شَعَرْتُ أَنَّ الْفَتْهَا الشَّدِيدَة كانت تَحْجِبُ ما هُوَ خَبِيبٌ وَعَدَائِيٌّ تَجاهاًنا. اقْتَرَبَت قُوى المَناطِقَة أَكْثَرُ مَعَ حُلُولِ اللَّيْلِ. كانت تَتَرَكَّزُ فَوْقَ جَزيْرَتنا، وبِشْكَلٍ أَخَصٍّ فَوْقَنا نَحْنُ. فَهَكَذَا، بِطَريقَةٍ ما، وَبِلُغَةٍ الخِيالِ، قَدْ أَعْلَنْتُ مِشاعري، التي لا تُوصَفُ حَقًّا في هَذا المَكانِ العَجِيبِ، عَن نَفْسِها.

كُنْتُ قَدْ أَخَذْتُ قِسطًا وافرًا مِنَ النُّومِ في فَتْرَة بَعْدَ الظَّهِيرَة البَاكِرَة، وَهَكَذَا قَدْ تَعاقَيْتُ إلى حَدٍّ ما مِنَ إِرْهاقِ لَيلَة مُؤرَّقَة، لَكن هَذا لَمْ يُؤدِّ -عَلى ما يَبدو- سَوى إلى جَعلي أَكْثَرُ عُرْضَةً مِنَ ذِي قَبْلِ إلى تَعوِيزَة المَكانِ المُلْحَة. ناضَلْتُها بِاللَّجْوِ إلى التَفْسيراتِ السِّيكُولُوجِيَّةِ شَدِيدَة البَداهَة، هازِئًا بِمِشاعري عَلى عَبارِها سَخِيفَةً وَطُفُولِيَّةً، وَمَعَ ذَلكَ -عَلى الرَغمِ مِنَ كُلِّ الجُهودِ- فَقَدْ اكْتَسَبَتِ سَطوَةً عَليَّ، حَتَّى إِنني كُنْتُ فَرِغًا مِنَ اللَّيْلِ كَما يَنبَغِي عَلى طِفْلِ تَاهٍ في الغابَة أَنَّ يَفْزَعَ مِنَ اقْتِرابِ الظَّلامِ.

في أَثناءِ النِّهارِ كُنَّا قَدْ غَطَّيْنا القارِبَ بِعَنايَة، مُسْتَخْدِمِينَ غُطاءً مَقاوِمًا لِلْماءِ، وَرَبَطَ السُّويدي المَجْدافَ المَتَبَقِّي بِأَحْكامٍ إلى قاعَة شَجَرَةٍ؛ مَخافَةً أَنَّ تَسَلُّبَنا الرِّيحَ إِيَّاهُ هُوَ الآخِرُ. بَدَأَ مِنَ السَّاعَة الخامِسة شَخَلْتُ نَفْسي بِإِناءِ اليَخَنَةِ وَتَجهِيزاتِ العِشاءِ، كانَ دُوري في الطَبْخِ تَلكَ اللَّيلَة. كانَ لَدِنا بِطاطُوسٌ وَبَصَلٌ، وَفُتاتٌ مِنَ دَهِنِ الخَزيزِ لِإِضْفاءِ نَكهَةٍ، وَبَقايا سَميكَةٍ مُتَنَوِّعَة عَلى قَعَرِ الإِناءِ مِنَ الطَّبْخاتِ السَّابِقَة، بِإِضاْفَة كِسرَاتٍ مِنَ الخَبْزِ الأَسودِ إِليها؛ تَصبحُ النَتِيجَة بَدِيعَةً لِلْغايَة، وَتُتَبَّعُ بِيَخَنَةِ البَرقوقِ بِالسُّكَّرِ، وَمَنْقُوعِ الشاي القُويِّ مَعَ اللَّبنِ المُجَقَّفِ. وَجُودُ كُومَةٍ وَافِرَةٍ مِنَ الخَشَبِ في مُتَناوِلِ اليَدِ، وَغِيابُ الرِّيحِ، سَهَّلَا مِنَ قِيامي بِواجِباتي. جَلَسَ صاحِبِي يَراقِبُني في كِسلٍ، مُوزِّعًا انْتِباهاه بَينَ تَنظِيفِ غَليُونِهِ وإِسْداءِ النَصِحِ عَدِيمِ النَفْعِ، اِمْتِيازَ مَسْمُوحٍ بِهِ لِرَجُلٍ خَارجِ خَدَمَتِهِ. لَقَدْ كانَ هادِئًا طَوالَ

ما بعد الظهيرة، انهمَكَ في إعادة ملء فجوة القارب، وتعزيز حبال الخيمة، والسَّعي وراء الأخشاب الطافية بينما كنتُ نائمًا. لم نتبادل المزيد من الحديث عن الأشياء غير المرغوبة، وأعتقد أن ملاحظاته الوحيدة قد تعلَّقت بالدمار التدريجي للجزيرة، التي صرَّح بأنها لم تَصْغُر بمقدار الثلث عمَّا كانت عليه لدى نزولنا عليها.

كان الإناء قد بدأ يُبْقِيْقُ لتوّه عندما سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُناديني من عند الضفّة، حيث راح يتسكَّع من دون أن ألاحظه. ركضتُ مُسرِّعًا.

قال:

- تعالْ وأنصِتْ، ولتَرَ ماذا أنتَ صانعٌ.

رفع يده إلى أذنه على هيئة كوب، كما فعل في كثير من الأحيان من قبل. ثم سأل متطلِّعًا إليَّ باستغراب:

- الآن، هل تسمع أي شيء؟

وقفنا هناك، نصغي معًا بانتباه. في البداية، لم أسمع سوى النغمة العميقة للمياه والهسيس المتصاعد من سطحها المضطرب.

كان الصفصاف ساكنًا وصامتًا، لأوّل مرّة. ثم بدأ صوتٌ يَصِلُ إلى مسامعي بوَهْنٍ، صوت غريب، شيء يشبه طنين جونج⁽¹⁾ بعيد. بدّا أنه يأتي عبر خرائب المستنقعات والصفصاف المقابلة مُتَّجِهًا نحونا في الظلام. كان يتكرَّر على فتراتٍ مُنْتَظَمة، لكنه -بكلِّ تأكيد- لم يكن صوتَ جَرَسٍ ولا صفير باخِرَةٍ بعيدة. لا أستطيع أن أَشَبِّهه بشيء أكثر قُرْبًا له من صوت جونج عملاق، علَّق بعيدًا في السماء، مُكرِّرًا نغمته المعدنية المكتومة بشكل مستمرٍّ، ناعمة وموسيقية، كما لو كان يُطَرِّق في تلاحُق. تسارَعَت ضرباتُ قلبي بينما كنتُ أنصِتُ.

(1) آلة موسيقية إيقاعية، عبارة عن قُرصٍ من المعدن، يُصدر طنينًا عند طَرَقه بمطارق ذات رؤوس لينة، تنتشر في شرق وجنوب شرق آسيا.

- لقد سَمِعْتُهَا طيلةَ اليوم، أَتَتْ من كُلِّ مكانٍ في الجزيرة بينما كُنْتُ نائِمًا فيما بعد الظهيرة. سَعَيْتُ وراءَها، لكنني لم أُمكِّن قَطُّ من الاقتراب بما يكفي للفهم، لم أُمكِّن من تحديد موقعها بشكلٍ صحيح. كانت في الهواء أحيانًا، وفي أحيانٍ أخرى، بَدَتْ وكأنَّها تحت الماء. مرَّةً أو مرَّتَيْنِ، أيضًا، كُنْتُ لَأَقْسِمُ أنها لم تَكُنْ في الخارج على الإطلاق، بل في ثنايا ذاتي، أنتَ تعرف، الطريقة التي يُفترض أن يصدر بها الصوتُ في البُعدِ الرابع.

كُنْتُ أَكْثَرَ ارتباكًا من أنْ أُولِي اهتمامًا كبيرًا لكلماته. أَنْصَتُ بعناية، ساعيًا لربطه بأي صوت مألوف أو معروف أستطيع أن أفكر فيه، لكن لم يُحَالِفْنِي النجاح. كان يُغَيِّرُ من اتجاهه، أيضًا، يدنو مُقْتَرِبًا، ومن ثَمَّ يَخْفُتُ تمامًا على مسافة نائية. لا أستطيع القول إنه كان ذا طبيعة مُنْذِرَةٍ بالسُّوء؛ لأنه بَدَأَ لمسامعي موسيقيًا بامتياز، مع ذلك، يجب أن أقرَّ بأنه تسبَّب لي في شعور مُزعِجٍ جعلني أتمنَّى لو لم أَكُن قد سَمِعْتُهُ قَطُّ. قُلْتُ مُصَمَّمًا على إيجاد تفسير:

- إِنَّها الريح تنفخ في هذه الأقماع الرَّمْلِيَّة، أو أنه الصَّفَاف يَحْتَكُ بعضه ببعض من أثر العاصفة، ربَّما.

أجاب صديقي:

- إنها تَصْدُرُ عن المُسْتَنقَعِ بِأَكْمَلِهِ.

ثم واصل مُتَجَاهِلًا تفسيراتي:

- إنها تأتي من كُلِّ مكانٍ في نفس الوقت.

- إنها تَصْدُرُ عن شُجَيْرَاتِ الصَّفَافِ بطريقة ما...

اعترضت قائلاً:

- لكن الرِّيحَ انْحَسَرَتْ الآن.

أجابني:

- من الصعب أن يثير الصِّفصافُ ضَجَّةً من تلقاء نفسه، هل بوسعه أن يفعل ذلك؟

أجفَلتني إجابته؛ أولاً لأنني كنتُ أخشاها، وثانياً، لأنني كنتُ أعرف أنها صحيحة.

- لأن الريح قد انحسرت، بوسعنا الآن أن نسمعها. كانت محجوبةً من قبل. أعتقد أنها صراخ الـ..

انطلقتُ عائداً إلى النار؛ فقد بَثَّهني صوتُ البَقْبَقَةِ أن اليَخَنَةَ كانت في خطر، لكنني كنت عازماً، في نفس الوقت، على التَّمْلُص من أي حديث آخر.

كنت مُصِراً -إن أمكن- على أن أتجنَّب تبادلَ وجهات النظر. خشيتُ، أيضاً، أنه قد يبدأ في الحديث عن الآلهة، أو قوى عناصر المكان، أو شيء آخر مُزعج، وأردتُ أن أبقى مُتمالِكاً نفسي بشكلٍ جيّد تحسُّباً لما قد يحدث لاحقاً، كانت هناك ليلة أخرى ينبغي علينا مواجهتها قبل أن نَفِرَّ من هذا المكان الموحِش، ولم نكن على درايةٍ -بعد- بما قد تجلبه علينا.

- تعال وقطِّع الخُبَرَ لإضافته في الإناء.

استدعيته، مُحرِّكاً الخليط الشَّهِيَّ بحماس. إن وعاء اليَخَنَةَ ذلك يحفظُ لنا قُوانا العقلية، جعلتني الفِكرَةُ أضحك.

جاء ببطءٍ، وأخذ كيس المُوْن من على الشجرة، مُتَحَسِّساً أعماقه الدفينة، قبل أن يُفْرِغَ كامِلَ محتوياته على غطاء أرضية الخيمة عند قَدَمَيْهِ.

صَحْتُ به:

- أَسْرِعْ، إنها تغلي.

انفجر السويدي في مَوْجَةٍ من الضحك أذهلتني. كان ضحكًا قَسْرِيًّا،
لم يكن مُصْطَنَعًا بِالضَّبَط، إِنَّمَا كَانَ مُتَكَلِّفًا.

وضع يديه على خَاصِرَتَيْهِ صَائِحًا:

- لا يوجد شيء هنا.

وأضاف:

- أعني الخُبْزَ، لقد اختفى. ليس هناك خُبْزٌ. لقد استَوَلَتْ عليه.

أَسْقَطْتُ الْمِلْعَقَةَ الطويلة وَرَكَضْتُ، كَانَ كُلُّ شَيْءٍ قَدْ احْتَوَاهُ الْكِيسُ
مُلْقَى عَلَى غَطَاءِ الْأَرْضِيَّةِ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ أَرْغِفَةٍ.

سَقَطَ عَلَى عَاتِقِي كَامِلُ الْجِمَلِ الثَّقِيلِ؛ لَخَوْفِي الْمَتَزَايِدَ، وَهَزَنِي. ثُمَّ
انفَجَرْتُ فِي الضَّحْكَ أَنَا الْآخَرُ. كَانَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُمَكِّنُ فِعْلَهُ،
وَجَعَلَنِي صَوْتُ ضَحْكِ أَيْضًا أَتَفْهَمُ ضَحْكَه. هَذَا الْانْفِجَارُ فِي الضَّحْكَ
غَيْرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي أَصَابَنَا، نَشَأَ عَنِ الضَّغْطِ النَّفْسِيِّ. كَانَ مُحَاوَلَةً مِنْ
قَوَى مَكْبُوتَةٍ تَنْشُدُ الرَّاحَةَ، كَانَ صَمَامَ أَمَانٍ مُوقَّتٍ.

وَتَوَقَّفْنَا عَنِ الضَّحْكَ بِشَكْلٍ مَفَاجِئٍ تَقْرِيبًا. ثُمَّ صَحْتُ قَائِلًا:

- يَا لِي مِنْ غَبِيٍّ كَبِيرٍ!

لَا زِلْتُ مُصَمِّمًا عَلَى الْبَقَاءِ ثَابِتًا عَلَى مَبْدِئِي وَابْحَثُ عَنْ تَفْسِيرِ.

- لَقَدْ نَسِيتُ تَمَامًا أَنْ أَشْتَرِيَ رَغِيفًا فِي بَرِيسْبُورْجَ، هَذِهِ الْمَرْأَةُ
الْثَّرَاءَةُ أَطَارَتْ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ رَأْسِي، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتْرَكْتُهُ عَلَى
الطَّاوِلَةِ أَوْ...

قَاطَعَنِي السُّوَيْدِيُّ قَائِلًا:

- كَذَلِكَ الشُّوفَانُ، أَصْبَحَ أَقَلَّ كَثِيرًا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ هَذَا الصَّبَاحُ.

فَكَّرْتُ غَاضِبًا "مَا الَّذِي قَدْ يَدْعُوهُ -بِحَقِّ السَّمَاءِ- لِلْفَتَنِ الْإِنْتِبَاهِ
لِهَذَا الْأَمْرِ؟".

قلتُ وأنا أُحرِّك اليَخَنَةَ بقوة:

- يوجد ما يكفي للغد، وبوسعنا الحصول على المزيد في "كومورن" أو "جران". سنكون على مبعدة أميالٍ من هنا في ظرف أربع وعشرين ساعة.

- أمل من الربِّ أن يحدث ذلك.

غَمَغَمَ بذلك، وهو يُعيد الأشياء إلى الكيس، وأضاف بضحكةٍ حمقاء:

- ما لم يُقدِّر لنا أن نكون ضحايا للقربان قبل ذلك.

سحب الكيسَ إلى الخيمة؛ بداعي الاحتراز -على ما أظنُّ- وسمِعته يُعَمِّمُ إلى نفسه، لكن بشكلٍ غير واضح حتى بدا لي من الطبيعي أن أتجاهلَ كلماته.

كانت وجبتنا بائسةً، بلا شكَّ، وتناولناها في صمتٍ تقريبًا، مُتفادين عينيَّ أحدهما الآخر، ومُحافظين على النار مُتوهِّجَةً. بعد ذلك اغتسلنا وتحضَّرنَا لليل، ومجرَّد أن بدأنا التدخين، بأذهانٍ غير منشغلة بواجبات مُحدَّدة، أصبح التَّوجُّس -الذي قد شعرتُ به طيلةَ اليوم- أكثرَ حِدَّةً بكثير. لم يَكُنْ خوفًا نَشِطًا في حينها، على ما أظنُّ، لكن الغموض الشديد لمصدره أصابني بالكربِ أكثر بكثير ممَّا لو كنتُ قد استطعتُ تصنيفه ومواجهته بشكلٍ مباشر. إن الصوت الغريب، الذي شَبَّهته بصوت الجونج، أصبح الآن لا ينقطع تقريبًا، وملاً سكونَ الليل بِطنينٍ خافت مُستمرٍّ أكثر منه سلسلةً من النغمات المُستقلَّة، كان يأتي مرَّةً من خلفنا، وأخرى من أمامنا.

كنتُ أخاله أحيانًا آتيًا من الشجيرات التي على يسارنا، ثم أحيانًا أخرى من الأجمات التي على يميننا. في كثير من الأحيان كان يُحَلِّق في الهواء مباشرةً مثل رفرقة الأجنحة. كان -حقًّا- موجودًا في كل مكان

في وقتٍ واحدٍ: من الخلف، وإلى الأمام، وعلى جانبيها، وفوق رؤوسنا. كان يحيط بنا تمامًا. يستعصي الصَّوتُ حقًا على الوصف. لكن ليس هناك شيء - في حدودِ علمي - يُشبه تلك الهمهمة المكتومة المتواصلة التي تصعد من عالم الصفصاف والمستنقعات المهجور.

جلسنا ندخن في صمتٍ نسبيٍّ، في كل دقيقة يزداد التَّوتُّر بقدر أكبر. بدا لي أن أسوأ ما في الموقف هو أننا لا ندري ما الذي علينا أن نتوقَّعه، ولا يمكننا بالتالي اتِّخاذُ أيَّة تدابيرٍ على سبيل الدفاع. لا يمكننا أن نحتاط لشيءٍ. جئتُ بتفسيراتي في ضوء الشمس، ثم، أتت الآن لتطاردني بطبيعتها الحمقاء وغير المرضية بالمرَّة، وكان يتَّضح لنا أكثر فأكثر أنه لا مفرَّ من الحديث الصريح نوعًا ما مع صاحبي، سواء أحببتُ ذلك أم لم أحبِّه.

يتوجَّب علينا، في النهاية، أن نمضي الليلة معًا، وننام في نفس الخيمة جنبًا إلى جنب. أدركتُ أنه لا يسعني أن أمضي قُدُمًا من دون أن أنال المؤازرة من عقله؛ ولهذا - بالطبع - كان الحديث الصريح واجبًا. مع ذلك، طالما أجَلتُ هذه الدُّرورة الصغيرة، ما أمكنني، وحاولت أن أتجاهل أو أهزأ من الجُمَلِ العَرَضِيَّة التي يُلقِي بها في الهواء.

كما أن بعض هذه الجُمَلِ كان يثير انزعاجي بشكل بالغ، يأتي وكأنها ليؤيِّد بشكلٍ قاطعٍ ما شعرتُ به أنا نفسي. كذلك، هو تأييد من وجهة نظر مختلفة تمامًا، الأمر الذي جعله مُقنِعًا أكثر. لقد ألَّف مثل هذه الجُمَلِ العجيبة، وألقى بها إليَّ بطريقةٍ خارجةٍ عن السِّياق نوعًا ما، كما لو كان خَطُّ تفكيره الرئيسي سرًّا يَخْصُه، وهذه الشَّدَرَات كانت مُجرَّد لُقيَمَاتٍ وَجَدَ أنَّ من الصعب عليه أن يهضمها؛ فتخلَّص منها بأن لَفَظَهَا. أراحه الكلامُ، كان الأمر يشبه أن يكون المرء مريضًا. تكلم على حين غِرَّة، بينما كانت النار تتوهَّج بيننا:

- أنا متأكد أن هناك أمورًا تَخْصُنَا تتسبَّب في الحَلَلِ والتَفْسُخِ والتدمير، تدميرنا.

وأضاف:

- لقد انحرفنا عن الخَطِّ الآمِنِ في مكانٍ ما.

ومرة أخرى، عندما اقترب صوت الجونج، يَظُنُّ أعلى كثيرًا من ذي قبل، وفوق رؤوسنا بشكل مباشر، قال كما لو كان يُحدِّث نفسه:

- لا أظنُّ أن بوسع جرامافون أن يُظهِرَ تسجيلًا لذلك. لا يأتي الصَّوتُ إلَيَّ عن طريق الأذنين، إطلاقًا. تَصِلُنِي الدَّبْدَبَاتُ بطريقة أخرى كُلِّيًا، وتبدو أنها بداخلي، وهذه هي بالضبط الكيفيَّة التي قد يفترض أن صوتًا رباعيَّ الأبعاد يجعل نفسه مسموعًا من خلالها.

تعمَّدتُ عدمَ الرَّدِّ على هذا، بل جَلَسْتُ مُقْتَرِبًا قليلًا من النار أُحدِّقُ في الظُّلْمَة من حولي. كانت الغيوم مُحْتَشِدَةً في جميع أنحاء السماء، ولا يلوح من خلالها أيُّ أثرٍ لضوء القمر. كذلك، كان كل شيء ساكنًا للغاية، بحيث سارت أمور النهر والضفادع في مجراها.

واصلَ قائلاً:

- يوجد ذلك الشيء بخصوصه، الذي هو خارجٌ تمامًا عن الخبرة الشائعة. إنه غيرُ معلوم. شيءٌ واحدٌ فقط يَصِفُه بِحَقٍّ: إنه صوتٌ غيرُ بَشَرِيٍّ، أعني أنه صوت من خارج الإنسانية.

بتخليصِ نَفْسِه من هذه اللقمة عَسِرَة الهَضْمِ؛ رَقَدَ هادئًا لِبُرْهَة، لكنه كان قد عَبَّرَ عن مشاعري الخاصَّة بشكلٍ مُثيرٍ للإعجاب، لدرجة أنني شعرتُ بالراحة لخروج الفكرة، ولأن حَصَرَهَا في الكلمات قد حال بينها وبين التجوُّلِ الخَطِرِ، جيئةً وذهابًا في العقل.

هل أستطيع، يومًا، أن أنسى وحشة مُخَيِّمِ الدانوب ذلك؟ الشعور بأنك وحيدٌ تمامًا على كوكبٍ خالٍ! تركزت أفكارى باستمرارٍ على المدين والأماكن المعمورة بالناس. كنتُ لأمنح روعي -كما يقول المثلُ- مقابلِ "إحساس" القرى الباقارية التي كثيرًا ما مررنا بها، مُقابلِ أماكنِ البَشَرِ المألوفة الطبيعية: فلاحون يشربون البيرة، وطاولات تحت الأشجار، ضوءُ الشَّمسِ الدافئ، وقَلْعَةٌ مُهدَّمة فوق الصخور خلف الكنيسة ذات السقف الأحمر. حتى السِّيَّاح كانوا لَيَرْحَبُ بهم.

لكن ما شعرتُ به من رهبة لم يَكُنْ شَبَحَ خوفٍ عاديٍّ. كان أكبرَ بشكلٍ غير محدودٍ، وأشدَّ غَرَابَةً، وبدأ أنه نشأ من إحساسٍ موروثٍ مُبْهَمٍ بالرُّعبِ، مُزعجٍ بشكلٍ أكبر من أيِّ شيءٍ قد عرفته أو حلُمْتُ به. لقد "انحرفنا" -كما قال السويدي- عند منطقةٍ ما أو مجموعة ظروفٍ ما، حيث كانت المخاطرُ كبيرةً، بل ومُستَغْلَقَةً على أفهامنا، حيث تقع على مقربةٍ مِنَّا حدودُ عالمٍ مَجهولٍ. هي بقعةٌ أَوْجَدَها سُكَّانُ فضاءٍ خارجيٍّ ما، من قَبِيلِ ثَقَبِ الباب يستطيعون من خلاله التَّجَسُّس على الأرض، بأنفسهم من دون أن يُرَوْا، نقطة يكون الحِجابُ المُسدَّلُ عندها رقيقًا بعض الشيء. كنتيجةٍ نهائيةٍ لإقامةٍ طويلةٍ للغاية هنا، لا بُدَّ أن نُحمل على عبور الحدود، ونُجرَّدَ مِنَّا نطلق عليه "حيواتنا"، لكن بعمليةٍ ذهنية وليست ماديَّةً. بهذا المعنى -كما قال- لا بُدَّ أن نكون ضحايا مغامرتنا... قُربانًا للتَّضحية.

استحوذ علينا الأمرُ بطُرُقٍ مختلفة، كُلٌّ حَسَبَ مَدَى حساسيته وقُدْرَتِهِ على المُقاوَمَةِ. تَرَجَمَتْهُ أنا بشكلٍ مُبْهَمٍ إلى تجسيدٍ للعناصر المضطربة اضطرابًا شديدًا، وأكسبتها رعب الغاية المتعمدة والمؤذية، المُستاءة من انتهاكنا الوَقِح لمنطقة تكاثرها. في حين ألقى صديقي بالتَّبَعَةِ على الأسلوب غير الأصيل من البداية في التعدِّي على ضريحٍ قديمٍ ما، مكانٍ ما حيث لا تزال الآلهة القديمة تُحكِّمُ سَيطرَتَها،

ولا تزال القُوَّة الوجدانية للمتعبدين السابقين عِلَّةً، وأسْفَرَ الجُزءُ السِّلْفِيُّ منه عن تعويذةٍ وَثْنِيَّةٍ قَدِيمَةٍ.

على أيِّ حالٍ، كُنَّا أمامَ مكانٍ لم يُلَوِّثْهُ البشرُ، حَفَظَتْهُ الرِّياحُ خَالِيًا من تأثيرات الإنسان الفُظَّة، مكانٍ حيث القوى الرُّوحِيَّة قَرِيبَةٌ لِلْغَايَةِ وَعُدْوانِيَّةٌ. لم يحدث قَطُّ من قَبْلُ أن هاجَمَتَنِي الإِحياءاتُ غَيْرُ القَابِلَةِ لِلوَصْفِ "للبُعدِ الما ورائي" الخاص بصيغَةٍ أُخْرَى للحياة، فَلكُ آخرٍ غيرٍ موازٍ لَفَلكِ البشرِ. وفي النهاية، قد يخضع عقلُنا تحت وطأة التعويذة الرهيبة، ولا بُدَّ أن ننجذبَ، عبر الحدود، إلى عالَمِهِم.

تَشِي الأشياءُ الصَّغِيرَةُ بالتأثير المدهش للمكان، وفي تلك اللحظة، في الصَّمْتِ المُحِيطِ بالنار، أتاحت نفسها ليلاحظها العَقْلُ.

الجَوُّ المُحِيطُ نَفْسَهُ قد بَرَهَنَ على أنه وسيطٌ مُكَبِّرٌ يُشَوِّهُ كُلَّ إشارة: القُنْدُسُ الذي يتدحرج مع التيار، ورجل القارب المتعجِّل الذي يُرْسِلُ إشاراتٍ، والصِّفَافِ المُتَحَرِّكِ، فرادى ومجموعة - قد جُرِّدُوا من شخصيَّاتهم الطَبِيعِيَّة، وكشفوا عن شيءٍ من جانبهم الآخر، كما يوجَدُ في تلك المنطقة الأخرى عبر الحدود. وشعرتُ حينها أن هذا الجانب المُتَغَيِّرَ لم يكن بالنسبة لي فقط، بل للجنس البشري. إن التجربة التي كُنَّا نَقِفُ على حافَّتِها، برُمَّتِها، كانت غيرَ معروفةٍ للبشرية على الإطلاق. كانت نَسَقًا جَدِيدًا من الخبرة، وليست من هذه الأرض، بالمعنى الحقيقي للكلمة.

- إنها الغاية المتعمَّدة المحسوبة، التي تهبط بشجاعة المرء إلى الصَّفَرِ.

قالها السويديُّ فجأةً، وكأنه كان يَطْلُعُ على أفكارٍ بالفعل. وأضاف:

- خلاف ذلك قد يُوَحِّدُ الخيالَ في الحُسبان. لكن المجدافَ والقاربَ والطعامَ المتناقِصَ...

قَاطَعَتُهُ بِحِدَّةٍ:

- أَلَمْ أَفْسَرْ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ؟

أَجَابَ بِشَكْلِ جَافٍ:

- لَقَدْ فَعَلْتُ، بِالتَّأَكِيدِ فَعَلْتُ.

أَبْدَى مُلَاحَظَاتٍ أُخْرَى، كَعَادَتِهِ، عَمَّا دَعَاهُ "الْحَتْمِيَّةُ الْوَاضِحَةُ لَوْجُودِ ضَحِيَّةٍ". لَكِنِّي لَاحَظْتُ، وَقَدْ رَتَّبْتُ أَفْكَارِي الْآنَ بِشَكْلِ أَفْضَلٍ، أَنَّ هَذِهِ كَانَتْ صَرْخَةً رُوحِهِ الْمَذْعُورَةِ فِي مُوَاجَهَةِ وَعِيهِ بِأَنَّ جِزْءًا حَيَوِيًّا مِنْهُ كَانَ عُرْضَةً لِلْهَجُومِ، وَأَنَّهُ قَدْ يُؤْخَذُ أَوْ يُدْمَرُ بِطَرِيقَةٍ مَا. كَانَ الْمَوْقِفُ يَتَطَلَّبُ الشَّجَاعَةَ وَهَدْوَى التَّفَكُّيرِ، وَهُوَ الشَّيْءُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَبُوسِعُ أَحَدَنَا أَنَّ يَمْتَلِكَهُ، وَلَمْ أَكُنْ قَطُّ، مِنْ قَبْلُ، أَعْيَ بِهَذَا الْوَضُوحِ وَجُودَ شَخْصَيْنِ بَدَاخِلِي: الشَّخْصُ الَّذِي يُفْسِّرُ كُلَّ شَيْءٍ، وَالْآخَرُ الَّذِي يَهْزَأُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ التَّفْسِيرَاتِ السَّخِيفَةِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ خَائِفٌ إِلَى حُدِّ الرُّعْبِ.

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، خَبَّتِ النَّارُ فِي اللَّيْلِ الْحَالِكِ وَتَضَاءَلَتْ كَوْمَةُ الْخَشَبِ. لَمْ يَتَحَرَّكَ أَيُّ مِنَّا لَسَدَ النِّقْصِ فِي الْمَخْزُونِ، وَأَصْبَحَ الظَّلَامُ -نَتِيجَةً لَذَلِكَ- قَرِيبًا لِلْغَايَةِ مِنْ وَجْهِنَا. كَانَتْ سُودَاءَ كَالْحَبْرِ فِيمَا وَرَاءَ دَائِرَةِ ضَوْءِ النَّارِ بِأَقْدَامٍ قَلِيلَةٍ. مِنْ حِينٍ لآخر، كَانَتْ هَبَّةٌ شَارِدَةٌ مِنَ الرِّيحِ تَجْعَلُ الصَّفْصَافَ يَرْتَعْشُ مِنْ حَوْلِنَا، لَكِنْ -بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ هَذَا الصَّوْتِ غَيْرِ الْمُسْتَحَبِّ، بِشَكْلِ كَبِيرٍ- سَادَ صَمْتُ عَمِيقٍ وَكَثِيبٍ، لَا يَقْطَعُهُ سِوَى غَرْغَرَةِ النَّهْرِ وَالْهَمْهَمَةِ فِي الْهَوَاءِ مِنْ فَوْقِنَا.

أَعْتَقْدُ إِنْ كَلَانَا كَانَ يَفْتَقِدُ صُحْبَةَ الرِّيحِ الصَّاخِبَةِ.

فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ، فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي طَالَتْ عِنْدَهَا هَبَّةٌ شَارِدَةٌ، كَمَا لَوْ كَانَتْ الرِّيحُ عَلَى وَشِكِ الْهُبُوبِ مَرَّةً أُخْرَى، بَلَغَتْ نَقْطَةَ التَّشْبُعِ الْخَاصَّةَ بِي، النَّقْطَةَ الَّتِي يَصْبَحُ مِنَ الضَّرُورِيِّ تَمَامًا عِنْدَهَا أَنْ أَلْتَمِسَ

تَحَقُّقًا فِي الْحَدِيثِ الصَّرِيحِ، وَإِلَّا سَأَفْضَحُ نَفْسِي بِبَعْضِ الْمَغَالَاةِ الْهَيْسْتِيرِيَةِ
الَّتِي قَدْ يَكُونُ أَثَرُهَا عَلَيْنَا أَسْوَأَ كَثِيرًا. رَكَلْتُ النَّارَ حَتَّى تَوَهَّجَتْ،
وَتَحَوَّلْتُ إِلَى صَاحِبِي فَجَاءَةً. نَظَرَ إِلَيَّ فِي تَاهِبٍ، فَقُلْتُ لَهُ:

- لَا أَسْتَطِيعُ إِخْفَاءَ الْأَمْرِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، لَا يَعْجِبُنِي هَذَا الْمَكَانُ،
وَلَا الظَّلَامُ، وَلَا الضُّوْءُ، وَلَا الشُّعُورُ الْمُرِيعُ الَّذِي يُسَاوِرُنِي، شَيْءٌ
مَا هُنَا يَقْهَرُنِي تَمَامًا. أَشْعُرُ بِخَوْفٍ كَثِيبٍ، وَتِلْكَ هِيَ الْحَقِيقَةُ
الْمُجَرَّدَةُ. إِنْ كَانَ الشَّاطِئُ الْآخِرُ مُخْتَلِفًا، أَقْسَمُ أَنَّي كُنْتُ لِأَقْدِمُ
عَلَى السَّبَاحَةِ إِلَيْهِ.

تَحَوَّلَ وَجْهُ السُّوَيْدِيِّ إِلَى الْبَيَاضِ الشَّدِيدِ تَحْتَ سُمْرَةِ الشَّمْسِ
وَالرَّيْحِ الدَّاكِنَةِ. حَدَّقَ مَبَاشَرَةً فِي وَجْهِهِ، وَأَجَابَ بِهَدْوٍ، لَكِنَّ صَوْتَهُ
وَشَى بِانْفِعَالِهِ الْبَالِغِ مِنْ خِلَالِ هَدْوِهِ غَيْرِ الطَّبِيعِيِّ. بِأَيِّ حَالٍ مِنَ
الْأَحْوَالِ، كَانَ الرَّجُلُ الْقَوِيُّ فِينَا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ. كَانَ الْأَكْثَرُ رِبَاطَةً
جَاشٍ، عَلَى الْأَقْلَى. قَالَ بَنْبَرَةٌ طَبِيبٍ يُشَخَّصُ مَرَضًا خَطِيرًا:

- إِنَّهَا لَيْسَتْ بِالْحَالَةِ الْمَادِّيَّةِ الَّتِي يُمَكِّنُنَا الْإِفْلَاتَ مِنْهَا عَنْ
طَرِيقِ الْهَرَبِ، يَجِبُ أَنْ نَبْقَى فِي مَكَانِنَا وَنَنْتَظِرَ. تَوْجَدُ قُوَى
قَرِيبَةٌ هُنَا بَوَسْعِهَا أَنْ تَقْتُلَ قَطِيعًا مِنَ الْفِيلَةِ فِي ثَانِيَةِ بِنَفْسِ
السَّهْوَةِ الَّتِي نَسْتَطِيعُ بِهَا -أَنَا أَوْ أَنْتَ- أَنْ نَسَحَقَ ذُبَابَةً.
فَرَصَتُنَا الْوَحِيدَةُ هِيَ أَنْ نَحَافِظَ عَلَى سَكُونِنَا التَّامِ. رُبَّمَا يُنْقِذُنَا
عَدَمُ الْاعْتِدَادِ بِنَا.

حَمَلَ تَعْبِيرُ وَجْهِهِ عَشْرَاتِ الْأَسْئَلَةِ، لَكِنْ لَمْ تُسَعِفْنِي الْكَلِمَاتُ. كَانَ
الْأَمْرُ بِالضَّبْطِ مِثْلَ الْإِنْصَاتِ إِلَى التَّوْصِيفِ الدَّقِيقِ لِمَرَضٍ قَدْ حَيَّرْتَنِي
أَعْرَاضُهُ.

وَاصَلَ قَائِلًا:

- أَعْنِي أَنَّهَا، بِالرَّغْمِ مِنْ وَعْيِهَا بِحُضُورِنَا الْمَزْعَجِ، لَمْ تَعَثُرْ عَلَيْنَا
حَتَّى الْآنَ، "لَمْ تُحَدِّدْ مَوْقِعَنَا" -كَمَا يَقُولُ الْأَمْرِيكِيُّونَ- إِنَّهَا

تَتَخَبَّطُ مِنْ حَوْلِهَا مِثْلَ رِجَالٍ يَبْحَثُونَ عَنْ تَسْرُبِ لِلْغَازِ.
المجداف والقارب والتَّموين- كُلُّهَا تُثَبِّتُ ذَلِكَ. أَعْتَقِدُ أَنَّهَا
تشعر بنا، لكنها لا تستطيع أن ترانا بالفعل. ينبغي أن نحافظ
على هدوء عقولنا، إنَّ ما تشعر به هو عَقْلُنَا. يجب أن نسيطر
على أفكارنا، وإلا انتهى أمرنا.

مكتبة

t.me/t_pdf

تَلَعَثَمْتُ، مُتَجَمِّدًا مِنْ هَوْلٍ تَلْمِيحِهِ:

- تَقْصِدُ الْمَوْتَ؟

قال:

- أسوأ بكثير. الموت، حسب مُعْتَقَدِ المرء، إمَّا أن يعنِي الفَنَاءَ
أو التَّحَرُّرَ مِنْ مَحْدُودِيَّةِ الْحَوَاسِّ، لكنه لا ينطوي على تَغْيِيرِ
الشَّخْصِيَّةِ. أَنْتِ لَا تَتَحَوَّلُ فَجَاءَةً مُجَرَّدَ أَنَّ الْجِسْمَ قَدْ ذَهَبَ.
لكن هذا يعني تَحَوُّلاً جَذْرِيًّا، تَغْيِيرًا كَامِلًا، فُقْدَانُ رَهِيْبٍ
لِلذَاتِ بِاسْتِبْدَالِهَا، أسوأ بكثيرٍ مِنَ الْمَوْتِ، وهو ليس حتى
فَنَاءً. لَقَدْ حَدَثَ أَنَّ خَيْمَنَا فِي بُقْعَةٍ تَلَامِسُ مَنْطِقَتَهَا فِيهَا
مَنْطَقَتُنَا، حَيْثُ انْسَدَلَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ رَقِيقٌ.

يا للهول! كان يستخدم عبارتي ذاتها، كلماتي بِحَقِّ. أَضَافُ قَائِلًا:

- هِيَ مُنْثَبِّهَةٌ إِذْنِ لَوْجُودِنَا فِي جَوَارِهَا.

سألت:

- لَكِنْ مَا هِيَ؟

نَسِيتُ ارْتِجَافَ الصَّفْصَافِ فِي الْهَدْوِ الْخَالِي مِنَ الرِّيحِ، وَالْهَمِّهِمَةِ
فِي الْهَوَاءِ، وَكُلِّ شَيْءٍ، عِدا أَنَّنِي كُنْتُ مُنْتَظِرًا إِجَابَةً أَتَخَوَّفُ مِنْهَا فَوْقَ
مَا قَدْ يَحْتَمِلُهُ الْوَصْفُ.

خَفَضَ صَوْتَهُ فَوْرًا لِيَجِيبَ، مُنْحِنِيًا لِلْأَمَامِ قَلِيلًا فَوْقَ النَّارِ، تَغْيِيرٌ لَا يُمَكِّنُ تَحْدِيدَهُ فِي وَجْهِهِ جَعَلَنِي أَتْفَادِي عَيْنِيهِ، وَأَخْفَضَ بَصْرِي إِلَى الْأَرْضِ.

قال:

- طيلة حياتي، كنتُ واعيًّا بشكلٍ واضحٍ وبغرابيةٍ لمنطقةٍ أخرى -ليست نائيةً للغاية عن عالمنا من جهةٍ، ومختلفةٍ بالكامل في النوع من جهةٍ أخرى- حيث تجري أشياءٌ عظيمةٌ دون توقُّفٍ، حيث تعبُرُ شخصياتٌ ضخمةٌ ومُفزعَةٌ، على عَجَلٍ؛ بُغْيَةً أَهْدَافِ جِسامٍ مُقَارَنَةً بِأَيِّ أُمُورٍ أَرْضِيَّةٍ، إن صعود وسقوط الأممِ، وأقدار الإمبراطوريات، ومصير الجيوش والقارات- جميعها كَمَثْقَالِ ذَرَّةٍ، أَهْدَافِ جِسامٍ، أعني بها، تلك التي تتعامل مباشرةً مع الروح، وليس بشكلٍ غير مباشرٍ مع تجليات الروح...

- فقط أَقْتَرِحُ الْآنَ...

بادَرْتُ بالكلام، ساعيًا إلى مُقَاطَعَتِهِ؛ لشعوري بأنني كنتُ وَجْهًا لَوَجْهِ أَمَامِ رَجُلٍ مَجْنُونٍ. لكنه سرعان ما تجاوزَني بِسَيْلِهِ الَّذِي كَانَ آتِيًا لَا مُحَالَةً.

- أَنْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّهَا رُوحُ الْعَنَاصِرِ، وَأَنَا اعْتَقَدْتُ أَنَّهَا رُجْمًا كَانَتْ آلِهَةً قَدِيمَةً. لَكِنِّي أَخْبِرُكَ الْآنَ أَنَّهَا لَيْسَتْ شَيْئًا مِنْ هَذَا. هَذِهِ قَدْ تَكُونُ كِيَانَاتٍ مَفْهُومَةً؛ لِأَنَّ لَدَيْهَا صِلَاتٍ بِالْبَشَرِ، تَعْتَمِدُ عَلَيْهِمْ فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّضَحِّيَةِ، بَيْنَمَا هَذِهِ الْكَائِنَاتُ الَّتِي تُحِيطُ بِنَا الْآنَ لَيْسَ لَدَيْهَا أَدْنَى عِلَاقَةٍ بِالْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ، وَإِنَّهَا مَجْرَدُ مُصَادَقَةٍ أَنْ يَكُونَ مَكَانَهَا فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ بِالضَّبْطِ لِيَتِمَّاسَ مَعَ مَكَانِنَا.

إن المفهوم المُجرّد، الذي جَعَلته كَلِمَاتُه مُقْنِعًا، بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى،
بينما أَسْتَمِعُ إِلَيْهَا هُنَاكَ فِي السَّكُونِ الْمُظْلِمِ لَتِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْوَحِيدَةِ،
جَعَلَنِي أَرْتَجِفُ قَلِيلًا مِنْ رَأْسِي إِلَى قَدَمِي. وَجَدْتُ أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ
أَنْ أُسَيِّطَرَ عَلَى حَرَكَاتِي.

بَادَرْتُ مَرَّةً أُخْرَى قَائِلًا:

- وماذا تقترح؟

أجابني:

- قربانُ، ضَحِيَّةٌ، قَدْ تُنْقِذُنَا بِتَشْتِيتِ انْتِبَاهِهَا حَتَّى نَتِمَكَّنَ مِنَ
الْهَرَبِ.

وواصل:

- بِالضَّبْطِ كَمَا تَتَوَقَّفُ الذُّنَابُ عَنْ افْتِرَاسِ الْكَلَابِ فَتَمْنَحُ الزَّلَاقَةَ
انْطِلَاقًا أُخْرَى. سَوَى أَنَّنِي لَا أَرَى فُرْصَةً لِأَيِّ ضَحِيَّةٍ أُخْرَى الْآنَ.
حَدَّقْتُ فِيهِ مَشْدُوهَا. وَمِیْضُ عَيْنَيْهِ كَانَ مُخِيفًا. لَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَاصَلَ.

IV

- إنه الصِّفَاف، بالتأكيد. يوارى الصِّفَافُ الكائناتِ الأخرى، لكن تلك الكائنات الأخرى تتحسَّس من حولها باحثةً عنَّا. إذا تركنا عقولنا تشي بخَوْفِنا، نكون انتهينا، انتهينا تمامًا.

تَطْلُعُ إلَيَّ بتعبيرٍ هادئٍ للغاية، عازِمٍ للغاية، صادقٍ للغاية، حتى إنه لم تَعُدْ لديَّ أي شكوكٍ في سلامةِ عَقْلِهِ. كان سليمَ العَقْلِ مثلما يكون أيُّ إنسان.

أضاف:

- إذا استطعنا أن نَصْمَدَ خلال الليل، ربما مَمَكَّنَّا من الهرب في ضوء النهار من دون أن تلاحظنا، أو بالأحرى، من دون أن تكتشِفَنا.

- لكن هل نَظُنُّ حَقًّا أن تضحيةً قد...

بمجرد أن تكلمتُ، أتت هذه الهمهمةُ الشبيهة بالجونج قريبةً للغاية فوق رؤوسنا، لكنَّ وجهَ صديقي المذعور هو ما أمسك بفمي حقًا. رفع يده هامسًا:

- صه! لا تذكرها أكثر ممَّا تُطيق. لا تُشر إليها بالاسم. أن تُسمِّيها يعني أن تكشف عنها، إنها إشارة لا يُمكن تداركها، ويتمثل أملنا الوحيد في تجاهلها، عساها أن تتجاهلنا.

- حتى في التفكير؟

كان مُنفَعِلًا للغاية.

- خصوصًا في التفكير. تتردّد أصداء أفكارنا في عالمها. ينبغي أن نخرجها من عقولنا بأي ثمن، إذا كان ذلك مُمكنًا.

حرّكتُ النارَ حتى أَمِنَ الظلام من أن يُخيمَ على كُلِّ شيء. لم أُنقِ للشمس قطُّ كما كنتُ أتوق إليها حينها في اسوداد ليل الصيف الفظيع.

واصلَ حديثه فجأةً:

- هل كنتَ مُستيقظًا طوال الليلة السابقة؟

- لقد مُتُّ بشكلٍ سيئٍ بعد الفجر بقليل.

أجبتُه مُراوغةً، في محاولةٍ لاتباع تعليماته، التي أدركتُ أنها صحيحةٌ بشكلٍ غريزيٍّ، وأضفتُ:

- لكنَّ الرِّيحَ، بالطبع.

- أعرف. لكنَّ الرِّيحَ لا تُفسِّر كُلَّ الضَّوضاء.

- إذن فقد سمعتها أنتَ أيضًا؟

- سمعتُ صوتَ الخطوات الصغيرة المتزايدة التي لا تُحصى.

ثم أضاف بعد تَرَدُّدٍ قصيرٍ:

- وذلك الصَّوت الآخر...

- تقصد فوق الخيِّمة، والضغط فوقنا بواسطة شيء هائلٍ عملاق؟

أوماً برأسه بشكل ملحوظ.

قلتُ:

- كانت تُشبه بدايةً نوعٍ من الاختناق الداخلي؟

- نعم، جزئياً. بدَا لي أن ثَقَلَ الجَوُّ المحيط كان قد تَغَيَّرَ، ازداد

بشكلٍ هائلٍ، بحيث لا بُدَّ أننا كُنَّا نُسْحَق.

- وذلك!

واصلتُ، كنتُ عازِماً على طرح كل ما بداخلي، مُشيرًا لأعلى حيث

كانت النغمة الشبيهة بالجونج تُهمِّهمُ من دون انقطاع، صاعِدة

وهايطة مثل الريح.

- ما رأيك في ذلك؟

همس بنبرةٍ جادة:

- إنه صوتهَا، صوتُ عالمِهَا، الهمهمة التي في منطقتها. إن

الحاجز هنا رقيقٌ لدرجة أن الصوت يتسرَّب بطريقةٍ ما. لكنَّكَ

إذا دَقَّقْتَ السَّمْعَ؛ ستجد أنه ليس لأعلى أكثرَ منه حَوَلًا. إنه

في الصَّفِصاف. إن الصَّفِصاف نفسه يُهمِّهمُ؛ لأن الصَّفِصاف هنا

جَعَلَ كرمزٍ للقوى التي تُجابهُنَا.

لم أتمكَّن من مُتَابَعَةِ ما قصده بالضبط، مع ذلك لم يكن هناك

شَكٌّ أن الخاطر والفكرة في عقلي هما الخاطر والفكرة في عَقْلِهِ. لقد

لاحظتُ ما لاحظَهُ، فقط بقدرٍ أقلَّ منه في قوَّة التَّحْلِيل. كان على

طرف لساني أن أخبرَهُ أخيراً عن هَلاوسِي بشأن الأشكال الصَّاعِدة

والشُّجَرَاتِ الْمُتَحَرِّكَةِ، عندما اندفع بوجهه فجأةً مُقْتَرِبًا مرَّةً أُخرى من وجهي عبر ضوء النار وبدأ يتحدثُ بهَمْسٍ جادٌ للغاية. لقد أثار دهشتي بهدوئه ورَبَاطَةً جَاشِهِ، وسيطرته الواضحة على الموقف. هذا الرجل الذي قد حَسِبْتُهُ -لسنواتٍ- عديمَ الخيال، ومُتَبَلِّدَ الحِسِّ! قال:

- أَنْصِتْ الآنَ، إن الشيء الوحيد الذي علينا أن نفعله هو أن نستمرَّ كما لو أن شيئًا لم يحدث، نتابع عاداتنا المألوفة، نذهب للفِراش، وهكذا دواليك. نتظاهر بأننا لا نشعر بشيء ولا نلاحظ شيئًا، إنها مسألة تَخُصُّ العقل بشكل كامل، وكلُّما فُكِّرنا فيها أقلَّ كُلُّما زادت فرصتنا في الهرب. أهم شيء، ألا تفكر؛ لأن ما تُفكر فيه يتحقَّق.

تمكَّنتُ من الرَّدِّ، مبهورَ الأنفاس من أثر كلماته وغرابتها كُلِّها:

- حسنًا، سأحاول، لكن أولًا، أخبرني شيئًا واحدًا إضافيًا. قُل لي ما رأيكَ في تلك التجاويف المُنتَشِرة في الأرض في كلِّ مكانٍ من حولنا، تلك الأقماع الرَّمليَّة؟

- لا!

صاح، ناسيًا في غَمَرَةِ انفعاله أن يَهْمَسَ.

- لا أجرو، ببساطةٍ لا أجرو أن أصيغ الفكرة في كلمات. إذا لم تُكُن قد خَمَّنت فهذا يسعدني. لا تحاول أن تفعل. لقد وَضَعْتَ الفكرة في عقلي، حاولَ قَدَرَ استطاعتِكَ أن مَنَعَهَا من وضعها في عَقْلِكَ.

خَفَضَ صَوْتَهُ مرَّةً أُخرى لمستوى الهمس قبل أن ينتهي، ولم أضغط عليه لِيُفَسِّرَ. كان هناك بالفعل قَدَرٌ من الرُّعب بداخلي يكافئ تقريبًا القَدَرَ الذي يمكنني تحمُّله. وَصَلَتِ المُحَادَثَةُ لنهايتها، وانهمكنا في تدخين غليونَيْنا في صَمِتٍ.

ثم حدث شيء ما، شيءٌ غيرُ مُهمٍّ على ما يبدو، كما هو الحال عندما تكون الأعصاب على قَدَرٍ كبيرٍ من التَوَثُّر، وهذا الشيء الصغير الذي شغل فترةً زمنية قصيرة مَنَحَنِي زاويةَ رُؤْيَةٍ مُخْتَلِفَةٍ كُلِّيًّا. صادف أن نظرت إلى جِذَائِي الرَّمْلِيِّ -من النوع الذي نستخدمه للقارب- شيء ما يتعلَّق بالثَّقْبِ الخاص بِأَخْمَصِ القَدَمِ أعاد إلى ذهني -فجأةً- مَتَجَرَ لندن حيث قد اشتريته، والصعوبة التي لاقاها الرَّجُلُ في إيجاد ما يناسبني، وتفاصيل أخرى للموضوع، غير شَيْقَةٍ ولكنها عَمَلِيَّةٌ. جاء في أعقابها، على الفور، مشهدٌ شامِلٌ للعالمِ الحديث المُتَشَكِّك الذي اعتَدْتُ أن أتحرَّك داخله في الوطن. فكَرْتُ في لحم البقر المشوي، والجعَّة، والسيارات، ورجال الشرطة، وفِرَقَ الموسيقى النحاسية، وعشرات الأشياء الأخرى التي تكشف عن روح الاعتياديَّة والمنفعة. كان التأثير فوريًّا ومُدْهِشًا حتى بالنسبة لي. من الناحية السيكلولوجية، أفترض أنه كان مجردَ رَدٍّ فِعَلٍ مفاجئٍ وعنيفٍ بعد ضغط الحياة في جَوْ من الأشياء التي لا بُدَّ أن تبدو مستحيلةً وغيرَ قابِلَةٍ للتصديق بالنسبة للوعي العادي. لكن، أيًّا كان السبب، فإنه نزع التعويذة من قلبي، لِلْحِظَاتِ، وجعلني أشعر بالتحرُّر وعدم الخوف لأقلَّ من دقيقة. رَفَعْتُ رَأْسِي مُتَطَلِّعًا إلى شريكي المُخَالِف. وصَحْتُ ضاحِكًا بصَخَبٍ في وجهه:

- أَنْتَ وَثْنِي قَدِيمٌ لَعِين!

وواصلتُ:

- أَنْتَ أَحْمَقُ وَاسِعُ الْخِيَالِ! أَنْتَ وَثْنِي تُؤْمِنُ بِالْخُرَافَاتِ! أَنْتَ...

توقَّفتُ في وسط الكلام، استحوذ عليَّ الرعب القديم من جديد. حاولتُ أن أخلق صوتي وكأنه شيءٌ مُدْئَس. لقد سَمِعَهَا السويديُّ أيضًا، بالتأكيد، هذه الصرخة الغريبة في الظلام فوقنا، وذلك الهبوط المفاجئ في الهواء كما لو أن شيئًا قد اقترب.

امتقع وجهه وصار أبيض كالرَّمَاد من تحت السُّمَرَة. وقف أمام
النار مُستقيماً الظَّهر، مُنتصبَ القامةِ، يُحدِّق في وجهي.

قال بنوعٍ من العَجَزِ والاهتياج:

- بعد ذلك، لا بُدَّ أن نذهب! لا نستطيع أن ننتظر الآن، يجب أن
نُقَوِّضَ المُخَيِّمَ في التَّوَّ ونواصل... الإبحار في النهر.

رأيتُ أنه يتحدَّث بوحشيَّةٍ شديدة، كان رُعبٌ بالغٌ يُلي عليه
كلماته، الرُّعب الذي قد قاومه طويلاً جداً، لكنه تمكَّن منه أخيراً.

- في الظلام؟

هتَفْتُ، وأنا أرتجف من الخوف عقب فَوْرَتِي الهيستيريَّة، لكنني لا
زِلْتُ أدركُ موقِفنا أفضلَ منه. وأضَفْتُ:

- جنونٌ مُطلَق! النهر في حالةٍ فيضان، وليس لدينا سوى
مجدافٍ واحد. كما أننا بذلك إنما نتوغَّل في أرضها! لا يوجد
شيءٌ لخمسين ميلاً أماناً سوى صفصافٍ، صفصافٍ، صفصافٍ!

جلس مرةً أخرى نصفَ مُنهار. انعكست المواقِفُ فجأةً، من خلال
تلك التَّغيُّراتِ المُعقَّدة التي تُحبُّها الطبيعة، وانتقلت السَّيطرةُ على
قوانا إلى يديّ. لقد وصل عقْلُه أخيراً إلى النقطة التي بدأ يضعف
عندها.

- أيُّ شيءٍ لعين مَمْلَكَةٍ لتأتي بمثل هذا الفعل؟

همس بها وقد اكتسى صوته ووجهه بذهولٍ رُعبٍ حقيقيٍّ. دُرْتُ
حول النار عابِراً إلى الجانب الذي يَشغَلُه. أَخَذْتُ يَدَيْهِ بين كَفَّيَّ،
وجَثَوْتُ على رُكْبَتَيَّ إلى جانِبِه ونظرتُ في عينيه المذعورتين بشكلٍ
مباشر. قلتُ بحَزَمٍ:

- سنُعْذِّي النارَ لمَرَّةٍ واحدةٍ إضافيَّة، وبعدها نأوي لفرشنا لما
تَبَقَّى من الليل. عند شروق الشمس سنكون مُنطَلِقَيْنَ بأقصى

سرعة باتجاه "كومورن". الآن، استَجْمِعْ نفسك قليلاً، وتذكّر
نصيحتَكَ بعدم التفكير فيما يخيف!

لم يَقُلْ شيئاً، ورأيتُ أنه سيوافق ويلتزم. إن النهوض والقيام برحلة
في الظلام لَجْمَعِ الأخشاب، كان نوعاً من التَّخَفُّفِ، بدرجة ما. بقينا
على مقربةٍ من بعضنا البعض، مُتَلَمِّسِينَ تقريباً، نتلمّس طريقنا بين
الشُّجيرات وعلى طول الضُّفّة. لم تتوقَّف الهمهمةُ في الهواء قطُّ، بل
بَدَأَ لي أنها تزداد ارتفاعاً كلّما ازددنا بُعداً عن النار. كان شيئاً يُثير
القُشعريرة! كُنَّا نُنْقُبُ في منتصفِ أَجْمَةٍ كثيفة من شُجيرات الصَّفصاف
حيث كانت بعضُ الأخشاب الطافية من فيضان سابقٍ قد عَلِقَتْ في
مكانٍ مُرتَفِعٍ بين الأغصان، عندما أَطْبَقَتْ قَبْضَةً على جسدي كادَتْ
تُسْقِطُنِي على الرمال. كان السويديّ. لقد سقط باتجاهي، وكان يتشبَّث
بي ليستند عليّ. سَمِعْتُ أنفاسه تعلو وتهبط في لهاثٍ قصير. همس:
- انظُرْ! بِحَقِّ الرَّبِّ!

وللمرّة الأولى في حياتي أدركتُ ما يعنيه أن تسمع دموع الرُّعبِ في
صوت إنسان. كان يشير إلى النار، على بُعد نحو خمسين قدماً. تَبِعْتُ
اتِّجَاهَ إصبعه، وأَقْسِمُ أن قلبي قد انخلع.
كان هناك شيءٌ يتحرّك أمام الوَهَجِ الخافت.

رأيتُه من خلال حجابٍ انسدل أمام عينيّ، مُغْبَشٌ قليلاً، مثل
الستار الرقيق الذي يُسْتَخْدَمُ في خلفيّة خشبة المسرح.. لم يَكُنْ بهيئة
إنسان ولا حيوان. أعطاني انطباعاً غريباً بأنه كبيرٌ مثل العديد من
الحيوانات المُجْتَمِعَةِ معاً، مثل حصانين، أو ثلاثة، تتحرك على مهلٍ.
وصل السويديّ، هو الآخر، إلى نتيجةٍ مُشابهة، عبّر عنها بشكلٍ
مُخْتَلِفٍ؛ فقد اعتقد أنه اتَّخَذَ هيئةً وَحَجَمَ أَجْمَةٍ من شُجيرات
الصَّفصاف، مستديرةً عند قِمَّتِها، وتتحرّك على سطحها في كلِّ مكان،
قال فيما بعد: كانت تَلْتَفُّ حول نفسها كالِدُّخان.

انتحب في وجهي قائلاً:

- لقد شاهدتها تستقرُّ في الأسفل من خلال الشُّجيرات.

- انظر، بحقِّ الرَّبِّ! إنها آتيةٌ في هذا الاتجاه! أوه، أوه!

أطلقَ صرخَةً اعترافاً نوعاً من الصَّفير، قبل أن يُضيف:

- لقد عَثَرَت علينا.

ألقيتُ نظرةً مذعورة، مَكْنَتَنِي فقط أن أرى الأشكالَ المظلمةَ وهي تتمايلُ مُتَّجِهَةً إلينا عبر الشُّجيرات، ثم انْهَرْتُ إلى الورااء مُصْطَدِّمًا بالأغصان، التي فَشَلْتُ -بِالطَّبْع- في تَحْمُلِ وزني، وهكذا سَقَطْتُ على الرُّمالِ والسويديِّ فوقِي في هيئةٍ كَوْمَةٍ مُتَعَثِّرة. في الحقيقة، بالكاد أدركتُ ما كان يجري. كنتُ واعيًّا -فقط- بنوعٍ من الإحساس المُغْلَفِ بخوفٍ جَلِيدٍ اقتلع أعصابي من غطاؤها الجَسَدِيَّ، وفَتَلَهَا في كُلِّ اتجاه، وأعادها مُرتَعِدَةً إلى مكانها. كانت عيناَي مُطَبَّقَتَيْنِ تَمَامًا، شعرتُ بغَصَّةٍ في حلقي، شعورٌ بأن وعيي كان يتضخَّم ويتمدَّد في الفراغ، سرعان ما أفسح الطريقُ لشعورٍ آخر بأنني كنتُ أفقد الوعيَ كُلِّيًّا، وأُشْرِفُ على الموت.

سَرَى داخلي تَقْلُصُّ حادًّا من الألم، وكنتُ مُدْرِكًا أن السويديَّ قد قبض عليَّ بطريقةٍ جَعَلَتْهُ يُؤْلِمُنِي بشكلٍ فَظِيع، كانت طريقة تَعْلُقِهِ بي وهو يسقط.

لكنَّه كان الألم الذي أنقذني، كما أعلنَ بعد ذلك، فقد تَسَبَّبَ في نسياني لها والتفكير في شيء آخر في اللحظة التي كانت على وَشَكِ العثور عليَّ فيها. لقد حَجَبَ عقلي عنها في لحظة الاكتشاف، بل في اللحظة المناسبة للتَّمَلُّص من اختطافها الرهيب لي. في الحقيقة، هو نفسه، كما يقول، غاب عن الوعي في نفس اللحظة؛ وذلك هو ما أنقذه.

كل ما أعرفه هو أنني في توقيتٍ لَاحِقٍ -بعيدًا كان أم قريبًا- هو أمرٌ من المستحيل أن أُحدِّده، وجدتُ نفسي أتسلَّق إلى خارج شبكة الأغصان الزَّلِقَّة، ورأيتُ صاحبي يقف أمامي ماذا يَدُه لمساعدتي. حدَّقْتُ فيه بعينين زائِغَتَيْن، مُمَسِّدًا الذراع الذي قد ثناه لي. لم يُوَاتِنِي الكلام، بطريقةٍ ما. سَمِعْتُهُ يقول:

- لقد غِبْتُ عن الوعي لِلْحَظَّةِ أو اثنتين.

وأضاف:

- ذلك ما أنقذني. جعلني أتوقَّف عن التفكير فيها.

انتابني خَدَرٌ. نَطَقْتُ بفكرتي الوحيدة المُتَرابِطَةُ في تلك اللحظة:

- لقد كِدْتُ تكسرُ ذراعي إلى جُزَأَيْن.

أجاب:

- ذلك هو ما أنقَذَك!

وأضاف:

- لقد مَكَّنَّا، فيما بيننا، أن نُغيِّرَ مسارَها عند نقطةٍ ما. لقد توقَّفت الهمهمَّةُ. ذهَبْتُ، في الوقت الحاضر على أيِّ حال!

مَلَكَّتْنِي مَوْجَةٌ من الضحك الهיסيريِّ مرَّةً أخرى، وانتَقَلْتُ، هذه المرَّة، إلى صديقي أيضًا، عاصفة كبيرة شَافِيَةٌ من الضَّحك الرجراج جَلَبَتْ علينا شعورًا هائلًا بالراحة. اتَّخذنا طريقنا عائِدَيْن إلى النار، وغَذَوناها بالأخشاب؛ فتوهَّجَتْ في الحال. رأينا بعد ذلك أن الخيمة قد سَقَطَتْ على الأرض في كومةٍ مُتَشَابِكَةٍ.

التقطناها، وخلال مُعَالَجَتِهَا تعَثَّرَتْ أقدامنا وَعَلِقَتْ بالرُّمال أكثر من مرَّة.

عندما انتصبت الخيمة مرةً أخرى، وأضاءت النارُ الأرضَ لِعِدَّةٍ يارِداتٍ من حولنا، هتف السويديُّ:

- إنها تلك الأقماعُ الرَّمليَّة.

ثم أضاف:

- وانظُرْ إلى حجمها!

كانت هناك حُفَرٌ عميقة ذات شكلٍ مخروطيٍّ في الرمال، منتشرة في كلِّ مكانٍ حول الخيمة ومَوْضِعِ النار، حيث قد شاهدنا الظَّلَالَ المتحرِّكة، تُشَبِّه بالضَّبَط تلك التي قد وجدناها بالفعل في أنحاء الجزيرة، سوى أنها تزيد عنها بكثيرٍ في الحجم والعُمق، شُكِّلَتْ بِجَمالٍ، وباتِّساعٍ كافٍ، في بعض الحالات، لأن تسمح بدخول قَدَميَّ وساقِيَّ بأكملهم.

لم يَنْبَسْ أيُّ مِنَّا بكلمة. كان كلانا يعرف أن النوم هو آمَنُ شيءٍ نستطيع فعله، ووفقًا لذلك، أوينا إلى فراشنا دونما مزيد من التأخير، بعد أن ألقينا بالرمال على النار، واصطحبنا معنا كيسَ التَّموين والمجدافَ إلى داخل الخيمة، القارب، أيضًا، أسندناه إلى نهاية الخيمة، بحيث تلمسه أقدامنا، فنَزَعَج ونستيقظ من أقلِّ حركةٍ.

وفي حالة الطوارئ -أيضًا- فإننا أوينا إلى الفراش مُرتدين ملابسنا مرةً أخرى، مُتَحَضِّرين لانطلاقَةٍ مُفاجِئَةٍ.

كانت نِيَّتِي الراسخة أن أرقُدَ مُتَقِظًا طوال الليل وأراقب، لكنَّ الإجهاد العصبيَّ والجسدي قضى بخلاف ذلك، وجاءني النوم بعد حينٍ بغطاء النِّسيان المُسْتَحَبِّ. الحقيقة أن صاحبي أيضًا دخل في النوم بسرعة. في البداية كان يَتَمَلَّمُ وينهض باستمرار، ليسألني إن كنتُ "سَمِعْتُ هذا" أو "سَمِعْتُ ذلك". يتقلَّب في فراشه المصنوع من الفلين، ويقول إن الخيمة كانت تتحرَّك والنهر قد ارتفع فوق مستوى

الجزيرة، لكنني في كلِّ مَرَّةٍ، كنت أذهب إلى خارج الخيمة، وأعود لأطمئنُّه أن كلَّ شيءٍ على ما يُرام، وأخيراً هَدَأَ وَرَقَدَ سَاكِئًا.

ثم أصبح تَنفُّسه مُنْتَظِمًا، بعد فترة، وَسَمِعْتُ صوت شَخيره الذي لا يُخطأ، للمرة الأولى والوحيدة في حياتي يكون للشَّخير تأثيرٌ مُسْتَحَبٌّ ومُهدِّئٌ.

أذكر أن هذه كانت آخرَ فِكْرَةٍ في عقلي قبل أن يغلبني النُّعاس.

استيقظت على صعوبة في التَّنَفُّس، لأجد الغطاء على وجهي، لكنَّ شيئًا آخر بالإضافة للغطاء كان يضغط عليّ، كان أوَّل ما خطر لي أن صاحبي قد تَدَحَّرَجَ من فراشه إلى فراشي في أثناء نومه. نادَيْتُهُ وَجَلَسْتُ، وفي نفس اللحظة خَطَرَ لي أن الخيمة كانت مُطَوَّقَةً. صوت الطقطقة المتعدِّدة الناعمة ذلك كان مَسْموعًا مرَّةً أخرى في الخارج، يملأ الليل بالرُّعب.

نادَيْتُهُ مرَّةً أخرى، بصوتٍ أعلى من ذي قبل. لم يُجب، لكنني افتقدتُ صوت شَخيره، ولاحظتُ أيضًا أن مصراع باب الخيمة كان مُنْسَدِلًا، كانت هذه خطيئةٌ لا تُغْتَفَرُ، زَحَفْتُ إلى الخارج في الظلام لأعلِّقه بشكلٍ آمِن، وعندها أدركتُ، لأوَّل مرَّةٍ، بشكلٍ مُؤَكِّدٍ أن السويديَّ ليس هنا، لقد ذهب.

اندَفَعْتُ للخارج في جَرِيٍّ مجنون، وقد استولى عليَّ هياجٌ مُرَوِّع، وفي اللحظة التي أَصْبَحْتُ عندها بالخارج غَرَقْتُ في سَيلٍ من الهمِّهِمَةِ أحاط بي تمامًا وكان يصدر من كُلِّ ناحية في السماء في نفس الوقت. كانت تلك الهمِّهِمَةُ المألوفة نفسها، وقد جُنَّ جنونُها! وكأنه سِرْبٌ من النحل الكبير غير المرئيِّ في الهواء من حولي. بدا أن الصَّوتَ يُكثَّفُ الهواءَ ذاته، وشعرتُ أن رِئتيَّ تعملان بصعوبة.

لكنَّ صديقي كان في خطر، ولا يسعني أن أتردَّد.

كان الفجر على وشك الانبلاج، وانتشر ضوءٌ خافتٌ مُبَيَضٌ فوق السُّحُب، صاعِدًا من الشريط الرفيع للأفق الواضح. لم تُكُن الرِّيح تتحرَّك. بوسعي فقط أن أتبيِّن الشُّجيرات والنهر من ورائها والبُقَع الرملية الشاحِبَة. رَكَضْتُ، في غمرة انفعالي، بشكلٍ مَحْمُومٍ، جيئةً وذهابًا حول الجزيرة، مُناديًا باسمه، صارخًا بأعلى صوتي بأوَّل كلماتٍ خَطَرْتُ على بالي. لكنَّ الصَّفَافَ كَتَمَ صوتي، وطَغَتِ الهَمَّهَمَةُ عليه، حتى أن الصوت لم يرتحل سوى لأقدامٍ قليلةٍ من حولي. اندَفَعْتُ بين الشُّجيرات، مُتَعَزِّزًا بتهوُّرٍ، ساقِطًا فوق الجذور، ساحِجًا وجهي باندفاعي في كل اتجاه بين الأغصان المنيعة.

نُفِّمٌ، بشكلٍ غير مُتَوَقَّعٍ تمامًا، وَصَلْتُ إلى رأس الجزيرة لأرى شَكْلًا قائمًا مَرسومًا على خَلْفِيَةِ الماء والسماء. كان السويديُّ. وقد وضع قدمًا في النهر بالفعل! لحظة أخرى ويغوص في الماء.

أَلْقَيْتُ بنفسي عليه، مُطَوِّقًا خَصْرَهُ بذراعيَّ وَسَحَبْتُهُ في اتجاه الشاطئ بكلِّ ما أوتيتُ من قُوَّةٍ. قاوَمَنِي مُقاوَمَةً عَنِيفَةً، بالطَّبْع، مُصَدِّرًا ضوضاءَ، طوال الوقت، تُشَبِّه بِالضَّبْطِ تلك الهَمَّهَمَة اللعينة، ومُسْتَخْدِمًا في سَوْرَةِ غَضَبِهِ عباراتٍ أجنبيَّةً غريبةً عن "الدخول إليها"، و"السَّير على طريق الماء والريِّح"، والله وحده يَعْلَمُ ما قاله بالإضافة إلى ذلك، وهو ما حاولْتُ عَبَثًا أن أتذكَّره فيما بعد، إلا أنه أصابني بَعَثَيان الرُّعب والدهشة لدى سماعي له. لكنني مَمَكَّنْتُ -في النهاية- أن أذهب به إلى أمانِ الخِيَمَةِ النَّسْبِيَّةِ، وأَلْقَيْتُ به على الفِراش، وهو مقطوع الأنفاس يتلفَّظ باللعنات، واحتضنْتُهُ حتى مَرَّتِ النَّوْبَةُ. أَظُنُّ أن الصورة المفاجئة الذي انتهى بها كُلُّ شيءٍ وأصبح هادئًا، يتوافق مع ما حدث، بالمثل، من تَوَقُّفٍ مفاجئٍ للهَمَّهَمَةِ والطَّفْطَفَةِ بالخارج. أعتقد أن هذا رَجْمًا كان -على الأغلب- أغْرَبَ ما في الأمر بِرُمَّتِهِ. حيث فتح عَيْنَيْهِ لِتَوَّه وأدار لي وجهه المُتَعَبَ لِيُلْقِيَ الفَجْرُ بَصُوْنَهُ الشَّاحِبَ عليه من خلال المدخل، وتكلَّم، مثل طِفْلٍ خائفٍ بالضَّبْطِ:

- إنها حياتي، يا صديقي القديم، أنا مَدِينُ لك بحياتي. لكنْ كُلُّ شيءٍ انتهى الآن، على أيِّ حال. لقد عثرت على ضحيَّةٍ لتحلَّ محلَّنا!

ثم سقط للخلف على غطاءه ودخل في النوم تحت نظري، حرفيًا. لقد انهار ببساطة، وبدأ يشخَّر من جديد بشكل طبيعيٍّ كما لو أنَّ شيئًا لم يحدث، وكأنَّه لم يحاول أبدًا أن يُقدِّم حياته كضحيَّة عن طريق الغرق. وعندما أيقظهُ ضَوْءُ الشَّمْس بعد ثلاث ساعات -هي ساعاتٌ من اليَقَظَةِ المُستمرَّة بالنسبة لي- كان من الواضح لي أنه لا يتذكر شيئًا، على الإطلاق، ممَّا قد أَقْدَمَ على فعله، حتى أنني رأيتُ أن من الحكمة أن أحافظَ على سَلامي، وألَّا أسأل أسئلةً خَطِرةً.

لقد استيقظ بشكلٍ طبيعيٍّ، وبسهولة، كما سَبَقَ أن قُلْتُ، عندما كانت الشمس قد ارتقت، بالفعل، في سماءٍ ساخنةٍ خاليةٍ من الرياح، ونهض على الفور وَشَرَعَ في إعداد النار لتجهيز الإفطار. تَبِعْتُهُ بِقَلْقٍ عند الاستحمام، لكنَّه لم يَعْمَدَ إلى الغوص في الماء، غَمَسَ رأسه فقط، وأبدى مُلاحَظَةً ما عن برودة الماء الزائدة. ثم قال:

- لقد بدأ النَّهْرُ في الانخفاض أخيرًا، وهذا شيء يُسَعِدُنِي.

قُلْتُ:

- لقد توقَّفتِ الهَمَمَةُ أيضًا.

رفع بصره نحوي بهدوءٍ وبأسلوبه الطبيعي في التَّعبير. من الواضح أنَّه يتذكَّر كُلَّ شيءٍ باستثناء مُحاولَتِهِ الانتحار. قال:

- لقد توقَّف كُلُّ شيءٍ، لأن...

لقد تردَّد. لكنني أدركتُ أن في رأسه مَرَجِعِيَّةٌ لتلك الملاحظة التي قد أبداهَا قبل أن يغيب عن الوعي مُباشرةً، وكنتُ مُصمِّمًا على مَعْرِفَتِهَا. قُلْتُ بضحكةٍ صغيرة مُصطنعة:

- لأنها قد عَثَرَتْ على ضحيَّةٍ أخرى؟

أجاب:

- بالضَّبْط! أشعر بذلك بشكلٍ مُؤكِّدٍ كما لو كنتُ... كما لو كنتُ... أقصد أنني أشعر بالأمان التَّامَّ من جديد.

بدأ يتطلَّع من حوله في استغراب. كان ضوءُ الشمس يسقط في بُقْعٍ ساخنة على الرمال. لم تكن هناك ريحٌ. كان الصفصاف ساكِناً. انتصب على قَدَمَيْهِ ببطء. ثم قال:

- تعالَ، أظنُّ أننا إذا بحثنا، سنجدها.

انطلق في الجري، وتبعته. لَزِمَ الضَّفَافَ، مُنَقَّباً بعصاه بين الخُلجان الرَّمْلِيَّة والكهوف والمياه الخلفيَّة القليلة، وأنا أتبعه عن قُرْبٍ دائماً. هَتَفَ في الحال:

- آه!

نبرةٌ صوته أعادت إليَّ -على نحوٍ ما- إحساساً حيّاً برُعبِ الأربع والعشرين ساعة الماضية، فهرعتُ لأنضمَّ إليه. كان يشير بعصاه إلى شيءٍ أسودٍ كبيرٍ استلقى نصفه في الماء ونصفه على الرمال. بدا أنه علقَ ببعض جذور الصفصاف الملتوية بحيث لم يَسْتَطِع النهرُ أن يسحبه. لا بُدَّ أن البُقْعَةَ كانت تحت الماء قبل ساعاتٍ قليلة.

قال بهدوء:

- انظرْ، إنها الضحية التي جَعَلَتْ هَرَبَنَا مُمَكِّناً!

وعندما نَظَرْتُ من فوق كتفه رأيتُ أنه أراح عصاه على جُثَّة رَجُلٍ. قَلَبَهَا. كانت جُثَّةٌ فَلَاحٍ، وكان الوجه مَخْفِياً في الرمال. من الواضح أن الرَّجُلَ قد غرق، لكن قبل ساعاتٍ قليلة، ولا بُدَّ أن جُثَّتَهُ قد انجرفت على جزيرتنا في وقتٍ قريبٍ من ساعة الفجر، في الوقت نفسه الذي كانت النَّوْبَةُ عنده قد مَرَّت.

قال:

- يجب أن مَنَحَه دَفَنَةً لائِقَةً، كما تعرف.

أجبت:

- أَفَتَرَضُ ذلك.

ارتجفتُ قليلاً على الرَّغْمِ مَنِّي، حيث كان هناك شيء في ذلك الرجل الغريق المسكين جعلني أشعر بالبرودة.

رَمَقَنِي السُّوَيْدِيُّ بنظرةٍ حَادَّةٍ، وعلى وجهه تعبيرٌ لا يُمكنُ تَفْسِيرُهُ، وبدأ يتسلَّق إلى أسفل الضُّفَّة. تابَعْتُهُ بأناءٍ أكبر.

لَاخَظْتُ أن التِّيَّارَ قد مَزَّقَ الكثير من الملابس عن الجسد، بحيث بَقِيَتِ الرَّقَبَةُ وجزءٌ من الصِّدر عَارِيَيْنِ.

في منتصف الطريق إلى أسفل الضُّفَّة، توقَّف صاحبي، فجأةً، ورفع يده مُحدِّراً، لكن إمَّا أن قدمي انزلقت أو أنني قد اكتسبتُ الكثير من الزَّخَمِ لأنَّ أُرْغِمَ نفسي بسرعة على التوقُّف؛ لأنني اصطَدَمْتُ به ودفعته فقفز إلى الأمام كي يُنقِذَ نفسه. هَوَيْنَا معاً على الرمال الصُّلْبَةِ، حتى أن أقدامنا أثارت الرِّشَاشَ في الماء. وقبل أن نتمكَّن من فِعْلِ أيِّ شيء، اصطدمنا بالجُثَّة صَدْمَةً قَوِيَّةً إلى حَدِّ ما.

نَدَّتْ عن السويدي صرخةٌ حَادَّة. وارتَدَدْتُ أنا إلى الخلف كما لو أنني أُصِبْتُ بطلْقَةٍ.

في اللحظة التي لَمَسْنَا فيها الجُثَّة، تصاعد من سطحها صوتُ هَمَهَمَاتٍ مُرْتَفِعَةٍ، صوتُ العديد من الهمهمات، التي مَرَّتْ في فوضى كبيرة وكأنها لأشياء مُجَنَّحَةٍ في الهواء من حولنا، واختفت لأعلى في السماء، ازدادت خفوتاً على خفوتٍ حتى توقَّفت أخيراً على بُعد. كان الأمر كما لو أننا أزعجنا مخلوقاتٍ حَيَّةً غيرَ مَرئيَّةٍ أثناء عملها.

أَمَسْكْ بِي صَاحِبِي، وَأَظُنُّ أَنَّي أَمَسَكْتُ بِهِ، لَكِنْ قَبْلَ أَنْ يُتَاحَ
الْوَقْتُ الْكَافِي لِأَيِّ مَنَّا كِي يَفِيقَ مِنَ الصَّدْمَةِ غَيْرِ الْمُتَوَقَّعَةِ، رَأَيْنَا
أَنْ حَرَكَةَ التِّيَّارِ رَاحَتْ تُدِيرُ الْجُنَّةَ حَتَّى تَحَرَّرَتْ مِنْ قَبْضَةِ جَذُورِ
الصَّفْصَافِ. بَعْدَ لَحْظَةٍ كَانَتْ قَدْ انْقَلَبَتْ بِشَكْلِ كَامِلٍ، أَصْبَحَ الْوَجْهُ
الْمَيِّتُ لِأَعْلَى، يُحَدِّقُ فِي السَّمَاءِ. مَمَدَّتْ عَلَى حَافَّةِ الْمَجْرَى الرَّئِيسِيِّ. مَا
هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ أُخْرَى وَسُتُجَرَّفَ بَعِيدًا.

انْطَلَقَ السُّوَيْدِيُّ لِيُنْقِذَهَا، صَارِخًا، مَرَّةً أُخْرَى، بِشَيْءٍ لَمْ أَتَمَكَّنْ
مِنَ التَّقَاطُفِ عَنْ "الدَّفْنَةِ اللَّائِقَةِ"، ثُمَّ سَقَطَ فَجَاءَةً عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَوْقَ
الرَّمَالِ، وَغَطَّى عَيْنَيْهِ بِيَدَيْهِ. كُنْتُ إِلَى جَوَارِهِ فِي لَحْظَةٍ.
رَأَيْتُ مَا كَانَ قَدْ رَأَاهُ.

بِمَجَرَّدِ أَنْ مَالَ الْجَسَدُ نَحْوَ التِّيَّارِ، اسْتَدَارَ الْوَجْهُ وَالصَّدْرُ الْمَكْشُوفُ
تَجَاهَنَا بِشَكْلِ كَامِلٍ، وَأَظْهَرَابُوضُوحٍ كَيْفَ كَانَتْ الْبَشَرَةُ وَاللَّحْمُ
مُحَزَّزَيْنِ بِثَقُوبٍ صَغِيرَةٍ، شُكِّلَتْ بِجَمَالٍ، وَمَشَابِهَةٍ تَمَامًا لِلْأَقْمَاعِ الرَّمْلِيَّةِ
الَّتِي قَدْ وَجَدْنَاهَا فِي شَتَّى أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ. سَمِعْتُ رَفِيقِي يُتَمِّمُ مِنْ
بَيْنِ أَنْفَاسِهِ الْلَاهِثَةَ:

- إِنَّهَا عَلَامَتُهَا! عَلَامَتُهَا الْبَشَعَةُ!

الونديجو



خرج عددٌ كبيرٌ من رحلات الصيد في تلك السَّنة من دون العثور على كثير من الآثار الحديثة؛ إذ كانت الأيائل خَجَوْلَةً على غير المعهود، وعاد شَتَّى جبابرة الصَّيد إلى أحضان عَائِلَاتِهِمْ بأفضل ما أمكن لقَرَائِحِهِمْ أن تَجُودَ به من حُجَج. عاد الدكتور "كاثكارت"، ضمن آخرين، من دون غنيمَةٍ، لكنه عَوَّضًا عن ذلك، حمل معه ذكرى تجربةٍ، صرَّح بأنها تساوي كُلَّ ما قد قُنِصَ يومًا من فحول الأيائل. إلَّا أن "كاثكارت"، ابن أبردين، كانت له اهتمامات أخرى بجانب الأيائل، من ضمنها شَطَحَاتُ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ. مع ذلك، لم يَرِدْ أَيُّ ذِكْرٍ لهذه القصة بالذَّات في كتابه عن الهَلُوسَةِ الجماعية؛ لسبب بسيط -هكذا أَسَرَّ ذات مرَّةٍ، إلى زميلٍ له في الجامعة- أنه هو نفسه لعب دورًا مباشرًا في جزءٍ منها، لَدَرَجَةِ لا تسمح له بتكوين حُكْمٍ صائب على الأمر برُمَّتِه...

بالإضافة إليه وإلى دليله، "هانك ديفيز"، كان هناك الشاب "سيمبسون"، ابن أخيه، طالب لاهوت نُذِر للخدمة في "وي كيرك" - كان حينها في زيارته الأولى للغابات الخلفية الكنديّة - ودليل الأخير، "ديفاجو". كان "جوزيف ديفاجو" كنديًا من أصل فرنسي، شَرَدَ عن مقاطعته الأصلية، "كيبك"، قبل سنوات، وقد عَلِقَ في "رات بورتاج" عندما كانت السَّكَّ الحديدية الباسيفيكية الكنديّة قَيَّدَ الإنشاء، وهو رَجُلٌ -بالإضافة إلى درايته التي لا تُبَارَى في شؤون الغابات وخبايا الأدغال- يستطيع أيضًا أن يُغْنِي أغاني الرِّحَالَة القديمة، ويروي حكايات صَيْدٍ رائعة فوق ذلك. وكان أيضًا مُعَرَّضًا -بشكل عميق- لتلك التعويذة الفريدة التي تُلقِيها البرّيّةُ على أشخاصٍ مُتَوَحِّدين بعينهم، وقد أَحَبَّ العُرْلَة البرّيّةُ بنوعٍ من العاطفة الرومانسية التي كادت تبلغ حَدَّ التَّسَلُّط. لقد فَتَنَتْه حياةُ الغابات الخلفيّة، بلا شك، من زاويّة قُدْرَتِهِ الفائقة على التَّعاطي مع غموضها.

كان "هانك" هو الذي اختاره في هذه الرحلة على وجه الخصوص. كان يعرفه ويُقَسِّمُ بقدراته، وَيَسْبُهُ كذلك، كدُعَابَةٍ بين الأصدقاء، ومما أَنَّهُ كان يملك مُفْرَدَاتٍ سبَابٍ مُذهِلة، وإن كانت بلا أيِّ معنى، فإنَّ المحادثة بين رَجُلَي الغابات الشَّديدين صَاحِبِي البأس غالبًا ما كانت من النُّوع المِفْعَم بالحياة. مع ذلك، ارتضى "هانك" بأن يَكْبَتَ نَهَرَ الشَّتائم هذا، قليلًا؛ احترامًا للدكتور "كاثكارت" رئيسه القديم في الصيد، الذي كان -بالطَّبع- يُخَاطِبُهُ بقَوْلِهِ "دوك"؛ تماشياً مع العادة السائدة في البلاد، وكذلك لأنه فَهِمَ أن سيمبسون الصغير كان بالفعل "كاهِنًا إلى حَدٍّ ما". كان لديه -مع ذلك- اعتراضٌ بشأن "ديفاجو"، اعتراضٌ واحدٌ لا غَيْرَ، وهو، أن الكندي الفرنسي كان يُبدي أحيانًا ما يَصِفُهُ هانك بأنه "نِتَاجُ عَقْلِ مَلْعُونٍ وكَثِيب". بمعنى أنه يصبح أحيانًا مُوَدَّجًا لِلنَّمَط اللاتيني، ويُعاني نوباتٍ من نوع من التَّجَهُُّم الصامت، لا يستطيع عندها أيُّ شيء أن يحملَه على الكلام. بمعنى آخر،

كان خيالياً وسوداوياً. وكقاعدة، فإن التَّعَرُّضَ لتعويدة الحضارة طويلاً كان السَّبَبَ وراء النوبات؛ إذ أن بضعة أيام في البرِّيَّة من شأنها أن تُداوِيَهَا تَمَامًا.

كانت هذه -إذن- مجموعة الأربعة الذين وجدوا أنفسهم معًا، في الأسبوع الأخير من أكتوبر من "عام الأيائل الخجولة" هذا، وقد توغَّلوا في البرِّيَّة شمال "رات بورتاج"، وهي منطقة مُقْفِرَة ومهجورة. كان هناك أيضًا "بانك"، وهو هنديٌّ رافقٌ د. "كاثكارت" و"هانك" في رحلات صَيْدِهِم في السنوات السابقة، وكان يقوم بمهام الطاهي. اقتصر واجِبُه على البقاء في المخيَّم، وصيد الأسماك، وإعداد شرائح لحم الطرائد والقهوة في غضون دقائق قليلة. كان يرتدي ثيابًا رثَّة ورِثَها عن سادَّة سابقين، وبخلاف شَعْرِهِ الأسود الخَشِن وبشرته الداكنة، لم يكن يبدو -في ثياب المدينة هذه- هنديًّا أحمر حقيقيًّا، أكثر ممَّا يبدو زنجيٌّ مَسْرَحٌ أفريقيًّا حقيقيًّا. لكنه، مع كل ذلك، ظلَّ يحتفظ في داخله بغرائز عِرْقِهِ المحتَضِر: بقي صَمْتُهُ المتحفِّظُ وجَلَدُهُ، وبَقِيَّت أيضًا خُرافاتُه.

كان الفريق المتحلِّق حول النار المتوهَّجة في تلك الليلة يائسًا؛ إذ مرَّ أسبوعٌ من دون أن تظهر علامةٌ واحدة على وجودٍ حديثٍ لأَيِّلٍ ما. غنَّى "ديفاجو" أغنيته وانغمس في قصة، لكن "هانك" نَبَّهَهُ مرارًا، بِمِزَاجٍ مُتَكَدِّرٍ، إلى أنه "يواصل العَبَثُ بالوقائع لدرجة أنَّها -تقريبًا- لم تصبح سوى كذبةٍ مكشوفة" حتى دخل الفرنسي أخيرًا في صَمَتٍ عابِسٍ لا يبدو أي شيء قادرًا على كَسْرِهِ. كان الدكتور "كاثكارت" وابن أخيه مُسْتَنَفَدي القوى بعد يومٍ مرهق. كان "بانك" يغسل الأطباق وهو يُهَمِّهِمُ بينه وبين نفسه تحت عريش الأغصان حيث نام لاحقًا أيضًا. لم يُزَعِج أَحَدٌ نَفْسَهُ بتحريك النار التي تحتضر ببطء. كانت النجوم تلتمع فوقهم في سماء شتوية تَمَامًا، وكان هناك القليل من الرياح لدرجة أن الجليد أخذ -بالفعل- يتشكَّل خُلَسَةً على طول

شواطئ البحيرة الساكنة من خلفهم. تَسَلَّلَ صَمْتُ الغابة الشاسعة المصغية ولَفَّهم.

قطع "هانك" الصَّمْتَ فجأةً بصوته الأنفيَّ قائلاً:

- أنا أَفْضَلُ أن نستكشف أرضاً جديدة غداً يا دوك.

أبدى ملاحظته بحماس، مُتَطَلِّعاً إلى مُسْتَحْدِمِهِ، قبل أن يضيف:

- ليس لدينا أي فرصة هنا.

قال "كاثكارت" باقتضابه المعهود:

- أوافق.

وأضاف:

- أعتقد أن الفكرة جيّدة.

واصل "هانك" بثقة:

- هي فكرة جيّدة بالتأكيد يا زعيم، الآن أرى أن أمضي أنا وأنت

غَرَبًا، على طريق بحيرة "جاردن" على سبيل التغيير! لم يسبق

لأيِّ مِنَّا أن وَطِئَ تلك البقعة الهادئة.

- أنا معك.

- وأنت يا "ديفاجو"، اصطحب السيد "سيمبسون" في القارب

الصغير، تَخَطَّ البحيرة، ثم احمِلْ القارب إلى "فيفتي آيلاند

ووتر"، وألقِ نظرة مُدَقِّقة على ذلك الشاطئ الجنوبي. لقد

احتشدت الأيائل هناك العامَ الماضي بكثافة كبيرة، ومَن يدري،

لعلّها تُكرِّرُ فِعْلَتَهَا هذا العامَ لمجرّد مُعَابَبَتِنَا.

أبقى "ديفاجو" عينيه مُثَبَّتَيْنِ على النار، ولم يَتَفَوَّه بشيء على

سبيل الإجابة، ربما ظَلَّ مُسْتَاءً من مقاطعة قِصَّتِهِ.

أضاف "هانك" مؤكِّدًا، كما لو كانت لديه معلومات:

- لم يسلك أحدُ ذلك الطريقَ هذا العام، وسأراهن على ذلك بآخر دولارٍ معي.

ألقي على شريكه نظرةً حادَّةً متفحِّصَةً، واختتم كلامه، كما لو كان الأمر قد حُسِمَ:

- من الأفضل أن تأخذ الخيمة الحريريَّة الصغيرة وتبقى بعيدًا لبضع ليالٍ.

كان "هانك" قد اعتَمِدَ مُنْظَمًا عامًّا للصيد، ومسؤولًا عن الفريق.

كان من الواضح لأي شخص أن "ديفاجو" لم يتحمَّس للخُطَّة، لكن بدا أن صَمَتَه يحمل ما هو أكثر من الرفض العادي، ومَرَّ عبر وجهه، القاتم الحسَّاس، تعبيرٌ غريب يشبه وميضًا من ضوء النار، لكنه لم يكن سريعًا بحيث لا يلحظه الرجال الثلاثة.

قال "سيمبسون"، بعد ذلك في الخيمة، مُخبرًا عَمَّه:

- لقد شعر بالفزع لسببٍ ما.

لم يجرِ الدكتور "كاثكارت" جوابًا مباشرًا، على الرغم من أن النظرة قد استرعت انتباهه، في حينها، بدرجةٍ كافية لأنَّ يُسجَّل ملاحظَةٌ ذهنيَّةٌ بخصوصها. لقد تسبَّب له التعبير في قَلْقٍ عابر، لا يستطيع تفسيره على نحو تامٍّ في الوقت الحالي.

لكن "هانك" كان -بالطَّبع- أوَّل مَنْ لاحظ ذلك، والشَّيء الغريب أنه بدلًا من أن يفعل أو يغضب من مُمانَعَةِ الآخر، بدأ -من قوِّره- يُمازِحه بعضَ الشَّيء، قائلاً:

- لكن ليس هناك سبب محدَّد لعدم وجود أحدٍ هناك هذا العام.

ثم أضاف بنبرةٍ اعترافها خُفوتٌ ملحوظ:

- ليس السبب الذي تقصده، على أيِّ حال! كانت الحرائق هي ما أَبْعَدَ الناس في العام الماضي، وأعتقد أن هذا العام... أعتقد أن هذا ما حدث، هذا كُلُّ ما في الأمر!

كان واضحًا من أسلوبه أنه يريد تشجيعه.

رفع "جوزيف ديفاجو" عينيه لِلْحَظَّةِ ثم أخفضهما مرَّةً أخرى. انسلَّت نسمَةٌ ريح من الغابة، وأثارت الجمرات في تَوْهُّجٍ عابر. لاحظَ الدكتور "كاثكارت" تعبيرَ وَجْهِ الدليل مرَّةً أخرى، ومرَّةً أخرى لم يعجبه. لكن هذه المرة وَشَّت طبيعة النظرة بنفسها. التقط -على الفور- في تلكما العينين، بَرِيقَ رَجُلٍ مذعورٍ للغاية، لقد أزعَجَه ذلك لدرجةٍ لا يستطيع أن يُجاَهِرَ بها. تساءَل وهو يضحك لِيُخَفِّفَ من وَقَعِ الأمور قليلاً:

- هل يوجد هنودٌ أشرار على الطريق؟

كان "سيمبسون" نَعْسَانًا لدرجة أنه لم ينتبه للمُزْحَةِ، ذهب إلى الفِراش وهو يتشاءب بشدَّة، أضاف كاثكارت عندما أصبح ابن أخيه أَبْعَدَ من أن يستطيع سماعه:

- أم... أم أن هناك أي شيء ليس على ما يُرام في المنطقة؟

قابل "هانك" نظرتَه بأقَلَّ من صراحته المعهودة، وأجاب بِمَرَحٍ:

- هو مذعورٌ فحسب، مذعورٌ للغاية من بعض الحكايات الخرافية القديمة! هذا كل ما في الأمر، أليس كذلك، أيُّها الرفيق العزيز؟

وركل "ديفاجو" بودً على قدمه الممدَّدة داخل الحذاء الجلدي بقرب النار.

- نظر "ديفاجو" لأعلى بسرعة، كأنها أفاق من حُلْم يَقْظَةُ، حلم، لم يمنع مع ذلك متابعتها لما دار من حوله. أجاب في حُمَيَّا التحدي:
- لستُ مذعورًا من شيء، ما من شيء في الأدغال بمقدوره أن يثير ذعر "چوزيف ديفاجو"، إِيَّاكَ أن تنسى ذلك!
- جعلت الحرارة الطبيعية، التي تحدّث بها، من المستحيل معرفة إذا ما كان قد قال الحقيقة الكاملة أو جزءًا منها فقط.
- التفت "هانك" صوبَ الدكتور. كان بصَدَدٍ أن يضيف شيئًا عندما توقّف فجأةً ونظر حوله. صوتٌ قريب في الظلام من خلفهم يجعلهم يَجْفَلُونَ ثلاثتهم. لقد كان "بانك" العجوز، الذي خرج من تحت عَرِيْشِهِ بينما يتحدثون ووقف مُنْصِتًا، في هذه اللحظة، خارج دائرة ضوء النّار مباشرة.
- همس "هانك" وهو يغمز بعينه:
- في وقتٍ آخر يا "دوك"!
- وأضاف:
- عندما لا تعود المقاعدُ الخلفيَّةُ مُفْضَلَةً على الأمامية!
- ثم انتفض واقفًا، وَصَفَعَ الهنديُّ على ظهره وصاح في صخبٍ:
- اقترِبْ من النار ودَفِّئْ جِلْدَكَ الأحمر القَدِرَ قليلًا.
- ثم جرّه صوبَ الشُّعْلَةِ وألقى إليها بالمزيد من الخشب، وقال:
- لقد قَدِّمَتْ إلينا طعامًا رائعًا قبل ساعة أو اثنتين.
- وواصل الكلام بحرارةٍ، كما لو كان يُؤَلِّي أفكارَ الرجل وجهةً أخرى:
- وليس من المسيحية في شيءٍ أن نترك رُوحَكَ العجوز تتجمّد هناك بينما نَنَعَمُ نحن بكلِّ الخير والدفء.

انتقل "هانك" ودَقًا قَدَمَيْهِ، وهو يتسم بفتورٍ لثَرَّة الآخر التي لم يفهم سوى نِصْفِها، لكنه لم يَقُل شيئًا. ما لبث الدكتور كاثكاركت، وقد رأى أن من المستحيل إجراء المزيد من المحادثات، أن حذا حذو ابن أخيه وانتقل إلى الخيمة، تاركًا الرجال الثلاثة يُدخّنون حول النار المتوهّجة في تلك اللحظة.

ليس من السَّهل على المرء أن يخلع ملابسه في خيمةٍ صغيرة من دون أن يوقِظَ رفيقه، و"كاثكاركت"، بما هو عليه من صلابَةٍ وتوقُّدٍ على الرغم من تَخَطُّيه الخمسين، فَعَلَ ما قد يَصْفه هانك بـ "توقير نهايةِ يَوْمِهِ" في الخلاء. لاحظ خلال العملية أن بانك رجع إلى عريشه في هذه الأثناء، وأن هانك وديفاجو قد عادا إلى التَّعامل مثل المطرقة والكَمَّاشة، أو بالأحرى، مثل المطرقة والسُّندان، والكندي الفرنسي الضئيل هو السُّندان. كان الموقف بِرُمَّتِهِ يشبه كثيرًا الصورة المسرحيَّة التقليدية لميلودراما الغرب: تضيء النارُ وجهَيْهما بِبُقَعٍ حمراء وسوداء على التَّنَاقُوب. يلعب ديفاجو، بِقَبَّعَتِهِ المائلة وحذائه الجِلديّ، دور الشرير في "أراضي الغرب المَقْفِرَة". وهانك، بوجهه الطَّلِق ورأسه العاري وهِزَّة كَتِفَيْهِ المستهينة، هو البطل النَّزيه المخدوع. وبانك العجوز، يتنصَّت في الخلفيَّة، مُضْفِيًا جَوًّا من الغموض. ابتسم الدكتور بينما كان يلاحظ التفاصيل، لكنه شعر في الوقت نفسه بشيء ما ينقبض قليلًا في أعماقه، بالكاد يعرف ما هو، كما لو أنَّه هَبَّةٌ تحذيرٌ كادت أن تكون غير محسوسةٍ، لَامَسَتْ سطحَ رُوحِهِ وذهبت مرَّةً أخرى قبل أن يتمكَّن من الإمساك بها. كان على الأرجح شيئًا ذا صِلَةٍ بذلك "التعبير المرَّوع" الذي رآه في عَيْنَي ديفاجو. "على الأرجح"... إذ بخلاف ذلك فقد أَفَلَتَ هذا الملمحُ من الانفعال العابر من تحليله الدقيق عادةً. كان واعيًّا على نحوٍ غامِضٍ أن ديفاجو قد يُسَبِّبُ متاعِبَ بطريقةٍ ما... لم يكن دليلًا موثوقًا كهانك، على سبيل المثال... ليس بوسعه الذهاب إلى أبعد من ذلك...

راقِبَ الرُّجَالَ لِبُرْهَةٍ مِنَ الزَّمَنِ قَبْلَ أَنْ يَغُوصَ فِي الْخِيَمَةِ سَيِّئَةَ
الْثَّهْوِيَّةِ، حَيْثُ كَانَ سِيَمْبَسُونُ يَغْطِي فِي نَوْمِهِ بِالْفِعْلِ. رَأَى هَانِكَ يَسْبُ
كَأَفْرِيقِي مُلْتَاثٍ فِي حَائَةِ زَنُوجٍ فِي نِيُويُورِك. لَكِنَّهُ كَانَ سَبَابَ "الْمُودَّةِ".
كَانَتْ الشَّتَائِمُ اللَّاذِعَةُ تَنْطَلِقُ بِحُرِّيَّةٍ؛ إِذْ أَنْ سَبَبَ كَبَتْهَا كَانَ نَائِمًا.
كَانَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ يَضَعُ ذِرَاعَهُ بِمَا يَشْبَهُ الْحَنَانَ عَلَى كَتِفِ رَفِيقِهِ،
وَتَحَرَّكَ مَعًا إِلَى دَاخِلِ الظَّلَالِ حَيْثُ انْتَصَبَتْ خِيَمَتُهُمَا تَوْمِضُ بَوَهْنٍ.
حَذَا بَانَكَ -أَيْضًا- حَذَوْهُمَا بَعْدَ لَحْظَةٍ، وَاخْتَفَى بَيْنَ أَحْرِمَتِهِ الْعَبْقَةَ
فِي الْاِتِّجَاهِ الْمَعَاكِسِ.

بَعْدَ ذَلِكَ انْتَقَلَ الدَّكْتُورُ كَاثَكَارْت، بِالْمِثْلِ، إِلَى الدَّخْلِ، وَبَقِيَ
الْإِرْهَاقُ وَالنُّومُ يَقَاوِمَانِ فَضُولًا مُبْهَمًا فِي ذَهْنِهِ لِمَعْرِفَةِ مَا الَّذِي قَدْ
أَثَارَ خَوْفَ دِيْفَاجُو فِي الْمُنْطَقَةِ الَّتِي عَلَى طَرِيقِ فَيْفَتِي آيْلَانْد وَوَتَر،
مُتَسَائِلًا كَذَلِكَ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي جَعَلَ وَجُودَ بَانَكَ يَحُولُ بَيْنَ هَانِكَ
وَبَيْنَ إِمْتَامٍ مَا أَرَادَ أَنْ يَقُولَ. ثَمَّ غَلَبَهُ النَّوْمُ. سَوْفَ يَعْرِفُ فِي الْعَدِ
سَيُخْبِرُهُ هَانِكَ بِالقِصَّةِ بَيْنَمَا يَجِدُّانِ فِي أَثَرِ الْآيَائِلِ الْمَرَاوِغَةِ.

هَبَطَ صَمْتُ عَمِيقٍ عَلَى الْمُخَيِّمِ الصَّغِيرِ، الْمُنْغَرَسِ بِجَرَأَةٍ شَدِيدَةٍ
بَيْنَ فِكِّي الْبَرِّيَّةِ. التَّمَعَّتِ الْبُحَيْرَةُ مِثْلَ لَوْحٍ مِنَ الزُّجَاجِ الْأَسْوَدِ تَحْتَ
النُّجُومِ. كَانَ الْهَوَاءُ الْبَارِدُ وَاخِرْزَا، وَالرَّوَائِحُ الْخَفِيفَةُ الْبَارِدَةُ لِلشَّتَاءِ الْمَقْبِلِ
تَكْمُنُ، بِالْفِعْلِ، فِي تَيَّارَاتِ اللَّيْلِ الَّتِي تَصُبُّ مَدَّهَا الصَّامِتَ الْقَادِمَ
مِنْ أَعْمَاقِ الْغَابَةِ، وَالْمَحْمَلُ بِرَسَائِلِ مِنَ التَّلَالِ الْبَعِيدَةِ وَالْبُحَيْرَاتِ
الَّتِي بَدَأَتْ تَتَجَمَّدُ لِتَوَّهَا. رُبَّمَا لَمْ يَكُنِ الرُّجَالُ الْبَيْضُ، بِحَاسَةِ شَمِّهِمْ
الضَّعِيفَةِ، لِيَحْدُسُوا بِهَا أَبَدًا. كَانَ مِنْ شَأْنِ رَائِحَةِ حَرَقِ الْأَخْشَابِ
أَنْ تُخْفِيَ عَنْهُمْ هَذِهِ الْإِشَارَاتِ شِبْهَ الْكَهْرِبَائِيَّةِ لِلطَّحَالِبِ وَاللِّهَاءِ
وَمُسْتَنْقَعِ يَنْشَطٍ عَلَى بُعْدِ مِائَةِ مِيلٍ. حَتَّى هَانِكَ وَدِيْفَاجُو، بِمَا هُمْ
عَلَيْهِ مِنْ تَوَاطُؤٍ سَرِيٍّ مَعَ رُوحِ الْغَابَةِ، كَانَا عَلَى الْأَرْجَحِ سَيُوسَّعَانِ
فَتْحَاتِ أَنْفَيْهِمَا الدَّقِيقَيْنِ مِنْ دُونِ جَدْوَى...

لكن بعد ساعةٍ، عندما نام الجميعُ كالموتى، انسلَّ بانك العجوز من بين أَحْرِمَتِهِ وانحدر صوبَ شاطئِ البحيرة صامتًا كالظِّلِّ، كما يستطيع دَوُو الدماءِ الهندية فقط أن يتحرَّكوا. رفع رأسه وتطلَّع حوله. قَلَّلَ الظلام الكثيف من نفع حاسَّةِ البصر، لكنه، مثل الحيوانات، كان يمتلك حواسَّ أخرى لا يستطيع الظلامُ أن يُعطِّلها. أصاخ السَّمْعَ ثم تَشَمَّم الهواء. وقف بلا حراكٍ مثل ساق نبات الشوكران. رفع رأسه ثانيةً، بعد خمس دقائق، وتشَمَّم الهواء، ومن ثَمَّ مَرَّةً أخرى. عندما ذاق الهواءَ القارص، سَرَى عبر جسمه تنميلٌ في أعصابه الهادئة، من دون أن تُفصح عنه أي علامات خارجية. دمج نفسه بعد ذلك في السَّوادِ المحيط بطريقةٍ لا يُدرِكُها سوى الرجال البرِّيِّين والحيوانات، استدار، مُسْتَمِرًّا في التحركِ كالظِّلِّ، وعاد خلسةً إلى عريشه وفِراشه.

وبعد فترة وجيزة من نومه، أثار تَغْيُرُ الريح -الذي حَدَسَ به- انعكاسَ النجوم على البحيرة برفقٍ. أتت من الاتجاه الذي كان يُحدِّق فيه، صاعدة بين التلال البعيدة في المنطقة وراء فيفتي آيلاند ووتر، ومَرَّت فوق المخيمِّ النائم مُتَخَلِّلَةً قِمَمَ الأشجار الكبيرة بِهَمْهَمَةٍ خافتة ومُتَنَهِّدَةٍ كادت أن تبلغ من الضَّعف درجةً لا تجعلها مسموعةً. مَرَّت معها في مسارات الليل الخاوية رائحة ضعيفة عجيبة، مثيرة للقلق بشكل غريب، لكنها كانت خفيفةً للغاية، ومرتفعة للغاية حتى بالنسبة إلى أعصاب الهندي المرهفة كالشُّعرة، رائحة شيء يبدو ليس مألوفًا، ومجهولًا تمامًا.

في هذا الوقت بالتحديد، تقلَّبَ كُلُّ من الكندي الفرنسي والرجل ذو الدِّماءِ الهندية في نومه بانزعاجٍ، مع ذلك لم يستيقظ أيُّ منهما. رحل شَبَحُ تلك الرائحة الغريبة على نحوٍ لا يُنسى، بعد ذلك، وضاع على البعد وسط تشابُكات الغابة الشَّاغرة.

II

في الصباح، كان المخيم مُستَيقِظًا قبل شروق الشمس. تساقطت الثلوج بشكل خفيفٍ أثناء الليل، وكان الهواء قارسًا. قام بانك بواجبه في وقتٍ مُبكرٍ؛ إذ وصلت روائح القهوة ولحم الخنزير المحمّر إلى كُلِّ خِيْمَةٍ. كانوا يتمتّعون جميعًا بمعنويّاتٍ مُرتفعة.

صاح هانك بقوة، وهو يراقب سيمبسون ودليله يحملون القارب الصغير بالفعل:

- لقد تحوّلت الريح! أصبحت بعرض البُحيرة، تُناسِبكم تمامًا أيُّها الرفاق. والثلج سيصنّع مَساراتٍ رائِعةً! إذا كان هناك أيُّ أيّائلٍ تتسكّع، فليس لديها فرصة كبيرة لتشتُم رائِحةَ مؤخّراتكم مع بقاء الريح على حالها.

وأضاف بهرج، مانحًا الاسم -لمرّة- نُطقه الفرنسي:

- حظّ سعيد يا مسيو ديفاجو.

ردّ ديفاجو التمنيّات الطيبة، كان في أفضل معنويات كما هو واضح، وقد ذهب عنه المزاج الصامت. قبل الساعة الثامنة كان المخيم قد أصبح خاليًا لبانك العجوز، كان كاثكارت وهانك يتقدّمان على الطريق المؤدّي غربًا، بينما القارب الذي يحمل ديفاجو وسيمبسون، مع الخيمة الحريية وطعام ليومين، أصبح بالفعل بقعة سوداء تتمايل في قلب البحيرة ماضيّة في اتجاه الشرق.

خَفَّت حِدَّةُ الهواءِ الشتوية حينئذ بتأثير من الشمس التي اعتلت التلال المشجرة وتوهّجت بدفء مُترَفٍّ فوق عالمِ البحيرة والغابة في الأسفل، انطلقت طيورُ الغاق تحفُّ الماء عبر الرذاذ اللامع الذي حملته الريح، نَفَضَت الطيور الغواصة رؤوسها التي تقطُر، في الشمس، وانطلقت بأناقةٍ خارجة من المشهد مرّةً أخرى. وعلى مدى البصر انتصبت تشابكات الدغل اللانهائي المحتشد، المهجور بامتداده وعظّمته المنعزّلين، لم تَطَأه قَدَمٌ بشريّ، يمدُّ بساطه الهائل غير المنقطع حتى شواطئ خليج هدسون المتجمّدة.

كان سيمبسون يرى ذلك كلّهُ للمرّة الأولى، بينما يُجَدِّف بقوة في مُقدّمة القارب المتراقص، وكان مفتونًا بجماله الصّارم. تَشَرَّبَ قلبه حسّ الحرية والفضاءات الشاسعة، تمامًا كما تَشَرَّبَت رئتاه الريح الباردة المعطّرة. ورائه في المقعد الخلفي، كان ديفاجو يوجّه القارب المصنوع من خشب البتولا وكأنه شيء حيّ، وهو يغني مقاطع من ترنيمة المحلية، ويجب ببساطة عن جميع أسئلة مُرافقه. كان كلاهما قَرِحًا وخَلِيّ البال. فالرجال يفقدون، في مثل هذه المناسبات، الفروق السطحية والذنيويّة. يصبحون بشرًا يعملون معًا لغاية مُشتركة. كان سيمبسون ربّ العَمَل، وديفاجو المستخدم مجردَ رَجُلَيْن، وسط هذه القوى البدائية، "الدليل والمستدِلّ به". تولّت المعرفة المتفوّقة القيادة، بالطبع، وحلّ الشاب في موقع شبه المرؤوس من دون أن يفكّر مرّتين. لم يخطر له قَطُّ أن يعترض عندما أسقط ديفاجو لقب "السيد" وخاطبَه

مُسْتَخْدِمًا "قُلْ لي يا سمبسون"، أو "يا ريس سيمبسون"، هكذا كان الحال طوال الوقت قبل أن يَصِلَا إلى الشاطئ الأبعد بعد اثني عشر ميلًا من التجديف الشَّاقُّ في مواجهة الريح المناوئة. لم يَزِدْ أن ضحك، وأعجبه الأمر، ثم توقَّف تمامًا عن مُلاحَظَتِهِ.

هذا لأن "طالب اللاهوت" كان شابًا ذا مواهب وشخصية، مع أنه، بالطبع، لم يكن قد ارتحل كثيرًا حتى تلك اللحظة، ولأن المقياس الضخم للأشياء حَيَّرَه في هذه الرحلة، التي رأى فيها للمرَّة الأولى بلدًا بخلاف بلده وسويسرا الصغيرة. أدرك أن السَّمْع عن الغابات البدائية شيء، ورؤيتها شيء آخر تمامًا. في حين أن الإقامة فيها والسعي إلى التَّعرُّف على حياتها البرِّيَّة، كانا أيضًا، معرفة ليس بوسع إنسان واعٍ أن يطلِّع عليها من دون تغييرٍ مُؤكَّدٍ في قِيَمِهِ الشخصية التي كانت، حتى ذلك الحين، ثابتة ومُقدَّسة.

عرف سيمبسون أوَّل إشارة خافتة لهذا الشعور عندما حمل في يده البندقية 303 الجديدة، وتطلَّع إلى ماسورتيَّها اللامعتين المتقنَّتين. كانت رحلة الثلاثة أيام إلى مَقَرِّهم، عن طريق البحيرة والبرِّ، قد ذهبت به إلى مرحلة أبعد. وكان عند تلك اللحظة على وشك التوغُّل فيما هو أبعد حتى من حافَّة البرِّيَّة حيث خيَّموا في القلب البكر لمناطق غير مأهولةٍ مُماثلٍ في اتِّساعها وأوروبا نفسها، كان لحقيقة الموقف التي زحفت عليه وقعٌ من السُّرور والدهشة، حتى أن خياله كان قادرًا على تقدير الموقف بشكل تامٍّ. كان هو وديفاجو في مواجهةٍ حَشدٍ... على الأقل، في مواجهة أحد الجبابرة.

غمرته الرُّوعة الموحِّشة، لهذه الغابات النائية المنعزلة، بالإحساس بضالته، إلى حدٍّ ما. لا يمكن لتلك الطبيعة الصارمة للغابات الخلفية المتشابكة أن توصف إلا بكونها قاسيةً وفظيعة، خرجت من هذه الغابات البعيدة الزرقاء السابحة فوق الأفق، وكشَّفت عن نفسها.

فَهُمَ التحذيرَ الصامت. أدرك عَجَزَه المطلق. وقف ديفاجو وحده، كرمزٍ للحضارة البعيدة حيث كان الإنسان هو السيد، ليحولَ بينه وبين الموت بلا شَفَقَةٍ من جرّاء الإرهاق والجوع.

لذلك، كان أمرًا شَيِّقًا بالنسبة إليه أن يشاهد ديفاجو وهو يقلب القارب على الشاطئ، ويرضُ المجدافين تحته بعناية، ثم شرع يصنع علاماتٍ على جذوع أشجار التُّنُوب لمسافةٍ مُعَيَّنة على جانبي دربٍ غير مرئي تقريبًا، مُلقِيًا بملاحظة لا مُبالِيَةٍ:

- انتبه يا سيمبسون، إذا ما أصابني مكروه، ستصل إلى القارب باتباع هذه العلامات، ثم امض غربًا مع الشمس لتصل إلى مقرِّ المخيم مرّةً أخرى، أتفهم؟

كان أكثر قولٍ طبيعي في العالم، وقاله من دون أي تَغَيُّرٍ في صوته، لكن تصادف أنه كشف عن انفعالات الشاب تجاه مقولَةٍ لَخَصَتْ الموقف وعجزه كطرف فيه. كان بمفرده مع ديفاجو في عالمٍ بدائيٍّ، هذه كانت خلاصة الأمر. من المفترض في تلك اللحظة أن يخلّفوا القارب وراءهم، وهو رمزٌ آخر لسيطرة الإنسان. كانت تلك البُقْع الصفراء الصغيرة، التي أحدثها الفأس على الأشجار، هي المؤشّر الوحيد على المكان المخبأ فيه.

في تلك الأثناء، كان كل رَجُلٍ يحمل بندقيته، ويتشاركون في حمل الأمتعة على أكتافهم، مُتَّبِعِينَ الدرب النحيل فوق الصخور وجذوع الأشجار المتساقطة وعبر المستنقع شبه المتجمّد، مُلتَفِّين حول العديد من البحيرات التي تُرْصَع الغابة إلى حَدٍّ ما، وقد حَفَّ الضبابُ بأطرافها. ووجدوا أنفسهم فجأة على حافة الغابة، يتطلّعون عبر رُقْعَةٍ كبيرة من الماء أمامهم، تتخلّلها جُزُرٌ مُغطّاةٌ بأشجار الصنوبر من جميع الأشكال والأحجام التي يمكن وَصْفُها.

أعلن ديفاجو بَصَجَر:

- فيفتي أيلاند ووتر.

وأضاف بشاعريّة لا واعيّة:

- والشمس سَتُغَطِّسُ رَأْسَهَا العَجُوزَ الأَصْلَعُ فيها!

وَشَرَعُوا عَلَى الفور فِي نَصَبِ المَخِيْمِ لِلَّيْلِ.

في غضون دقائق قليلة، انتصبت الخيمة الحربية مُحَكَّمَةً ومُريحَةً، تحت تلك الأيدي الماهرة التي لم تأتِ قَطُّ بحركة زائدة أو ناقصة، بَسِطَ الفِرَاشان المصنوعان من أغصان البَلَسَم، وتأجَّجت نار الطهي النَّشِيطَةُ بأقلِّ قَدْرٍ من الدُّخَان. بينما كان الاسكتلندي الشاب يُنظِّف السمكة التي صادوها بالجَرِّ خلف القارب، رأى ديفاجو أنه ربما كان من الأفضل أن يبدأ من قَوْرِهِ بأخذ جَوْلَةٍ في الدغل بحثًا عن مؤشِّراتٍ على وجود الأيائل. قال وهو يَشْرَعُ في المغادرة:

- ربما تأتي من جِذَعٍ حيث تواجَدَت وقامت بِحَكِّ قرونها، أو كانت تتغذَّى على آخر أوراق القَيْقَب.

ثم ذهب.

تلاشت هيئته الصغيرة مثل الظِّلِّ في العَتَمَةِ. بينما لاحظ سيمبسون -بنوعٍ من الإعجاب- كيف امتصَّته الغابَةُ داخلَها بسهولة. ما هي إلَّا خطواتٍ قليلة، على ما بدا، ولم يَعدْ مرئيًّا.

على الرغم من وجود القليل من الشجيرات التي تنمو تحتها، إلَّا أن الأشجار انتصبت مُنفَصِلَةً نوعًا ما، ومُتَبَاعِدَةً على نحوٍ جيّد، ومَتَّ أشجار البتولا والقَيْقَب الفِضِّيَّة في الأراضي المجتَنَّة أشجارها، ممشوْقَةً كالرِّمَاح، في مواجهة السيقان الهائِلَةِ لأشجار التَّنُّوب والشوكران. لكن بالنسبة إلى الوحوش الرابضة المتفرِّقة، وجمليد الصَّخر الرمادي التي دَفَعَتْ بِأكتافها الخَشِنَةَ خارج الأرض هنا وهناك، من المرَجَّح

أنها كانت نوعاً من المتنزهات في وطن السُّكَّان الأصليين. قد يرى المرء أثر يد الإنسان فيها بالكاد. مع ذلك، يبدأ على اليمين قليلاً القسم الكبير المحترق، الممتدُّ لأميالٍ، مُعلِّناً عن شخصيته "المتفحمة" الحقيقية، كما يُطلق عليها، حيث اندلعت حرائق العام السابق على مدى أسابيع، وبَدَتِ الجذوعُ السوداء في تلك اللحظة هزيلةً وقبيحةً، مُجرَّدةً من الغصون، مثل رؤوس أعواد ثقابٍ عملاقةٍ مُثَبَّتة في الأرض، ضارِية ومُوحِشة بما يفوق الوصف. ظلَّت رائحة الفحم والرماد المبلَّل بالمطر عالِقةً حولها بشكلٍ ضعيف.

سرعان ما ازدادت العتمة، وأصبحت فُرجات الغابة مُظلمةً، وكانت طَقْطَقَةُ النار وتلاطم الأمواج الصغيرة، على طول شاطئ البَحيرة الصَّخريِّ، هي الأصوات الوحيدة التي يمكن سَماعُها. هبَّتِ الرياح مع الشمس، لم يَكُن شيء يتحرَّك في عالم الأغصان الفسيح ذاك. بدا أن آلهة الغابة، التي تُعَبَّد في صمٍ وعُزلةٍ، سوف تبسط معاملها الجبَّارة الرائعة بين الأشجار في أي لحظة. في الأمام، ومن خلال مَدَاخِل ذات أعمدةٍ من سيقان الأشجار المستقيمة الضخمة، امتدَّت "فيفتي أيلاند ووتر"، بحيرة هلالية الشكل يبلغ طولها حوالي خمسة عشر ميلاً من الطرف للطرف، وربما خمسة أميال عبوراً إلى حيث خيَّموا. كانت السماء ذات لَوْنِي الوَرْدِ والزَّعفران، والأكثر صفاءً من أيِّ جَوٍّ آخر قد عرفه سيمبسون، لا تزال تُسَقِطُ نيرانها الباهتة المتدفقة عبر الأمواج، حيث طَفَّت الجُزُر -المائة، بالتأكيد، أكثر منها خمسين- مثل سُفُنٍ خياليَّة في أحد الأساطيل المسحورة. مُحاطة بأشجار الصنوبر التي كانت قِمَمُها تلامِسُ السماء بأقصى رِقَّة، بَدَت وكأنها تكاد تتحرَّك لأعلى مع تلاشي الضوء. كانت على وشك أن ترفع المرساة وتبحر في مسارات السَّماء بدلاً من تيارات بُحَيْرَتِها المحليَّة المقفِّرة.

ومَّا وَجَت شرائطُ من السُّحُب الملونة كالرايات، مُؤذنةً برحيلها إلى النجوم...

كان جمال المشهد باعثًا على الانسراح بشكلٍ غريبٍ.

شيّط سيمبسون السّمكة، وأحرق أصابعه، أيضًا، أثناء محاولاته للاستمتاع بها مع الانتباه للمقلاة والنار في الوقت نفسه. مع ذلك، بقي هذا الوجه الآخر للبرّيّة قابِعًا في مُؤخّرة رأسه طيلة الوقت، إلا بمبالاة بالحياة البشرية، وروح العُزلة عديمة الرحمة التي لم تكثرث بالإنسان. داهمه الشعور بوحده المطلقة -حتى ديفاجو قد رحل- بينما كان يتلقّف من حوله ويُنصّت في ترقّبٍ لسماع وقع خطوات صاحبه عند عودته.

كانت هناك لَذّة في هذا الشعور، لكن كان معها نذيرٌ مفهوم تمامًا. وانبعثت في داخله الفِكرة بشكلٍ غريزيٍّ: ماذا ينبغي عليّ؟ ماذا بوسعي أن أفعل إذا ما حدث أي شيء، ولم يعد؟

استمتعا بعشائهما المستحقّ، مُلتهمين كمّيّاتٍ لا حصر لها من الأسماك، شاربين شايًا من دون حليب كان قويًا بما يكفي لقتل رجالًا لم يقطعوا ثلاثين ميلًا من الارتحال الشاقّ، وتناولوا القليل من الطعام على الطريق. وعندما فرّغا من عشائهما، دَخْنَا وَحَكَيَا القصص حول النار المتوهّجة، وهما يضحكان ويمدّان أطرافهما المنهكة ويناقشان خُطَط الغد. كان ديفاجو في حالة معنويّة ممتازة، وإن كان أمّله قد خاب لعدم حصوله على علاماتٍ عن وجود الأيائل يستطيع أن يُخبر بها. لكنها كانت قد أظلمّت ولم يذهب بعيدًا. كما أن القسم "المتفحّم" كان سيّئًا. تلطّخت ملابسه ويديه بالفحم. كان سيمبسون، وهو يُراقبه، يدرك بوضوح مُتجدّدٍ وَضَعَهُما وهما مُنفردَيْن معًا في البرّيّة. ما لبث أن قال:

- ديفاجو، هذه الغابة، أنت تعرف، كبيرة نوعًا ما لدرجة لا تجعلك تشعر فيها بأنك في بيتك، أقصد أن تشعر فيها بالراحة!... أليس كذلك؟

لم يَعُدْ أَنْ عَبَّرَ عَنْ طَبِيعَةِ اللَّحْظَةِ، كَانَ بِالْكَادِ مُتَاهِبًا لِلْجِدِّيَّةِ، أَوْ حَتَّى الْوَقَارِ الَّذِي أَخَذَهُ بِهِ الدَّلِيلُ.

أَجَابَ مُثَبِّتًا عَيْنَيْهِ الْبُنْيَتَيْنِ الثَّاقِبَتَيْنِ عَلَى وَجْهِهِ:

- لَقَدْ أَصَبْتَ، أَيُّهَا الرَّئِيسُ سِيمْبَسُون، وَتِلْكَ هِيَ الْحَقِيقَةُ، بِالتَّأَكِيدِ. إِنَّهَا بِلَا نِهَايَةٍ، لَا نِهَايَةَ لَهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ.

ثُمَّ أَضَافَ بِنَبْرَةٍ مُنْخَفِضَةٍ كَمَا لَوْ كَانَ يَحْدُثُ نَفْسَهُ:

- كَثِيرُونَ اكْتَشَفُوا ذَلِكَ، وَانْهَارُوا مُبَاشَرَةً!

لَكِنْ طَرِيقَةُ الرَّجُلِ الْجِدِّيَّةِ لَمْ تَلَقَ قَبُولًا تَامًّا عِنْدَ الْآخَرِ؛ كَانَتْ تُثِيرُ كَثِيرًا مِنَ الْإِيْحَاءَاتِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذَا الْمَشْهَدِ وَهَذَا الْوَضْعِ، شَعَرَ بِالْأَسْفِ لِأَنَّهُ تَطَرَّقَ إِلَى الْمَوْضُوعِ. تَذَكَّرَ فَجَاءَةً كَيْفَ قَدْ أَخْبَرَهُ عَمُّهُ أَنَّ الرِّجَالَ يُصَابُونَ أحيانًا بِحُمَّى الْبَرِّيَّةِ الْغَرِيبَةِ، عِنْدَمَا يُمَسِّكُ بِهِمْ إِغْوَاءُ الْقِفَارِ الْمَهْجُورَةِ بِشِدَّةٍ، لِدَرْجَةٍ تَجْعَلُهُمْ يَمْضُونَ إِلَى حَتْفِهِمْ قُدُمًا نِصْفَ مَسْحُورِينَ وَنِصْفَ مُضَلَّلِينَ. وَقَدْ سَاوَرَتْهُ فِكْرَةٌ مُتَبَصِّرَةٌ أَنَّ رَفِيقَهُ يَحْمِلُ شَيْئًا مُتَوَافِقًا مَعَ هَذَا النَّمْطِ الْمَهْوُوسِ. أَمْسَكَ بِزِمَامِ الْمَحَادَثَةِ مُتَوَجِّهًا بِهَا صَوْبَ مَوْضُوعَاتٍ أُخْرَى، صَوَّبَ هَانِكَ وَالْدَكْتُورَ، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، وَالتَّنَافُسِ الطَّبِيعِيِّ حَوْلَ مَنْ سَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَلْمَحُ الْإِيَانِلَ.

عَلَّقَ دِيْفَاغُو بَعْدَ اكْتِرَاثٍ:

- إِذَا ذَهَبَا إِلَى الْغَرْبِ، فَالْمَسَافَةُ الَّتِي تَفْصِلُهُمَا عَنَّا الْآنَ هِيَ سِتُونَ مِيلًا، وَبَانَكَ الْعَجُوزُ فِي الْبَيْتِ عِنْدَ مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ يَأْكُلُ مِلْءَ بَطْنِهِ حَتَّى يَنْفَجِرَ بِالسَّمَكِ وَالْقَهْوَةِ.

ضَحِكَ مِنَ الصُّورَةِ مَعًا. لَكِنْ ذِكْرُ تِلْكَ الْأَمْيَالِ السِّتِينَ بِشَكْلِ عَرَضِيٍّ جَعَلَ سِيمْبَسُونِ يَنْتَبِهَ مَرَّةً أُخْرَى لِلْمَقْيَاسِ الْهَائِلِ لِلْأَرْضِ الَّتِي نَزَلُوا بِهَا، كَانَتْ السِّتُونَ مِيلًا مَجْرَدَ خُطْوَةٍ، وَالْمِائَتَانِ أَكْثَرَ قَلِيلًا مِنْ خُطْوَةٍ. بَزَعَتْ قِصَصَ الصَّيَّادِينَ الْمَفْقُودِينَ بِإِصْرَارٍ فِي ذَاكِرَتِهِ. كَانَ الشَّغَفُ

والغموض المحيط برجالٍ تائهين بلا مأوى، أغوتهم الغاباتُ العظيمةُ
بجمالِها، قد اجتاحت روحه بطريقة أقوى من أن تكون مُمتعةً. تساءل
بشكلٍ غامضٍ إذا ما كان مزاجُ صاحبه هو الذي استدعى الإحياءات
غير المرغوب فيها بمثل هذا الإصرار.

قال له:

- عَنْ لَنَا أَغْنِيَةَ، يَا ديفاجو، إن لم تكن مُتعبًا كثيرًا، واحدة من
أغاني الرِّحال القديمة، تلك، التي غَنَيْتَها في الليلة الماضية.

ناولَ كيسَ تَبَغِه للدليل، ثم ملأ غليونَه، بينما أرسل الكنديُّ
صَوْتَه الخفيض عبر البحيرة، من دون أي مُمانعة، في واحدة من تلك
الأغنيات الشَّجِيَّة شبه الحزينة التي يُخَفِّف بها الحطَّابون وصيَّادو
الفخاخ من عِباء عَمَلِهِمْ. كانت لها نكهةٌ جذابة ورومانسية، شيء
يُذَكِّرُ بأيام الرُّوَّاد القدامى، عندما كان الهنود والبرية مُتَكَاتِفِينَ معًا،
تَتَوَاتَرُ المعارك، والبلد القديم أَبْعَدُ ممَّا هو عليه اليوم. ارتحل الصوت
بَلُطْفٍ فوق الماء، لكن يبدو أن الغابة، خلف ظهورهم، ابتلعتَه في
جَرَعَةٍ واحدة لم تسمح بالرَّنين ولا رَجْع الصَّدى.

كانت الأغنية في منتصف البيت الثالث عندما لاحظ سيمبسون
شيئًا غير مُعتادٍ، شيئًا جعله يندفع مرتدًّا بأفكاره عن المشاهد
البعيدة. كان تَغْيُرٌ عجيبٌ قد طَرَأَ على صوت الرجل، مَمْلُكَةً الانزعاجُ،
حتى قبل أن يعرف ماذا هناك، ورفع نظره مُسرِّعًا، ليجد ديفاجو
مُستمرًّا في الغناء، إلَّا أنه يُحَدِّقُ في الدَّغْل من حوله، كما لو كان قد
سمع أو رأى شيئًا. أصبح صَوْتُه أَكْثَرَ خَفَوْتًا، انخفض إلى السكون، ثم
تَوَقَّفَ كُلِّيًّا. نهض، على الفور، مُنْتَصِبًا على قدمَيْه، بحركة رشيقة على
نحو مُذهِل، واستقام واقفًا يتشَمَّم الهواء. سَحَبَ الهواءَ إلى فَتَحَتَيْ
أنفه في شهقاتٍ قصيرة وحادة، مثل كلبٍ يتشَمَّم الطريدة، بينما يفعل
ذلك، كان يتلَفَّت بسرعة في كل الاتجاهات، وأخيرًا أشار صوبَ شاطئ

البحيرة، باتجاه الشرق. كان أداءً مُوحياً على نحو مُنقَرٍ، وفي الوقت نفسه، درامياً بصورة مُتفرّدة. ارتجف قلبُ سيمبسون بشكل سيئ عندما شاهدَه. انتصب في التَّو على قَدَمَيْهِ إلى جانبه، وراح يُحدِّق من فوق كتفه في بحر الظُّلْمة، وهتف به قائلاً:

- يا إلهي، لقد جعلتني أقفزُ يا رجل! ماذا هناك؟ هل أنت خائف؟

عرف أنه كان سؤالاً أحمق، حتى قبل أن يخرج من فمه؛ إذ أن أيَّ رَجُلٍ له عينان في رأسه يستطيع أن يرى أن الكَنديَّ قد ابيضَّ لونه من رأسه حتى أخمسه. حتى أن حروق الشمس ووَهَج النار ليس بوسعها أن تخفي ذلك.

شعر الطَّالِبُ أنه يرتجف قليلاً، وأحسَّ بضعفٍ في رُكْبَتَيْهِ. كرَّر السؤال مُسرَّعاً:

مكتبة

t.me/t_pdf

- ماذا هناك؟

ثم واصلَ خافِضاً صوته بشكلٍ غَرِيزيٍّ:

- هل تَشُمُّ رائحة الأيائل؟ أم أن هناك شيءٌ غريب، أو أي شيء ليس على ما يرام؟

احتشَدَت الغابة من حولهما بجدارها المطوَّق. التَّمَعَّت جذوعُ الأشجار القريبة في ضوء النار مثل البرونز. كان ما وراء ذلك سواداً وصَمَت القبور، بقدر ما يستطيع أن يرى. خلفهم مباشرةً، رفعت هَبَّةُ ريحٍ عابرةً ورقةً شَجَرٍ واحدة، تأملَتها، ثم وضعتها مرَّةً أخرى بنعومةٍ من دون أن تُزعِجَ بقيَّة الأوراق. بدا كما لو أن مليون عِلَّةٍ غير مرئيةٍ قد اجتمعت فقط لِتُنْتِجَ هذا التأثير المَرِئِيَّ وحده. نبَضَت حياةٌ أخرى على مُقَرَّبَةٍ منهما... وذهَبَت. استدار ديفاجو فجأة، وقد تحوَّل لون وجهه المشرق إلى لونٍ رماديٍّ عكر. وتكلَّم ببطء وبتشديد على

الحروف، بصوتٍ فيه اختلاف غريب يَحْمِلُ -بطريقةٍ ما- لمسةً من التَّحْدِي.

- لم أَقُلْ قَطُّ إنني سمعت أو شَمَمْتُ شيئاً، كنت فقط "ألقي نظرةً من حولي" إذا جاز التعبير. إن تَسْرُعَكَ في إلقاء الأسئلة هو أمر خاطئ على الدوام.

ثم أضاف فجأةً بصوتٍ بَدَلَ جهدًا واضحًا ليُجعله أقربَ إلى صوته الطبيعي:

- هل أعوادُ التُّقَابِ معَكَ أيُّها الرئيس سيمبسون؟

وشرع في إشعال الغليون الذي كان قد مَلَأَه حتى المنتصف قبل أن يبدأ في الغناء.

جَلَسَا بجوار النار ثانيةً من دون أن يتفوَّها بكلمة. غيَّر ديفاجو الجَانِبَ الذي يجلس فيه حتى يتمكَّن من استقبال اتجاه الريح. بوسع أيِّ مبتدئٍ أن يلاحظ ذلك. بَدَل ديفاجو مَوْقِعَهُ بغرض أن يسمع وَيَشُمَّ، كل ما يمكن سماعه وشَمُّه. وبما أنه كان في تلك اللحظة يواجه البحيرة مُوَلِّيًا ظَهْرَه للأشجار فمن الواضح أن ليس هناك شيئاً في الغابة قد وَجَّه تحذيراً غريباً ومفاجئاً بهذا الشكل إلى أعصابه المدرَّبة بصورةٍ رائعة. قال:

- أعتقد أنني لم تَعُدْ بي أيُّ رغبة في الغناء الآن.

ثم فَسَّر في الحال من تلقاء نفسه:

- تلك الأغنية تعيد إليَّ ذكريات مُزَعِجَةً، لم يكن ينبغي عليَّ أبداً أن أُغَنِّيها. إنها تجعلني مُهيَّأً لتخيُّل أشياء، أتفهم؟

كان من الواضح أن الرجل لا يزال يناضل انفعالاتٍ مُؤثِّرةً بشكل عميق. كان يأمل أن يُوجِدَ لنفسه عُذْرًا أمام الآخر. لكن لأن التَّفْسِير على هذا النحو كان مُجرَّد جُزءٍ من الحقيقة، فإنه كذبة، وكان يعلم

تمامَ العلم أن سيمبسون لن ينخدع بها. إذ لا يمكن لشيء أن يُفسّر الرُعبَ الشاحب الذي كسا وجهه بينما كان يقف هناك يتشمّم الهواء. ليس بوسع أي شيء، ولا أي قَدْرٍ من النار المتأجّجة، أو الدردشة حول مواضيع عادية، أن تجعل ذلك المخيّم يعود كما كان من قبل تمامًا. كان ظلُّ الرُعب المجهول -الواضح، وإن لم يكن مُتوقِّعًا- الذي وَمَضَ لِلْحَظَةِ على وجه الدليل وإيماءاته، قد انتقل أيضًا إلى صاحبه بشكلٍ غامض، وبالتالي، على نحوٍ أكثرَ فعاليةً. كانت جهود الدليل الواضحة لإخفاء الحقيقة قد فاقمت الوضع سوءًا، علاوة على ذلك، ازداد عدم ارتياح الشاب بسبب الصعوبة، بل الاستحالة، التي وجدها في طرح الأسئلة، وكذلك جَهْلُهُ التَّامُّ فيما يَخُصُّ السبب... الهنود، الحيوانات المتوحّشة، حرائق الغابات، كان يعلم أن كلّ هذه لم تكن احتمالاتٍ واردةً بالكُلِّيَّة. بَحَثَ خياله كثيرًا، لكن من دون جدوى...

مع ذلك، بدأ الظِّلُّ الذي قد غزا مُخيّمهم الهادئ، فجأةً، ينزاح بطريقةٍ أو أخرى، بعد نَوْبَةٍ أُخْرَى طويلة من التّدخين والحديث وشيٍّ أنفُسهم أمام النار الشديدة. ربما يكون ذلك قد تحقّق بفضل جهود ديفاجو، أو عودة هدوئه وسُلوكة الطبيعي. وربما يكون سيمبسون نفسه قد بالغَ في الأمر بشكلٍ لا يتناسبُ مع الحقيقة. أو لعلَّ هواء البرِّيَّة القوي قد جَلَبَ قُدراته الخاصّة على المعافاة. أيّا كان السبب، بدا أن شعور الرُعب المباشر قد زال كما جاء، بشكلٍ غامض؛ لأن شيئًا لم يحدث ليُعْذِّبه. بدأ سيمبسون يشعر أنه سمح لنفسه برُعب الأطفال غير المبرّر. أرجع ذلك، بشكلٍ جُزئيٍّ، إلى نوع من الإثارة اللاواعية التي أثارها هذا المشهدُ البرِّيُّ الهائل في دَمِهِ، وبالمثل إلى فترة الوحدة، وكذلك إلى التَّعب الزائد. كان شحوبُ وجه الدَّلِيلِ عَصِيًّا على التفسير، بالطبع، وقد يكون مع ذلك راجعًا بطريقةٍ ما إلى تأثير ضوء النار، أو خياله هو نفسه... منح الأمر ميزة الشك؛ فقد كان اسكتلنديًا.

عندما تختفي انفعالات غير معتادة نوعًا ما، دائمًا ما يجد العقل
عشرات الطرق لتفسير بواعثها... أشعل سيمبسون غليوًا أخيرًا وحاول
أن يضحك بينه وبين نفسه. عند العودة إلى اسكتلندا سيكون لديه
قصة جيّدة للغاية. لم يدرك أن هذه الضحكة كانت علامة على أن
الرعب بقي كامنًا في أغوار رُوحه، كانت مجردّ واجدةٍ من العلامات
التقليدية التي يحاول المرء -المروّع بشدة- أن يُقنِع نفسه من خلالها
بأنه ليس كذلك.

غير أن ديفاجو سمع تلك الضحكة الخافتة، وتطلّع إليه وقد
ارتسمت الدهشة على وجهه. وقف الرجلان -جنبًا إلى جنبٍ- يركلان
الجمر قبل أن يأويا إلى فراشهما. كانت الساعة العاشرة، وهو وقتٌ
متأخر لأن يبقى فيه الصيادون مُستيقظين.

سأل ديفاجو بنبرته العادية لكن بجديّة:

- ما الذي يُدغدغُك؟

تلعثم سيمبسون، مُرتدًا إلى الأفكار التي سيطرت على عقله، وقد
أخذ بالسؤال:

- لقد... لقد كُنْتُ، في تلك اللحظة بالضبط، أفكر في غاباتنا

الصغيرة في الوطن التي تُشبه اللعب، وأقارنُها بـ... بكلّ هذا.

ولوّح بذراعه مُشيرًا إلى الدغل.

تلا ذلك فترة صمتٍ لم يقل فيها أيّ منهما شيئًا.

تطلّع ديفاجو من فوق كتف سيمبسون إلى الظلال قائلاً:

- هذا لا يُغيّر شيئًا، ما كُنْتُ لأضحك من الأمر، لو كُنْتُ مكانك.

توجد أماكن هناك لن يستطيع إنسان أن يرى ما فيها أبدًا،

ولا يعرف أحدٌ ما الذي يعيش بداخلها.

- كبيرة للغاية... سحيقة للغاية؟

كان أسلوب الدليل يوحي بشيء هائل ومُرَوَّع.

أوماً ديفاجو برأسه، اتَّخَذَ وجهه تعبيراً قائماً، كان يشعرُ بعدم الارتياح هو الآخر. أدرك الشاب أنه -في منطقة نائية بهذا الاتساع- قد توجد أعماقٌ من الغابات لن تُعرَفَ أو تَطَّأها قَدَمٌ أبداً خلال حياة العالم. لم تَكُنْ الفكرة بالضبط من النوع المحبَّب له، أعلن بصوتٍ عالٍ مُبْتَهَج أن وقتَ النوم قد حان. لكنَّ الدَّليل ظلَّ يعبث بالنار، ويُرْتَب الحجارة بلا داعٍ، قائماً بعشرات الأشياء التي لم تَكُنْ هناك حاجة حقيقية للقيام بها. كان من الواضح أنه يريد أن يقول شيئاً، لكنه يَجِدُ صعوبةً في التعبير عنه. بدأ فجأةً عندما تصاعَدَت آخِرُ زَخَّةٍ من الشرر في الهواء:

- قُلْ لي أيُّها الرئيس سيمبسون، أنتَ لم تَشُمَّ شيئاً، هل شَمَمْتَ... أقصد شيئاً استثنائياً؟

أدرك سيمبسون أن السؤال العادي يُخفي فكرةً رهيبَةً في عَقْلِهِ، سَرَتْ قُشْعِرِيرَةً في ظَهْرِهِ.

أجاب بحَزْمٍ، رَاكِلاً الجمرَ مرَّةً أخرى. جعله صَوْتُ قَدَمِهِ يقول:

- لا شيء سوى رائحةِ الخشب المحترق.

استمرَّ الدليل، مُحدِّقاً فيه من خلال العَتَمَةِ:

- وطوال المساء لم تَشُمَّ شيئاً؟ شيئاً غير عادي، ومختلفاً عن أي شيء شَمَمْتَه من قبل؟

ردَّ بِعُنفٍ، شبه غاضِبٍ:

- لا، لا يا رجل، لا شيء على الإطلاق!

صفا وَجْهَ ديفاجو، وهتف بارتياحٍ واضحٍ:

- هذا جيّد! من الجيّد سماع ذلك!

سأل سيمبسون بِجِدَّة:

- هل شَمَمْتَ أَنْتَ؟

وسرعان ما شعر بالنَّدَم على سؤاله.

اقترب الكَنديُّ في الظلام. هَزَّ رأسه وقال بغير كثيرٍ من الاقتناع:

- أَظُنُّ أَنْ لَا، لَا بُدَّ أَنَّهَا كَانَتْ تِلْكَ الْأَغْنِيَةُ الَّتِي غَنَيْتَهَا هِيَ مَا تُسَبَّبُ فِي ذَلِكَ. إِنَّهَا الْأَغْنِيَةُ الَّتِي يُغَنُّونَهَا فِي مُخَيَّمَاتِ الْحَطَّابِينَ، وَأَمَّا كِنَ بَائِسَةٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، عِنْدَمَا يَخْشَوْنَ أَنْ الْوَنْدِيْجُو تَقُومُ بِنَوْعٍ مِنَ التَّرْحَالِ السَّرِيعِ فِي مَكَانٍ مَا مِنْ حَوْلِهِمْ.

- وما هي الْوَنْدِيْجُو، فَرِيْسَةُ؟

سأل سيمبسون بِسُرْعَةٍ، مُضْطَرِّبًا لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَمْنَعَ الْقَشْعَرِيَّةَ الْمَفَاجِئَةَ الَّتِي انْتَابَتْ أَعْصَابُهُ مَرَّةً أُخْرَى. كَانَ يَدْرِكُ أَنَّهُ يَقْتَرِبُ مِنْ رُعْبِ الرَّجُلِ وَسَبَبِهِ. لَكِنْ تَغَلَّبَ فَضُولُ مُتَعَجِّلٍ عَنِيفٍ عَلَى حُكْمِهِ السَّدِيدِ وَخَوْفِهِ.

استدار ديفاجو بِسُرْعَةٍ وَنَظَرَ إِلَيْهِ كَمَا لَوْ كَانَ عَلَى وَشِكِ الصَّرَاحِ فَجْأَةً. أَشْرَقَتْ عَيْنَاهُ، لَكِنْ قَمَهُ كَانَ مَفْتُوحًا عَلَى وَسْعِهِ. مَعَ ذَلِكَ، كَانَ كُلُّ مَا قَالَهُ -أَوْ مَا هَمَسَ بِهِ عَلَى الْأُخْرَى- إِذْ انْخَفَضَ صَوْتُهُ لِلْغَايَةِ:

- لَا شَيْءَ... لَا شَيْءَ سِوَى مَا يَعْتَقِدُ هَؤُلَاءِ الْحَطَّابُونَ الْقَذِرُونَ، عِنْدَمَا يَشْرَبُونَ كَثِيرًا، أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي تَعِيشُ هُنَاكَ.

أدار رأسه في اتجاه الشرق، مُواصلاً:

- إنها سريعة في مساراتها كالبرق، وأكبر من أي شيء آخر في الأدغال، ومن المفترض أن النّظر إليها ليس بالأمر الحَسَن، هذا كُلُّ شيء!

قال سيمبسون:

- مُعتَقَد خُرَافِيٌّ من الغابات الخلفية.

وتحرّك على عَجَلٍ صوبَ الخيمة من أجل أن يتخلّص من يد الدليل التي تشبّثت بذراعه. وأضاف:

- تعال، تعال، أَسْرِعْ كرامةً لله، وأَضِئِ الفانوس! حان الوقت لنكون في الفراش وننام إن كُنَّا سننْهَضُ مع الشمس غداً...
كان الدليل قريباً منه للغاية. أجاب من قلب الظلام:

- أنا آتٍ، أنا آتٍ.

وظهر بعد تأخيرٍ طفيف يحمل الفانوس وعَلَقَه من مسمار على عمود الخيمة الأمامي. ما إن فعل ذلك حتى بدّت ظلالُ مائة شجرةٍ أماكنها بسرعة، وعندما تعرّض في الحبل، وغاص داخلَ الخيمة بسرعة، ارتجفت بكاملها كما لو أن عَصْفَةً ريحٍ قد صرَبَتْها.

استلقى الرُّجُلان، من دون أن يخلعا ملابسهما، على فراشيهما اللَّيْنَيْنِ المصنوعَيْنِ من أغصان البلسم، المصفوفة ببراعة. كان كل شيء دافئاً ومريحاً بالداخل، لكن عالم الأشجار المزدهمة بالخارج تجمّع من حولهم، حاشداً مليون ظلٍّ، ومحتويّاً الخيمة الصغيرة التي كانت تقف مثل صدقةٍ بيضاء صغيرة في مواجهة محيطِ الغابة الهائل.

انضغط ظلٌّ آخر، بين الشَّخصَيْنِ الوحيدَيْنِ بالداخل، ولم يكن من ظلال الليل. كان الظلُّ الذي ألقاه الخوفُ الغريبُ، ولم يَتِمَّ التَّخْلُصُ منه بالكامل، ذلك الخوف الذي انقضَّ على ديفاجو فجأةً أثناء غنائه.

كان سيمبسون، وهو مُستلقٍ يُراقِبُ الظلام من خلالِ مِصراعِ الخيمة المفتوح، مُستعدًّا للسقوط في هاوية النومِ الفَوَّاحَةِ، يتعرَّفُ للمرة الأولى على ذلك السكون الفريد والعميق للغابة البدائية عندما لا تَهبُّ الرياح... وعندما يكون لِلَّيْلِ وَزْنٌ ومادَّةٌ تدخل إلى الرُّوح، وتضرب من حولها حجابًا... ثُمَّ غَلَبَهُ النَّوْمُ...

مكتبة
t.me/t_pdf

III

هكذا بدا له على الأقل. مع ذلك كان صحيحًا أن اندفاع الماء خلف باب الخيمة مباشرةً، كان مستمرًا في وقعه ذي النبضات المتناقضة عندما أدرك أنه كان مُمددًا وعيناه مفتوحَتَيْن، وأن صوتًا آخر أدغم نفسه مؤخرًا بنعومةٍ مأكرةٍ بين رَشاشِ الأمواج الصغيرة وكرَّرتها. وقبل أن يفهم ماهية هذا الصوت بوقتٍ طويل، نشطت بداخله مراكزُ الجَزَعِ والتَّوجُّسِ. أنصتَ باهتمام، وإن كان عبثًا في البداية؛ إذ كانت الدماء المتدفقة تقرر طولها في أذنه بصخبٍ شديد. تساءل، هل أتت؟ من البحيرة أم من الغابة؟...

ثم أدرك فجأةً، بتسارعٍ وخَفَقانٍ في القلب، أنها كانت في الخيمة على مقربةٍ مباشرةٍ منه، وعندما استدار ليسمع بشكلٍ أفضل، تمرَّرت على نحوٍ لا لبسٍ فيه على مسافةٍ لا تزيد عن قَدَمَيْن. إنه صوتُ بكاء. كان ديفاجو يَنشِجُ في الظلام، فوق فراشه المصنوع من الأغصان،

كما لو كان قلبه سَيْنَقَطِرُ، بدا واضحًا أنه دَسَّ البطانية في فَمِه ليكتم صوت البكاء.

وكان أوَّل ما شعر به، قبل أن يتمكن من التفكير أو التأمل، هو دفقة من الرُّقَّة النافذة والموثَّرة. أدَّى هذا الصوت البَشْرِيُّ الحميم، لدى سَماعِهِ وسط الإقفار من حولهم، إلى إيقاظِ الجَزَع في نفسه. كان أمرًا مُتناقِضًا للغاية، مُتناقِضًا بشكلٍ مُثيرٍ للشَّفَقَّة، وعبثيًا للغاية! ما نَفَع الدموع في هذه البرية الشاسعة والقاسية؟ فَكَّر في طفلٍ يبكي في وسط المحيط الأطلسي... ثم هبط الرُّعْبُ عليه، بالطَّبْع، بالإدراك الكامل، وذكرى ما قد سبق أن حدث، وسَرَت الدماء الباردة في عروقه.

همس بسرعة:

- ديفاجو، ماذا بِكَ؟

ثم محاولًا أن يجعل صوته لطيفًا لأقصى درجة:

- هل تتألَّم، هل تَشْعُرُ بالحُزن؟

لم يأتِه أيُّ رَدٍّ، لكن توقَّفت الأصوات بشكل مفاجئ. مدَّ يده ولمس جَسَدَه، فلم يتحرَّك. سأله:

- هل أنت مُستيقِظ؟

إذ خطر له أن الرجل كان يبكي في نومه.

- هل تشعر بالبرد؟

لاحظَ أن قَدَمَيْهِ، اللتين كانتا مكشوفَتَيْن، قد تَجَاوَزَتَا فتحة الخيمة. بسط فوقهما طِيَّةً إضافيَّةً من أغطيته. كان الدليل قد انزلق من فراشه، وبدا أن الأغصان قد انجَرَّت معه. خَشِيَ أن يسحب الجسد مرَّةً أخرى؛ خوفًا من إيقاظه.

طرح سؤالاً مُتردِّداً أو اثنين بنعومة، لكن على الرغم من انتظاره لعدَّة دقائق، لم يأتِه أيُّ ردٍّ، ولا أي بادرة حركة. سَمِعَ -مؤخَّراً- صوتَ أنفاسه المنتظمة والهادئة، ووضع يده مرَّةً أخرى على صدره برفق، شعر به يعلو ويهبط بانتظامٍ تحت يده. قال هامِسًا:

- دعني أعرف إذا كان أيُّ شيء على غير ما يرام. أو إن كان هناك ما أستطيع أن أفعله. أيقظني على الفور إذا انتابك شعورٌ غريب.

كان بالكاد يعي ما يقول. استلقى مرَّةً أخرى، يفكِّر ويتساءل عن معنى كل ذلك. كان ديفاجو ييكي، بالطبع، أثناء نومه. قد أغمَّه حُلُمٌ أو آخر. لكنه لن يستطيع أن ينسى أبدًا، ما دام حيًّا، صوتَ ذلك النشيج المثير للشَّفَقَة، والشعور بأن برِّيَّة الغابة الشَّنيعة كانت تُنصِتُ.

انشغل عقله لفترة طويلة بالأحداث الأخيرة، التي اكتسب هذا من بينها مكانه الغامِض في الوقت نفسه، ومع أن عقله قد فنَّد بنجاح كُلَّ الإحياءات غير المرحَّبِ بها، ظلَّ لديه شعورٌ من عدم الارتياح، يقاومُ الاستبعادَ، مُستَحِكِّمًا، غريبًا فوق العادة.

IV

لكن يُثبِتُ النومُ، على المدى الطويل، أنه أكبرُ من كل الانفعالات. سرعان ما شَرَدَ بفكره مرَّةً أخرى، استلقى في فراشه ناعِمًا بالدفء، منهوِكُ القوى إلى حَدٍّ بعيد، جَنَّ الليل وسكن، كاسرًا حَدَّةَ الذاكرة والتوجُّس. بعد نصف ساعة، كان غافلًا عن كل شيء في العالم الخارجي من حوله.

مع ذلك، كان النوم عَدُوَّه الأكبر في هذه الحالة، بإخفائه كل ما يحيق به، وتعطيله لاستنفار أعصابه.

كما يحدث أحيانًا في كابوس، أن تحتشد الأحداثُ المتعاقبةُ لتؤكد واقعًا رهيبًا، لكن تأتي بعض التفاصيل غير المتسِّقة لِتَسِمَ المنظومةَ بأكملها بالنقص والزَّيف.

هكذا، فإن الأحداث التي تعاقبت حتى الآن، وعلى الرغم من وقوعها بالفعل، إلا أنها أَقْنَعَتِ العقلَ، بطريقةٍ ما، أنه في غمرة

التَّشَوُّش، تَمَّ إِهْمَالُ التَّفَاصِيلِ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تُفَسَّرَهَا، وَبِالتَّالِي، فَهِيَ مُثَلُّ الْحَقِيقَةِ بِشَكْلِ جِزْئِيٍّ، وَالبَاقِي وَهْمٌ. يَبْقَى شَيْءٌ مَا مُسْتَيْقِظًا، فِي الْجِزْءِ الْخَلْفِيِّ مِنْ عَقْلِ النَّائِمِ، مُهَيِّئًا لِأَنْ يُصْدِرَ حُكْمَهُ. "كُلُّ هَذَا لَيْسَ حَقِيقِيًّا تَمَامًا، عِنْدَمَا تَسْتَيْقِظُ سَوْفَ تَفْهَمُ".

وَهَكَذَا كَانَ الْأَمْرُ، بِطَرِيقَةٍ مَا، مَعَ سِيْمَبْسُون. لَمْ تَكُنِ الْأَحْدَاثُ عَصِيَّةً عَلَى الْفَهْمِ وَغَيْرَ قَابِلَةً لِلتَّصْدِيقِ بِشَكْلِ كَامِلٍ، فِي حَدِّ ذَاتِهَا، لَكِنِهَا تَبْقَى، بِالنِّسْبَةِ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي رَأَاهَا وَسَمِعَهَا، سِلْسَلَةً مِنْ الْحَقَائِقِ الْمُنْفَصِلَةِ الَّتِي تُثِيرُ الرُّعْبَ الْبَارِدَ؛ إِذْ تَبْقَى الْقِطْعَةُ الصَّغِيرَةُ، الَّتِي تَفْكُ غَمُوزَ اللَّغْزِ، مَخْفِيَّةً أَوْ مُغْفَلَةً.

بَقْدَرِ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَذَكَّرَ، اسْتَيْقِظَ، أَوَّلًا، عَلَى حَرَكَةٍ عَنِيفَةٍ تَسْرِي مِنْ خِلَالِ الْخِيْمَةِ لِأَسْفَلِ مَتَّجِهَةٍ إِلَى الْبَابِ، جَعَلَتْهُ يَنْتَبِهَ إِلَى أَنْ صَاحِبَهُ كَانَ جَالِسًا فِي وَضْعٍ مُسْتَقِيمٍ إِلَى جَوَارِهِ... يَرْتَعْشُ. لَا بُدَّ أَنْ سَاعَاتٍ قَدْ مَرَّتْ؛ إِذْ كَانَ ضَوْءُ الْفَجْرِ الشَّاحِبِ هُوَ الَّذِي وَضَّحَ حَدُودَ صَوْرَتِهِ أَمَامَ قِمَاشِ الْخِيْمَةِ. لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ يَبْكِي فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، كَانَ يَرْتَجِفُ مِثْلَ وَرْقَةِ الشَّجَرِ، الْارْتِجَافِ الَّذِي شَعَرَ بِهِ بِوُضُوحٍ مِنْ خِلَالِ الْأَغْطِيَةِ بِطُولِ جَسَدِهِ كُلِّهِ. تَكَوَّرَ دِيْفَاجُو عَلَى نَفْسِهِ فِي مَوَاجَهَتِهِ طَلَبًا لِلْحِمَايَةِ، لَائِدًا مِنْ شَيْءٍ مَا يَبْدُو أَنَّهُ تَوَارَى بِالْقَرَبِ مِنْ طَيِّتِي بَابِ الْخِيْمَةِ الصَّغِيرَةِ. عِنْدئِذٍ صَاحَ سِيْمَبْسُونُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، طَارِحًا أَسْئَلَةً مَا - لَمْ يَتَذَكَّرَ، فِي ذَهْوِلِ الْاسْتَيْقَاطِ الْأَوَّلِ، مَا هِيَ بِالضَّبْطِ - لَكِنِ الرَّجُلُ لَمْ يَرُدَّ. حَلَّتْ أَجْوَاءُ وَمَشَاعِرُ الْكَابُوسِ الْحَقِيقِيِّ عَلَيْهِ بِشَكْلِ مُرْعِبٍ؛ مِمَّا جَعَلَ الْحَرَكَةَ وَالْكَلَامَ شَيْئًا صَعْبًا. فِي الْبَدَايَةِ، لَمْ يَكُنْ مُتَأَكِّدًا، بِالْفِعْلِ، مِنْ مَكَانٍ وَجُودِهِ، فِي أَحَدِ الْمَخَيَّمَاتِ السَّابِقَةِ، أَمْ دَاخِلَ فِرَاشِهِ فِي مَنْزِلِهِ فِي أِبْرَدِينِ. كَانَ شَعُورُ التَّشَوُّشِ مُزَعِّجًا لِلْغَايَةِ.

بَعْدَ ذَلِكَ، وَبِالتَّزَامُنِ مَعَ اسْتَيْقَاطِهِ تَقْرِيبيًّا، بَدَأَ أَنْ سَكُونُ الْفَجْرِ الْعَمِيقِ، بِالْخَارِجِ، قَدْ تَبَدَّدَ بِفِعْلِ صَوْتٍ غَيْرِ مَأْلُوفٍ بِالْمَرَّةِ. أَتَى مَنْ

دون سابق إنذار، أو اقتراب مسموع، وكان مُروِّعًا بشكل لا يوصف. يصرِّح سيمبسون أنه ربما كان صوتًا بشريًا، أجش، ولكنه حزين، صوت زئير ناعم في الخارج قريب من الخيمة، في الجوِّ وليس على الأرض، ذو جَهيرٍ هائل، في حين أنه كان -على نحوٍ غريب- حلوًّا بأشدَّ الأشكال نَفَادًا وإِغواءً. كما أنه كان يدوي بثلاث نغمات، أو صيحات، مُنفَصَلة ومُمَيَّزة، تحمل -بشكلٍ غريب- تشابهاً بعيداً، يمكن تمييزه مع ذلك، مع اسم الدليل: دي- فا- جو!

يُقرُّ الطالب بأنه لا يستطيع أن يَصِفَه بدقة تامَّة؛ إذ أنه لم يكن يشبه أيَّ صوت قد سمعه في حياته، وكان يجمع بين خليطٍ من الخواص شديدة التناقض. يعتبره "صوتًا من نوعٍ عاصِفٍ ذي عواء، كما لو كان صادرًا عن شيء فريد وجامح، برِّيٍّ وذو قوَّةٍ طاغية...".

وقبل أن يتوقَّف الصوت -حتى- ويسقط في خُلجان الصَّمت العظيمة، كان الدليل قد انتفض واقفًا إلى جواره وأطلق صيحةً مُتجاوِبةً، وإن كانت غير مفهومة. تخبَّط في عمود الخيمة بعُنْفٍ، ليتسبَّب في اهتزاز الهيكل بأكمله، نشر ذراعَيْه على نحوٍ محموم طلبًا لمساحةٍ أكبر، وركل بساقيهِ في تهوُّرٍ ليحرِّرها من الأغطية المتشبَّثة بها. وقف بجانب الباب مُنْتَصِبَ القامة، لثانيةٍ واحدة فقط، أو ربما اثنتين، مُواجهًا بهيئته القائمة شُحوبَ الفجر، ثم انطلق بسرعةٍ هوجاءٍ مُتَعَجِّلَةً، قبل أن يتمكن رفيقه من تحريك يَدِهِ لإيقافه، واندفع من خلال مصرَعِي الخيمة، ومضى. وعند ذهابه، مُسرِّعًا بشكلٍ مُذهِلٍ بحيث يمكن بالفعل أن يُسمَعَ صَوْتُهُ وهو يحتضر في البعد، صاح عاليًا بنبرات رُعبٍ مُؤلِّمٍ حمَلَت في الوقت نفسه ما يشبه -بغرابية- ابتهاجَ الفرح المحموم:

- أوه! أوه! قدماي الناريتان! قدماي الناريتان المحترقتان! أوه! أوه!
هذا المرتفع والسرعة النارية!

ثم سرعان ما غيَّبته المسافة، وخطَّ على الغابة الصَّمْتُ العميق،
للصباح بالغ التبكير، كما كان من قبل.

لقد حدث كل هذا بسرعة كبيرة، لدرجة أن سيمبسون كاد يظنُّ أنها كانت ذكرى كابوس بَقِيَتْ معه من النوم، لولا وجود الدليل المتمثِّل في الفراش الفارغ بجانبه. بقي يشعر بدفع الجسد المختفي يضغط على جنبه. وهناك تَكَوَّمت الأغطيَّةُ الملتوية. كانت الخيمة نفسها مستمرَّةً في الاهتزاز من عُنْفِ الرحيل المتهوِّر. كانت الكلمات الغريبة تَرِنُ في أذنه، كما لو أنه يسمعها عن بُعْدٍ... لغة وحشية لعقلٍ أُصيب بشكل مفاجئ. علاوة على ذلك، لم تكن حاسِّتا البَصَرِ والسمع فقط هما ما أنبأ العقل بأشياء غير مألوفة؛ إذ تَنَبَّه إلى أن رائحة خفيفة -ومع ذلك لاذعة- قد انتشرت داخل الخيمة، بينما كان الرجل يركض صارخًا. ويبدو أنه -عند هذا الحد- قد عاد إلى نفسه بإدراكه أن فتحتَي أنفه تحملان تلك الرائحة المفجِعة إلى حلقه، فوجد شجاعته تسقط في قدميه، وتُفارقُه.

كان ضوء الفجر الرمادي، الذي يسقط بين الأشجار باردًا وبراقًا، يكشف المشهد بشكل جيّد قَدَرَ الإمكان. انتصبت الخيمة وراءه مُشَبَّعةً بالندى، بقي رماذُ النار القاتم دافئًا. كانت البحيرة بيضاء تحت طبقة من الضباب، ترتفع الجُرُزُ من داخلها داكِنةً مثل عناصرٍ مُغلَّفةٍ بالصوف. وبُقِعُ من الثلج فيما وراء المساحات الأكثر وضوحًا من الدَّغل. كان كل شيء باردًا وساكنًا، ينتظر الشمس. لكن لا توجد في أيِّ مكانٍ علامةٌ على الدليل المختفي. إنه، بلا شك، مُستمرٌّ في الطيران بسرعة محمومةٍ عبر الغابات المتجمِّدة. لم يكن هناك -حتى- صوتُ خطوات الأقدام المختفية، ولا أصداء الصوت المحتضر. لقد ذهب تمامًا.

لم يكن هناك شيء، لا شيء سوى الشعور بوجوده القريب، الذي خَلَفَه في أنحاء المخيم بشكلٍ قويٍّ، وهذه الرائحة النَّفاذة المتفشية. وحتى هذه كانت، بدورها، تختفي بسرعة في تلك اللحظة. ناضل سيمبسون بقوة، على الرغم من اضطرابه الذهني المتزايد، ليحدّد طبيعتها، ويُيَيزّها، لكنّ التأكّد من رائحة مُراوغة، لم يتعرّف عليها بشكلٍ لاشعوري وفوري، هي عملية عقلية صعبة للغاية. وقد أخفق فيها. ذَهَبَت الرائحة قبل أن يتمكّن من استيعابها أو تسميتها بشكلٍ صحيح. بدا أن مجرد الوصف التقريبي كان شيئًا صعبًا؛ إذ أنها لم تكن تشبه أيّ رائحة يعرفها.

كانت رائحة حادّة بالأحرى، فكّر أنها ليست بعيدة عن رائحة الأسد، سوى أنها أكثر نعومة وليست كريهة بشكلٍ كُلّيٍّ، تحتوي على شيءٍ يكاد يكون حلواً، ذكره برائحة أوراق أشجار الحديقة المتعفّنة، والأرض، وعددٍ لا يُحصى من روائح بلا اسمٍ تُشكّل رائحة غابّة كبيرة، مع ذلك، فإنه عادة ما يستخدم عبارة "رائحة الأسود" ليلخّص بها كلّ ما سبق.

بعد ذلك، كانت قد ذَهَبَت بالكامل، ووجد نفسه واقفاً بجانب رماد النَّار في حالةٍ من الذهول والرُّعب البليد، تَرَكَته فريسةً عاجزةً لأيّ شيء كان مُقدراً حدوثه. إذا ما قام أحدُ فئران المسك بحكّ خَطْمِه على صخرة، أو تحرّك سنجابٌ على لحاء شجرة في تلك اللحظة؛ كان لينهار من فوره على الأرجح، ويفقد الوعي؛ إذ شعر -في الأمر بأكمله- بلمسةٍ ما من رُعبٍ خارجيّ عظيم... ولم يكن الوقتُ قد سَنَحَ بَعْدُ لقواه المشتتة أن تجمع نفسها في وضعٍ حاسمٍ من مَمَالِكِ النَّفْسِ للقتال.

لم يحدث شيءٌ مع ذلك. سَرَت هَفَّةٌ كبيرة من الريح، برقيقٍ، من خلال الغابة المستيقظة، وأحدّت بعضُ أوراق القيقب حفيفاً، هنا

وهناك، وهي تَرْفُ مُتَّجِهَةً إِلَى الأرض. بدا أن السماء قد أصبحت -فجأة- أَشَدَّ إِضَاءَةً. شعر سيمبسون بالهواء البارد على وجنته ورأسه المكشوف. وأدرك أنه كان يرتجف من البرد. ثم أدرك -بعد جهدٍ كبير- أنه كان بمفرده في الدَّغْل، وأنه مُطَالَبًا باتِّخَاذِ خطواتٍ فوريةٍ للعثور على رفيقه المختفي وَنَجْدَتِهِ.

بذل جهدًا -وفقًا لذلك- لكنه كان جَهْدًا غَيْرَ محسوب وغير ذي جدوى. عندما وجد نفسه مُحَاطًا بتلك البرِّية ذات الأشجار، تفصله صفحةُ الماء من الخلف، وَيَسْرِي فِي دَمِهِ رَعْبُ تلك الصرخة الوحشية، فعل ما قد يفعله أَيُّ رَجُلٍ آخر عديم الخبرة في مواجهة حيرةٍ مماثلة، ركض بشكلٍ عشوائيٍّ، من دون أيِّ إحساسٍ بالاتجاه، مثل طفلٍ مُرَوِّعٍ، وراح يصيح باسم الدليل بصوتٍ مُرتَفِعٍ، ومن دون توقُّفٍ:

- ديفاجو! ديفاجو! ديفاجو!

كلُّما صرخ بالاسم رَدَّتْهُ إِلَيْهِ الأشجار، لكن بطبقةٍ مُنْخَفِضَةٍ قليلًا:

- ديفاجو! ديفاجو! ديفاجو!

اتَّبَعَ المَمَرُ الذي يقع على مسافة قصيرة عبر بُقْعِ الثلج، ثم فَقَّده مرَّةً أخرى حيث مَتَّتِ الأشجارُ بدرجةٍ من الكثافة لا تسمح للثلج بأن يسقط. صَرَخَ حتَّى بُحَّ صوته، وبدأ صوته المتردِّدُ، في هذا العالم المنصِت بلا إجابة، يُثِيرُ دُعْرَهُ. ازداد ارتباكُه بتناسُبٍ طَرْدِيٍّ مع شِدَّةِ جهوده. أصبح كَرْبُهُ شديدًا بشكلٍ هائل، حتَّى خابت جُهودُهُ في بلوغ مقصدها مع الوقت، أجبرته شِدَّةُ الإجهاد على التراجع إلى المخيم مرَّةً أخرى. ويبقى من عجائب الأمور أنه تمكَّن من العثور على طريق العودة. كان أمرًا بِالِغِ الصَّعوبة؛ إذ رأى الخيْمَةَ البيضاء، أخيرًا، من بين الأشجار، بعد دَلَالَةٍ خَادِعَةٍ لا حَصَرَ لَهَا، وهكذا وصل إلى بَرِّ الأمان.

عندها، فَعَلَ الإِجْهَادُ مَفْعُولَهُ؛ فأصبح أكثر هدوءًا. أشعل النَّارَ، وتَنَاوَلَ الإفطار. مَنَحَتْهُ القهوةُ الساخنة ولحمُ الخنزير المَقْدَد قليلًا

من التَّمييز والحُكم الصائب مرَّةً أخرى، وأدرك أنه كان يتصرَّف كَصَبِيٍّ. حينها قام بمحاولةٍ أخرى ناجحة ليواجه الموقفَ مُتمالِكًا نفسه، وساعدته طبيعته المقدَّمة بالتأكيد، قرَّر أولاً أنه يجب عليه إجراء بحثٍ شامل قَدَرَ الإمكان، وإن لم ينجح فيه؛ ينبغي عليه أن يبذل ما في وسعه ليشقَّ طريقه إلى المخيِّم ويأتي بالمساعدة.

وكان هذا ما فعله. مُصطَجِبًا معه طعامًا وأعوادَ ثِقَابٍ وبندقية، وفأسًا صغيرًا لِصُنْعِ علاماتٍ على الأشجار باتِّجاه رحلة عودته، ومضى قُدَمًا.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة عندما بدأ، أشرقت الشمس على قِمَمِ الأشجار في سماءٍ خالية من الغيوم. ترك رسالةً مُثَبِّتَةً بوَتِدٍ إلى جوار النار في حال رجوع ديفاجو بينما هو غائب.

اتَّخذ اتجاهًا جديدًا، في هذه المرة، وفقًا لخُطَّةٍ دقيقة، تهدف إلى إجراء مَسَحٍ واسع لا بُدَّ -إن عاجلاً وإن آجلاً- أن يُصادِفَ علاماتٍ من أثر الدليل. وقبل أن يقطع رُبْعَ ميل، مرَّ على آثار حيوان كبير في الثَّلج، وبجوارها آثار خفيفة أصغر لما كان -من دون شك- قَدَمَي إنسان... قَدَمَي ديفاجو. كانت الرَّاحة التي شعر بها -في الحال- طبيعيَّةً، وإن كانت قصيرة؛ إذ رأى من النظرة الأولى، لهذه الآثار، تفسيرًا بسيطًا للأمر برُمَّتِه، هذه العلامات الكبيرة تركها -بالتأكيد- ثورٌ أَيْل، قد عثر على المخيِّم مُصادَفَةً، في رِيحٍ مُناوِئَةٍ، فأطلق صرخةً واحدة للإنذار والتَّنبيه في اللحظة التي اكتشف فيها خطأه. كان ديفاجو، الذي تطوَّرت غريزته الصيد عنده لدرجةٍ من الكمال الخالص، قد اشتَمَّ الرائحة البهيمية آتيةً مع هبوب الريح قبل ساعات. كان هياجُه واختفاؤه يرجعان -بالطَّبع- إلى... إلى أنه...

ثم تلاشى التفسيرُ المستحيل الذي توصَّل إليه؛ إذ كشف له المنطقُ السليم -من دون شَفَقَةٍ- أن أيًّا من هذا لم يكن صحيحًا. لا يوجد

دليل، وخصوصًا إن كان دليلًا مثل ديفاجو، يمكن أن يتصرّف بطريقة غير عقلانية إلى هذه الدرجة، ويمضي من دون بندقيته حتى...! عندما تذكر التفاصيل كلّها، تطلب منه الأمر تفسيرًا أكثر تعقيدًا بكثير. صرخة الرُعب، اللغة العجيبة، الوجه الرمادي المرعوب عندما التقطت فتحتا أنفه الرّائحة الجديدة لأوّل وهلة. ذلك النشيج المكتوم في الظلام، وشعور الرجل الأصلي بالنّفور نحو هذا الجزء من البلد على وجه الخصوص، وهو الأمر الذي عاد إليه، أيضًا، في تلك اللحظة، بصورة غائمة...

علاوة على ذلك، فقد تبينّ له بعد فحص دقيق، أنها لم تكن آثار ثورٍ أيل على الإطلاق! فقد وضّح له هانك الخطوط الخارجيّة لحوافر ثور الأيل، وكذلك بالنسبة إلى البقرة والعجل أيضًا. لقد رسمها بشكل واضح على شريحة من لحاء البتولا. وكانت هذه مختلفّة تمامًا الاختلاف. كانت كبيرةً ومستديرة وعريضة، وليس لها الحوافّ الواضحة للحوافر الحادّة. تساءلّ للحظة إذا ما كانت آثار الدّب تبدو هكذا. لم يكن هناك حيوان آخر يستطيع أن يفكّر فيه، فوعول "الكاريبو" لم تتوغّل في اتجاه الجنوب في هذا الموسم، وحتى لو فعلت، كانت ستخلف آثار حوافر. كانت إشاراتٍ مَشوّمةً، هذه الرسائل الغامضة التي خلّفها مخلوقٌ مجهول على الثلج، والتي قد أغوت إنسانًا بالابتعاد عن برّ الأمان. وعندما ربطها في خياله بذلك الصوت المُلح، على ذاكرته، الذي بدّد سكونَ الفجر؛ انتابه دُوارٌ خاطفٌ زلزل عقله، وأزعجه بشكل لا يُصدّق. لقد شعر بأوجهِ التهديد فيما يخصّ الأمر برُمّته. وعندما انحنى لأسفل كي يفحص الآثار بعناية أكبر، التقط نفحةً ضعيفة من تلك الرائحة الحلوة النفاذة، في الوقت نفسه، جعلته يستقيم بجسده مرّةً أخرى، مُقاومًا إحساس يقرب من الغثيان.

عندها لعبت معه ذاكرته لعبَةً شريرةً أخرى. تذكر فجأة هاتين القدمين المكشوفتين البارزتين خارج حدود الخيمة، ومظهر الجسد

وهو يُجَرُّ صوبَ الفتحة. وانكماش الرجل، عندما استيقظ لاحقًا، خوفًا من شيء عند الباب. كانت التفاصيل تضرب عقله المرتعد - في تلك اللحظة - بهجومٍ جماعي. بدا أنها تتجمّع في تلك الفضاءات العميقة للغابة الصّامته من حوله، حيث وقّفت جَمهرَةٌ من الأشجار مُنصِتَةً ومُراقِبَةً، تنتظر كي ترى ماذا بوسعه أن يفعل. كانت الغابة تُحكّم نطاقها من حوله. تَقَدَّم سيمبسون، بإصرارٍ صادر عن رِباطَةٍ جاشٍ حقيقية، مُتتَبِّعًا الآثار بقدر استطاعته، محتويًا هذه المشاعر البَشِعة التي تسعى إلى إضعاف إرادته. صَنَعَ علاماتٍ على عَدَدٍ لا يُحصى من الأشجار أثناء ذهابه؛ خوفًا من أن يعجز عن العثور على طريق العودة. وكان ينادي باسم الدليل بصوتٍ مُرتَفِعٍ على فواصلٍ من بضع ثوانٍ. كانت نقرات الفأس الرتيبة على جذوع الأشجار الضخمة، ونبرات صوته غير الطّبيعيّة، قد تحوّلَت مع الوقت لأصواتٍ، أصبح حتى يخاف من أن يُصدِرَها أو يسمعها؛ إذ أنها تَلِفَتُ الانتباه - من دون توقُّفٍ - لوجوده ومَوْقِعِهِ الدقيق، وإذا كان هناك حقًا شيءٌ ما يتعقّبه بنفس الطريقة التي يتعقّب هو بها شخص آخر...

قَمَعَ الفِكرة، بجهِدٍ قويٍّ، فور ظهورها. أدرك أنها كانت بداية حيرةٍ شيطانيّةٍ، بشكلٍ كاملٍ، من النوع الذي يمكن أن يُدمِّره بسرعة. على الرغم من أن الثلج لم يكن مُتَّصِلًا، فهو يتساقط في دفعات ضئيلة، فقط، على المساحات الأكثر انفتاحًا، إلّا أنه لم يَجِدْ صعوبةً في تتبُّع الآثار على مدى الأميال الأولى. سارت بشكلٍ مستقيمٍ كخطٍ المسطرة أينما سمَحَت الأشجارُ بذلك. سرعان ما أخذت الخطى في الاتّساع، حتى بلغت في النهاية نِسَبًا، بدا من المستحيل تمامًا أن يبلُغها أيُّ حيوانٍ عاديٍّ. أصبحت تُشَبِّه قفزاتٍ ضخمةً طائِرةً، قام بقياس إحداها، وعلى الرغم من أنه كان يعرف أن امتدادًا يبلغ ثماني عشرة قَدَمًا لا بُدَّ وأن يكون خاطئًا، إلّا أنه كان عاجزًا عن فَهْمِ السبب وراء عدم عثوره على أيِّ علاماتٍ على الثلج بين طَرَفَيِ القياس. لكن الأمر

الذي أثار حيرته بشكل أكبر، وجعله يشعر بأن رؤيته قد انحرفت تمامًا، أن خطوة ديفاجو قد اتسعت بالطريقة نفسها، وغطت نفس المسافات غير المعقولة في النهاية. بدا الأمر كما لو كان الوحش الكبير قد رفعه معه وحمله عبر هذه الفواصل المذهلة. وجد سيمبسون أنه لا يستطيع، بأطرافه التي كانت أطول كثيرًا، أن يبلغ ولو نصف المسافة إذا قفز من الجري.

إن مشهد هذه الآثار الضخمة، وهي تجري جنبًا إلى جنب، هو دليل صامت على رحلة مروعة أدّى فيها الرعب أو الجنون إلى نتائج مستحيلة، كانت مؤثرة بصورة بالغة، صدمته في أعماق روحه الدفينة. لقد كانت الشيء الأكثر رعبًا الذي وقّعت عليه عيناه يومًا. بدأ يتتبعها بشكل أوتوماتيكي، شارد الذهن تقريبًا، يتطلع من فوق كتفه باستمرار ليرى إن كان، هو الآخر، مُلاحقًا من شيء ذي خُطى عملاقة... وسرعان ما خلص إلى أنه لم يعد يدرك تمامًا ماذا تعني، هذه الانطباعات التي تركها شيء مجهول وغير مُروّض على الثلج، وفي صُحبَتها على الدوام آثار قَدَمَي دليله، الكندي الفرنسي الضئيل، رفيقه، الرجل الذي شاركه خيمته قبل ساعات قليلة، يُدَرِّش ويضحك، بل ويُغني إلى جواره...



بالنسبة إلى رَجُلٍ في مثل عُمره وخبرته، ربما لا يستطيع سوى اسكتلنديّ حكيم، نشأ على الفِطْرةِ السليمة وتأسس على المنطق، أن يحافظ على ذلك القَدْرِ من التَّوَازُن الذي تمكَّن هذا الشابُّ -بطريقة أو بأخرى- أن يحافظ عليه خلال المغامرة بأكملها. وإلاَّ انبغى لشيئين -ما لبثَ أن لاحظهما بينما كان مُندَفِعًا إلى الأمام بشجاعة- أن يجعلاه يعود رأسًا إلى الأمان النسبي لخيمته، بدلًا من الاكتفاء بإحكام قبضته بشدَّة على عَقَبِ بندقيَّته، بينما كان قلبه، الذي تلقَّى تدريبه للخدمة في "وي كيرك"، يرسل الصلوات الصامتة لتشقَّ طريقها إلى السماء. رأى أن كِلَا الأثرين قد خضع لتغيير، وبقد ما تعلَّق هذا التغيير بخُطَى الرجل، بقدر ما كان مُرْعَبًا بطريقة ما تستعصي على الفهم.

لقد لاحظ ذلك لأوَّلَ مَرَّةٍ في الآثار الأكبر، ولم يَسْتَطِع أن يُصدِّق عينيه تمامًا لفترة طويلة. هل كانت أوراق الشَّجَر، التي تُبعَثُرها الريح، هي التي أنتجت تأثيرًا غريبًا من الضَّوء والظِّل، أم أنه الثلج

الجاف، المنجرف حول الحواف مثل الأرز المطحون جيّدًا، قد أكسب الظلال والإضاءات العالية صبغته؟ أم كانت الحقيقة -فعلًا- أن الآثار الكبيرة قد أصبحت مصبوغة بلونٍ باهت؟ إذ ظهرت، في ذلك الحين، مسحة غامضة ضاربة إلى الحمرة، تحيط بالحفر الغائرة العميقة من أثر الحيوان، أقرب لتأثير الضوء منها لأي شيء آخر يكون قد صبغ مادة الثلج نفسها. كانت موجودة في كل أثر، وعلى نحو متزايد، هذه المسحة النارية الباهتة التي أضفت على الصورة لمسة جديدة من الفظاعة.

لكنه عندما أصبح غير قادرٍ بالمرة على تفسيرها أو تصديقها، حوّل انتباهه إلى الآثار الأخرى ليرى إن كانت، هي أيضًا، تحمل شواهدٍ مماثلةً، لاحظ أنها قد خضعت، في هذه الأثناء، لتغييرٍ أسوأ بكثير، حمل إحياءاتٍ أكثر ترويعًا إلى حدٍّ بعيد؛ إذ رأى في آخر مائة ياردة أو نحوها أنها قد تحوّلت بالتدريج إلى هيئة الأثر الكبير. لقد حدث التغيير بشكل غير ملحوظ، ومع ذلك، لا تخطئه عين. كان من الصعب معرفة المكان الذي بدأ عنده التغيير أولًا. لكن النتيجة لم تكن تحتل الشك. كانت تُشكّل، حينئذٍ، نسخة دقيقة ومُتقنة من الآثار الأكبر الموجودة إلى جوارها، نسخة أصغر وأكثر دقة صيغت بنظافة أكبر. كانت الأقدام التي صنعتها -بناءً على ذلك- قد تغيّرت أيضًا. وبرز في عقله شيء من الاشمئزاز والهلع بمجرد أن رآها.

عندما تردّد سيمسون لأول مرة، ثم شعر بالخجل إزاء دُعره وتردّده، قطع خطواتٍ قليلةً مُتّعجّلةً للأمام، قبل أن يتوقّف في اللحظة التالية وقد أخذته المفاجأة. أمامه مباشرة، كانت كلّ علامات الأثر قد انقطعت، وصل كلاً الأثرين إلى نهايةٍ مُفاجئة. بحث على كلا الجانبين لمسافة مائة ياردة وأكثر عن أقل دلالة على استمرارها، لكن من دون جدوى، لم يكن هناك شيء.

كانت الأشجار كثيفةً للغاية في هذه المنطقة بالذات، كلها أشجار كبيرة، أشجار التُّنُوب والأرز والشوكران، لم تكن هناك أيُّ شُجيرات. وقف يتطلَّع حوله في ذهولٍ كامل، مُجرِّدًا من كل قُدرةٍ على الحُكم. ثم شرع في العمل باحثًا من جديد، المرَّة تلو الأخرى، لكنه كان يَصِلُ إلى النتيجة نفسها على الدوام، لا شيء، الأقدام التي طَبَعَت علاماتِها على الثلوج كلَّ هذه المسافة، قد توقَّفت في تلك اللحظة، على ما يبدو، وفارقت الأرض!

وحدث في تلك اللحظة من الكَرَبِ والحيرة، أن ألهب سَوَطُ الرُّعْبِ قَلْبَهُ بلسانه المتقن. وقع بتأثيره المميت على أكثر البُقَع إيلامًا على الإطلاق؛ ممَّا أوهن عزمته بشكلٍ كامل. لقد كان يخشى في سرِّه طوال الوقت أن تأتي هذه اللحظة، وها هي قد أتت.

سمع صوت الدليل ديفاجو، بعيدًا في الجوِّ، مكتومًا بفعل الارتفاع والمسافة الكبيرَيْن، ضعيفًا ومُنْتَجِبًا بشكلٍ غريب.

هبط الصوت عليه من تلك السماء الشتوية الساكنة، بتأثير فزَعٍ ورُعْبٍ لا نظيرَ لهما، سَقَطَت البندقية بالقرب من قدميه. وقف بلا حراكٍ لِلْحَظَّةِ، يُنِصْتُ كما لو كان بكامل جسده، ثم ترنَّح للخلف باتجاه أقرب شجرة ليستند عليها، مُشَتَّتَ العقل والروح بشكلٍ يدعو على اليأس. بدا له، في تلك اللحظة، أنه يمرُّ بأكثر تجربة صادمةٍ ومُزَلْزِلَةٍ عرفها يومًا، هكذا خَلَا قلبه من كل شعور أيًّا كان، كما لو أن ريحًا باردةً مفاجئةً ضربته.

- أوه! أوه! هذا المرتفع الناري! أوه، قدماي الناريتان! قدماي المحترقتان الناريتان...!

سَرَت في البُعدِ النَّبْرَاتُ المتضرَّعةُ لاستغاثةٍ لا توصف، صوت المعاناة هذا تحت السماء. صاح بغتة... ثم ران الصمت على وحشةِ الأشجار المنصَّتة كُلِّها.

كان سيمبسون، الذي يعي بالكاد ما يفعله، قد وجد نفسه يركض بعنف جيئةً وذهاباً، مُفتشاً، وصائحاً، ومُتعثراً في الجذور والصخور، مُلقياً بنفسه في غمار ملاحقة غير موجهة في إثر المنادي.

غاص وراء ستار الذاكرة والمشاعر، التي تحجب به الخبرة الأحداث، مُشَتَّت الذهن ونصف مشوش، يلتقط أضواءً زائفةً مثل سفينة في البحر، الرعب في عينيه وقلبه وروحه. إذ ناداه دُعر البرية بهذا الصوت البعيد -بسلطة المسافة الجامحة- إغواء الوحشة المدمر. عرف في تلك اللحظة كل الآلام التي يقاسيها شخص ضائع بشكل مَيؤوس منه ولا يُرجى له علاج، يعاني الشهوة وشقاء الروح في الوحدة الحتمية. برق طيفٌ ديفاجو، مثل اللهب عبر خرائب أفكاره المظلمة، مُطارداً إلى الأبد، مدفوعاً وملاحقاً عبر الاتساع الزلق لتلك الغابات القديمة...

بدا وكأن دهرًا قد مرَّ عليه قبل أن يتمكن من العثور على أي شيء، في فوضى أحاسيسه المشوشة، يستطيع أن يرسو عليه بثبات للحظة، ويفكر...

لم تتكرر الصرخة. ولم يلق نداؤه الأَجَشُّ أيَّ استجابة، لقد استدعت قوى البرية المبهمة ضحيَّتها إلى حيث لا يُمكن استعادتها، وأسرعت في الإمساكِ بها.

بحَثَ ونادى، مع ذلك، لساعاتٍ من بعدها، على ما يبدو؛ إذ كان الوقت متأخراً فيما بعد الظهيرة عندما قَرَّر -أخيراً- أن يتخلَّى عن سعيه عديم الجدوى ويعود إلى مُخيَّمه على ضفاف بحيرة "فيفتي آيلاند ووتر". ذهب بترددٍ، مع ذلك، فقد ظلَّ الصوت الصارخ يتردد في أذنيه. عثر على بندقيته وطريق العودة بصعوبة. عمل كلُّ من التركيز اللازم لمتابعة العلامات المحفورة على الأشجار بشكل رديء، والجوع الذي عضَّه بأنيابه، على مُساعدته في الحفاظ على ثبات عقله.

وإلا، كما يُقَرُّ بنفسه، ربما كان الانحراف المؤقت الذي عانى منه ليمتدَّ طويلاً حتى يسلمه إلى كارثة حقيقية. مالت الكفة بالتدريج مرةً أخرى واستعاد قَدْرًا من توازنه الطبيعي.

ولكن على الرغم من كل ذلك، كانت الرحلة، عبر الظلام المتجمّع، مسكونة بالرُعب على نحوٍ بائس. سمع خُطى لا حَصَرَ لها تَتَبَّعُه، وأصواتًا تضحك وتتهامس، ورأى شخوصًا تربض خلف الأشجار والصخور وترسم إشاراتٍ، بعضها لبعض؛ لتنسيق الهجوم عليه في لحظة مروره. جعلته دَمَمَةُ الريح السارية يَجْفُلُ ويصيخ السَّمْعُ، ذهب خُلْسَةً، محاولاً أن يختبئ أينما أمكن، وألاً يُصدِرَ سوى أقلِّ الأصوات بقدر ما يستطيع. أَصْبَحَتْ ظِلَالُ الغابة -حيثُها- مُهْدَدَةً ومُتَحَدِّيةً، بعد أن كانت قبل لحظاتٍ قليلة حاميةً أو حتى ساترة. وَحَجَبَ ضَجِيجُ عقله المرتعب مجموعةً من الاحتمالات التي أصبحت تُنذِرُ بالسُّوء بشكلٍ أكبر كلما ازدادت إبهامًا. كان الحَدْسُ بَوَيْلٍ مجهولٍ يكمن بوضوحٍ خلف كُلِّ تفصيلَةٍ ممَّا قد حدث.

كانت الكيفيَّة التي خرج بها مُنتَصِرًا في النهاية مُثيرةً للإعجاب. قد يخرج رجالٌ، ذوو قُدَراتٍ وخبراتٍ أكثر نُضْجًا، من هذه التجربة بنجاحٍ أَقْلٍ. لقد تَمَالَكَ نفسه بشكل جيّد، آخِذًا كُلَّ شيءٍ في الاعتبار، وتُبْرِهِنُ خُطُهُ عمله على ذلك. لم يكن التَّوَمُّ واردةً على الإطلاق، وكذلك لم يكن الترحال على طريق مجهولٍ في الظلام بالأمر العملي، جلس طوال تلك الليلة، حاملاً البندقية في يده، أمام النار التي لم يسمح لها أن تخبو مُطْلَقًا، ولو للحظَّةِ واحدة. تركت قسوة اليَقْظَةِ الممسوسة أثرها على روحه مدى الحياة، لكنه أمَّها بنجاح، وانطلق مع أولى إشارات الفجر، في رحلة العودة الطويلة للمُخَيَّم الأم، ليأتي بالمساعِدة. وكما فعل من قبل، ترك رسالَةً خَطِيئَةً تُفَسِّرُ غيابه، وتشير إلى المكان الذي خَبَأ فيه كَمِيَّةً وافرة من الطعام والثَّقَاب، على الرغم من أنه لم يكن يتوقَّع أن تعثر عليها يدا إنسان.

قد تُصْلِح الكيفيَّة، التي وجد بها سيمبسون طريقَه بمفرده عبر البُحيرة والغابة، لأن تكون قِصَّة بذاتها؛ إذ يؤدِّي سماعه وهو يحكيها إلى التَّعرُّف على وحدة الرُّوح الطاغية التي يشعر بها الإنسانُ عندما تمسك به البرِّيَّةُ في قبضة يَدِها الا محدودة، وتطلق ضحكاتها. ويؤدِّي كذلك إلى الإعجاب بجسارته التي لا تُقهر.

لا يدَّعي أيُّ براعة، عندما يخبر أنه اتَّبَعَ الطريقَ الذي يكاد يكون غيرَ مرئيٍّ بشكل ميكانيكي، وبلا تفكير. وهذه هي الحقيقة من دون شك. لقد عَوَّل على الاهتداء بالعقل الا واعى، وهي غريزة. ربما يكون الإحساس بالاتجاهات، الذي تعرفه الحيواناتُ والبدائيُّون، قد ساعد كذلك بالطبع؛ إذ أنه نجح -عبر كل تلك المنطقة المتشابكة- في الوصول إلى المكان المحدَّد الذي أخفى فيه ديفاجو القارب قبل ثلاثة أيام تقريبًا، قائلًا:

- امضِ عبر البحيرة باتجاه الغرب مُتَّبِعًا الشمس لتعثر على المخيم.

لم يكن مُتَّبِعًا من نور الشمس ما يكفي لإرشاده، لكنه استخدم بوصلته بأفضل صورة مُمكنة، منطلقًا على متن القارب الضئيل للاثني عشر ميلًا الأخيرة من رحلته، يغمره شعورٌ كبير بالارتياح لأنه -أخيرًا- خلَّف الغابَةَ وراء ظهره. كان الماء هادئًا، لحسنِ طالِعه، شَقَّ طريقه عبر وسط البحيرة بدلًا من الإبحار حول الشواطئ لمسافة عشرين ميلًا أخرى، ومن حسن طالعه، أيضًا، أن عاد الصيادون الآخرون. منحه ضوءُ نيرانهم نُقطةً استرشاد، ربما كان عليه، من دونها، أن يقضي الليل بطوله مُفْتَشًا عن الموقع الفعلي للمخيم.

مع ذلك، كان الوقت قد شارَفَ على منتصف الليل، عندما احتكَّ قاربُه بالخليج الرملي الصغير، وأيقظ بصياحه هانك وبانك وعمَّه من نومهم، فركضوا مُسرَّعين وقَدَّموا يَدَ العون لنموذج الإنسانية الاسكتلندية المحطَّم منهك القوى، وهو يَعْبُر فوق الصخور صوب النَّار الخائِبة.

VI

إن الدخول المفاجئ لَعَمَّه الذي يألفه، في عالم السحر والرعب الذي تلبَّسه من دون انقطاعٍ لمدة يومين وليتين حتى ذلك الحين، كان له تأثيرٌ مباشرٌ أكسب الأمرَ وجهًا جديدًا بشكل تام. كان الصوت المموج لتلك العبارتين: "أهلاً يا بُني!" و"كيف حالك الآن؟"، وقبضة تلك اليد الجافة القوية- قد وفَّرا له معياراً آخر للحكم. تدفَّق في داخله شعورٌ بالاشمئزاز. أدرك أنه سمح لنفسه "بالتماذي" على نحو سيئ. حتى أنه شعر بالخجل من نفسه على نحو مُبهِّم. ردَّته إلى صوابه الصَّرامةُ الأصيلة، التي يتميَّز بها عِرْقُه.

ويفسِّر هذا -بلا شك- السببَ الذي جعله يَجِدُ نفسه عاجزاً عن إخبار تلك المجموعة المتحلِّقة حول النار بكل شيء. لكنه قد قال ما يكفي لجعلهم يتوصَّلون إلى قرارٍ بأن جلسة البَوْح يجب أن تبدأ في أقرب وقتٍ مُمكنٍ. وأنه ينبغي على سيمبسون أولاً أن ينال قسطاً من الطعام، وأهم من ذلك النوم؛ ليكون قادراً على خوضها. قام

الدكتور كاثكارت، وقد انتبه للحالة بِفِطْنَةٍ أَكْبَرِ مِنْ أَنْ يُدْرِكَهَا الْفَتَى، بِحَقْنِهِ بِجَرَعَةٍ خَفِيفَةٍ مِنَ الْمُورْفِينِ، نَامَ بَعْدَهَا مِثْلَ الْمَيِّتِ لِمُدَّةٍ سِتِّ سَاعَاتٍ.

يَتَضَحُّ مِنَ الْوَصْفِ الَّذِي كَتَبَهُ طَالِبُ الْإِلَهَوَاتِ بِعَنَاءٍ -بَعْدَ ذَلِكَ- أَنَّ الْقِصَّةَ الَّتِي قَدَّمَهَا لِلْمَجْمُوعَةِ الْمَشْدُودَةِ، قَدْ أَغْفَلَتْ تَفَاصِيلَ حَيَوِيَّةً وَهَامَّةً عَدِيدَةً. أَقَرَّ بِأَنَّهُ لَمْ يَمْتَلِكِ الشَّجَاعَةَ لِذِكْرِهَا، بَيْنَمَا يَتَطَّلَعُ عَمُّهُ فِي وَجْهِهِ بِحُيَّاهِ الرِّصِينِ الْوَاقِعِيِّ. وَهَكَذَا، فَإِنْ كُلُّ مَا اسْتَنْتَجَهَ فَرِيقُ الْبَحْثِ، عَلَى مَا يَبْدُو، أَنَّ دِيْفَاجُو قَدْ عَانَى فِي اللَّيْلِ مِنْ نُوبَةٍ هَوَسٍ حَادَّةٍ، يَتَعَذَّرُ تَفْسِيرَهَا، مُتَخَيِّلًا أَنَّ شَخْصًا مَا أَوْ شَيْئًا مَا قَدْ نَادَاهُ؛ فَانْدَفَعَ فِي إِثْرِهِ إِلَى دَاخِلِ الْغَابَةِ، مِنْ دُونِ طَعَامٍ أَوْ سِلَاحٍ، حَيْثُ لَا بُدَّ أَنَّهُ سَيَلْقَى مَيِّتَةً رَهِيْبَةً وَبَطِيئَةً، بِفِعْلِ الْبَرْدِ وَالْجُوعِ، مَا لَمْ يَتِمَّ الْعَثُورُ عَلَيْهِ وَإِنْقَاذُهُ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ. كَانَ "الْوَقْتُ الْمُنَاسِبُ" يَعْنِي، أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، حَالًا.

بِحُلُولِ الْيَوْمِ التَّالِيِ، عَلَى كُلِّ حَالٍ، انْطَلَقُوا فِي السَّابِعَةِ، تَارِكِينَ بَانَكَ مَسْئُولًا عَنِ الْمَخِيْمِ بَعْدَ أَنْ أَعْطَوْهُ تَعْلِيمَاتٍ بِأَنْ يَكُونَ الطَّعَامُ وَالنَّارُ جَاهِزَيْنِ دَائِمًا... رَأَى سِيْمَبْسُونُ أَنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُخْبِرَ عَمُّهُ قَدْرًا أَكْبَرَ مِنَ الْكُنْهِ الْحَقِيقِيِّ لِلْقِصَّةِ، مِنْ دُونِ أَنْ يَحْزَرَ أَنَّهُ قَدْ اسْتَخْلَصَهَا مِنْهُ، فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ، مِنْ خِلَالِ شَكْلِ بَارِعٍ لِلْغَايَةِ مِنْ أَشْكَالِ الْاسْتَنْطَاقِ. فِي الْوَقْتِ الَّذِي وَصَلُوا فِيهِ إِلَى بَدَايَةِ الطَّرِيقِ، حَيْثُ كَانَ الْقَارِبُ قَدْ وُضِعَ اسْتِعْدَادًا لِرَحْلَةِ الْعُودَةِ، ذَكَرَ كَيْفَ تَحَدَّثَ دِيْفَاجُو بِشَكْلِ غَامُضٍ عَنْ شَيْءٍ أَسْمَاهُ "وِينْدِيْجُو"، وَكَيْفَ بَكَى فِي نَوْمِهِ، وَكَيْفَ تَخَيَّلَ وَجُودَ رَائِحَةٍ غَيْرِ عَادِيَةٍ فِي الْمَخِيْمِ، وَأَظْهَرَ أَعْرَاضَ اضْطِرَابٍ عَقْلِيٍّ أُخْرَى. كَمَا اعْتَرَفَ بِالتَّأْثِيرِ الْمُرْبِكِ "لِتِلْكَ الرَّائِحَةِ غَيْرِ الْعَادِيَةِ" عَلَيْهِ نَفْسَهُ، "حَادَّةٌ وَلَاذَعَةٌ مِثْلَ رَائِحَةِ الْأَسْوَدِ". وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ عَلَى بُعْدٍ أَقَلِّ مِنْ سَاعَةٍ مِنْ بَحِيرَةِ "فِيْفَتِي آيْلَانْد وَوْتِر" سَمَحَ لِّلْسَانِهِ أَنْ يَزَلَّ بِوَاقِعَةٍ إِضَافِيَّةٍ، شَعَرَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ إِقْرَارًا أَحْمَقَ بِحَالَتِهِ

الهيستيرية، أخبره أنه قد سمع الدليل المختلفي يصيح مستغيثًا. أغفل الجُمَلُ الغربية المستخدَمة؛ إذ أنه لم يستطع -فقط- أن يحمل نفسه على تكرار اللُغة الخرقاء. كذلك، عندما كان يَصِفُ كيف اتَّخَذَت آثارُ خُطواتِ الرجل على الثلوج صورةً دقيقةً مُصَغَّرَةً من آثار الحيوان الغائرة، استبعد حقيقة أن المسافات التي تفصلها كانت لا تُصَدَّق على الإطلاق. بدا أن هناك صراعًا، متوازِنًا بإحكام، بين الكبرياء الشخصي والأمانة، ما ينبغي عليه أن يكشفه وما يكتمه. فقد ذَكَرَ الأثرَ النَّاريَّ على الثلوج، على سبيل المثال، وأحجم عن ذِكر أن الجسد والفِراشَ قد جُرَّأ إلى خارج الخيمة بشكل جزئي...

أُكِّد له الدكتور كاثكارت، الذي كان يَعُدُّ نفسَه عالِمًا نفسيًّا بارعًا، بوضوح كافٍ أن المواضع المحددة التي تأثّر فيها عقلُه بالوحدة والارتباك والرَّهبة، قد أدَّت إلى الإجهاد، ومَهَّدَت الطريقَ للتَّوَهُّم. وبينما راح يمتدح تَصَرُّفَه، تمكَّن في الوقت نفسه أن يشير إلى الكيفية والمواضع والأوقات التي كان عقله قد ضَلَّ فيها. جعل ابن أخيه يعتقد -من خلال الثناء الحصيف- أنه أصبح أفضل ممَّا كان عليه، ومع ذلك، أكثر غفلة من ذي قبل لتقليله من قيمة الشَّواهد. لقد ألقى بالتَّبِعَة على عدم كفاية المعلومات، شأنه في ذلك شأن العديد من المادِّيين الآخرين؛ لأن المعلومات التي زُوِّد بها تبدو -بإدراكه الخاص- غير مقبولة. قال:

- لا يمكن لِسِحْرِ هذه العُزَلَةِ الرهيبة أن يترك أيَّ عقل، ذا قُدَراتٍ تَخِيلِيَّةٍ رفيعة، من دون أن يَمَسَّه. لقد أثّر على عَقْلِكَ، بالضبط، كما أثّر على عقلي عندما كنتُ في مثل عُمرِكَ. إن الحيوان الذي زار مُخَيِّمَكَ الصغير كان أَيْلًا، من دون شَكٍّ؛ إذ أن لخوار الأيِّل، في بعض الأحيان، رَنَّةٌ صَوْتٌ عجيبه. والمظهر المملُون للآثار الكبيرة من الواضح أنه كان خَلَلًا في الرؤية أوجَدَتَه الإثارة في عينيك. أمَّا حجم وامتداد الآثار فستتقن منهما

عندما نأتي إليهما. لكن الهلوسة بخصوص صوت مسموع هي بالطبع أحد أكثر أشكال التوهّم شيوعاً بسبب الإثارة الذهنية، وهي، يا بُنَيَّ العزيز، إثارة مُغْتَفَرَة تمامًا، ودعني أضيف أنّك سيطرتَ عليها بشكل رائع في ظلّ هذه الظروف. وبالنسبة إلى الباقي، يتحمّم عليّ أن أقول إنّك تَصَرَّفْتَ بشجاعة باهرة؛ لأنّ الخوف من الشعور بالضياع في هذه البرية هو أمرٌ مُرَوِّعٌ على أقل تقدير، ولا أعتقد، للحظة واحدة، أنه كان بوسعي التصرّف بِرُبْعِ حِكْمَتِكَ وَحَسَمِكَ، إن كنتُ في مكانك. الشيء الوحيد الذي أجده عَصِيًّا على التفسير، بشكل غير عادي، هو تلك الرائحة اللعينة.

جَهَرَ ابْنُ أَخِيهِ قَائِلًا:

- لقد أصابَتني بالغثيان، أوكد لك، لقد أصابني الدُّوَارُ حقًا.

جعله سُلُوكٌ عَمِه العليم الهادئ، لمجرّد أنه يحيط بالصيغ النفسية بشكل أكبر، يُصبح مُتَحَدِّيًا قليلًا. كان من السَّهل على المرء أن يصبح حكيماً عند تفسير تجربة لم يَمُرَّ بها بشكلٍ شخصيٍّ. أتهم كلامه وهو يلقي نظرةً خاطِفةً على ملامح الرجل الهادئ الواقف إلى جواره من دون أن يُبدي أيَّ انفعال:

- لا يمكنني وصفها سوى بأنها نوعٌ من الرائحة البائسة والرهيبة.

جاءه الرُّدُّ من عَمِّه:

- لا يَسْعُنِي إِلَّا أن أتعجّب من أنها لم تَبْدُ لَكَ أسوأ من ذلك في ظلّ هذه الظروف.

أدرك سيمبسون أن هذه الكلمات الجافّة كانت تتأرجح بين الحقيقة وتفسير عَمِّه "للحقيقة".

وهكذا وصلوا أخيراً إلى المخيم الصغير ووجدوا أن الخيمة ظلت مُنْتَصِبَةً، وبقايا النار، وقِطْعَةُ الورق المثْبَتَة على وَتْدٍ إلى جوارها، لم تُمسَّ. الخبيئة التي أُسيء تدبيرها بأيادٍ غير خبيرة، اكتشفتها فئرانُ المسك وحيوانات المِنك والسَّناجب، وفَتَحَتْها. كانت أعوادُ الثُّقَاب مَبْعَثَرَةً حول فتحة المخبأ، لكن الطعام قد أُخِذَ حتى آخر كِسرة. هتف هانك بصوتٍ مُرتَفِعٍ على طريقته:

- طيِّب يا رفاق، هو ليس هنا، وهذا أمرٌ مُؤكَّد كخروج الفحم أسفل الحزام، لكن أين علَّه يكون في هذا الوقت، فهذا أمر غير مُؤكَّد كالولوج من الباب الخلفي.

لم يُشكَّل وجودُ طالِبِ اللاهوت أيَّ عائقٍ أمام لُغْتِه في مثل هذا الوقت، على الرُّغم من أنها ربما تكون قد حُرِّرت تحريراً مُشدِّداً حرصاً على القارئ. أضاف قائلاً:

- أقترح أن نبدأ فوراً في البحث عنه مثل المجانين.

نزَلَت كَابَةٌ مصير ديفاجو المحتمل على الفريق كلَّه بإحساس حَرَجٍ مُروِّع في اللحظة التي رأوا فيها مَظَاهِرَ الإشغال القريب. خاصَّة الخيمة ومعها فِراشُ أغصان البلسم الذي ظلَّ مبسوطاً ومُسَطَّحاً من أثر ضغط جسده، بدا وكأنه يستحضر وجوده على مقربة منهم. انتاب سيمبسون شعورٌ غامِضٌ وكأن عالَمَه على المحكِّ، بطريقةٍ ما؛ فشرع في شرح التفاصيل بنبرةٍ خافتة. كان أكثر هدوءاً في ذلك الحين، وإن كان مُنْهَكًا من إجهاد رحلاته العديدة. كانت طريقة عَمِّه في تفسير -أو بالأحرى، دحض- التفاصيل التي ظَلَّت حَيَّةً في ذاكرته المسكونة بالرُّعب، قد ساعدت -أيضاً- في وضع الجليد على انفعالاته. أشار إلى الاتجاه، حيث كان الدليل قد اختفى ذلك الصباح في الفجر الرمادي، قائلاً لرفيقه:

- وذلك هو الاتجاه الذي انطلق فيه راکضًا، لقد ركض، هناك مباشرةً، مثل الغزال، بين أشجار البتولا والشوكران...

تبادل هانك والدكتور كاثكارت نظراتٍ خاطفةً. وواصل هو الحديث بصوتٍ شابهُ شيءٍ من الرعب السَّالف:

- واقتفيتُ أثره، في خطٍّ مستقيم، لمسافةٍ قاربتِ المِليْن، وصولاً إلى المكان الذي توقَّف فيه الأثر فجأةً.

صاح هانك بطلاقةٍ كَشَفَتْ عن كَدَرِهِ الشديد:

- وحيث سَمِعْتُهُ ينادي والتَّقَطَّتِ الرَّائِحَةُ النَّتْنَةُ، إلى آخر هذا العَبَثِ الشَّرِيرِ.

أضاف الدكتور كاثكارت بصوتٍ خافت، ولكن ليس للدرجة التي يَصْغُبُ معها على ابن أخيه أن يسمعه:

- وحيث غَلَبَكَ الحماسُ إلى حَدٍّ اختلاق الأوهام.

كان الوقتُ مُبَكَّرًا فيما بعد الظهيرة؛ إذ أنهم قد ارتحلوا مُسرعين، وكان مُتَبَقِّيًا ما يزيد عن الساعة من ضوء النهار. لم يُضِعْ الدكتور كاثكارت وهانك أيَّ وقتٍ ليبدأ البحث، لكن سيمبسون كان مُرهَقًا لدرجةٍ لم تُمَكِّنْهُ من مُرافَقَتِهِما. يمكنهما تَتَبُعُ العلامات المحفورة على الأشجار، وآثار أقدامه، عندما تكون مُتاحة، وفي غضون ذلك، كان أفضل ما يمكن لسيمبسون أن يفعله هو الإبقاء على النار مُشْتَعلَةً بشكل جيّد، والراحة.

لكن بعد ما يقارب ثلاث ساعات من البحث، كان الظلام قد هبط بالفعل، ورجع الرجلان للمخيّم خاويًا الوفاض. كانت الثلوج المتساقطة حديثًا قد غطَّت كل الآثار، وعلى الرغم من أنهم تعقَّبوا العلامات المحفورة على الأشجار حتى النقطة التي استدار عندها

سيمبسون عائداً، إلا أنهم لم يكتشفوا أدنى إشارة على وجود إنسان، أو على ذلك الموضوع المتعلق بحيوان. لم تكن هناك آثارٌ حديثة من أي نوع، كانت الثلوج تتساقطُ من دون انقطاع.

كان من الصعب معرفة ما هو أفضل شيء يمكنهم فعله، وعلى الرغم من أنهم -في الواقع- ليس لديهم شيء آخر يمكن فعله، إلا أنهم قد يبقون ويبحثون لأسابيع من دون فرصة كبيرة في النجاح. لقد دمّرت الثلوج الحديثة أمَلَهُم الوحيد، وتجمّعوا حول النار لتناول العشاء، في حفلةٍ كئيبة ويائسة. كانت الحقائق، بالفعل حزينة بما فيه الكفاية؛ إذ أن ديفاجو كان لديه زوجة في رات بورتاج، وكان ما يتكسّبهُ هو الموردُ الوحيد لإعالة الأسرة.

بعد أن ظهرت الحقيقةُ بكاملها وبكل قُبْحِها، بدا من غير المُجدي التّمادي في الموارد أو التظاهر. تحدّثوا بصراحةٍ عن الحقائق والاحتمالات. لم تكن هذه هي المرّة الأولى، حتى في تجربة الدكتور كاثكارت، التي يخضع فيها رجلٌ لإغواء العزلة الاستثنائي ويفقد عقله. كان ديفاجو -فوق ذلك- عُرضَةً لشيءٍ من هذا القبيل؛ إذ أن هناك بالفعل لمسة من الكآبة في طبيعته، وقد ساءت طباعه من جرّاء نوبات الشُّرب التي غالباً ما تستمرُّ لأسابيع في كلِّ مرة. كان هناك شيء ما في هذه الرحلة -ربما يعجزُ المرءُ عن تحديده بدقة- تكفّل بدفعه لاجتياز الخطّ، هذا كل ما في الأمر. وقد ذهب، انطلق داخل برية الأشجار والبحيرات الكبيرة ليموت من الجوع والإعياء. كانت الاحتمالات المضادة لحملّة العثور عليه طاغيةً، كذلك، سيكون الهذيان الذي انتابه قد زاد بلا شكّ، وكان من الوارد جدّاً أن يمارس العنف على نفسه فيعجّل، بذلك، مصيره القاسي. ربما تكون النهاية قد حلّت بالفعل بينما هم يتحدّثون. مع ذلك، اعتزموا الانتظار لفترة أطول بعض الشيء، بناءً على اقتراح هانك، صديقه القديم، وتكريس اليوم التالي كله، من الفجر إلى الإظلام، لأكثر طُرُقِ البحث

منهجيةً التي يمكنهم ابتكارها. سوف يقسمون المنطقة بينهم. ناقشوا خطتهم بتفصيل كبير. سيفعلون كل ما يمكن أن يفعله الرجال. وفي غضون ذلك، تحدّثوا عن الشكل الخاص الذي نَقَذَ به رُعبُ البرّية، الاستثنائي، هجومه على عقل الدليل سيئ الحظ. كان واضحًا أن هانك، على الرغم من أنه كان مُطلِعًا على الخطوط العامّة للأسطورة، إلّا أنه لم يرحب بالمنعطف الذي اتّخذته الحديث. أسهم بالقليل، وإن كان هذا القليل كاشفًا؛ إذ أنه صرّح بانتشار قِصّة، في أرجاء هذا القطاع من البلد، كان فحواها أن عديدًا من الهنود "رأوا الونديجو" على طول شواطئ بُحيرة "فيفتي آيلاند ووتر" في خريف العام السابق، وكان ذلك هو السبب الحقيقي وراء نفور ديفاجو من الصّيد هناك. شعر هانك -بلا شك- أنه قد أسهم في موت صديقه القديم من خلال حمّله على ما يكره.

بدا أنه يتحدّث إلى نفسه، أكثر منه إلى الآخرين، عندما قال مؤصّصًا:

- عندما يُجنّ هنديّ، دائمًا ما يُعزّي ذلك إلى أنه قد رأى الونديجو. ولقد كان ديفاجو المسكين مُؤمّنًا بالخرافات حتى أخمص قدمه!

بعد ذلك، عندما شعر سيمبسون بأن الأجواء صارت أكثر تعاطفًا، قام مرّةً أخرى بحكي القِصّة الكاملة لحكايته المذهلة. لم يُغفل أيّ تفصيلة هذه المرة، ذكر أحاسيسه الخاصّة والمخاوف التي سيطرت عليه. لم يُهمَل سوى اللغة الغريبة المستخدمة.

قال الدكتور مشدّدًا:

- لكن لا بُدّ أن ديفاجو قد أخبرك، بالفعل، بكل هذه التفاصيل عن أسطورة الونديجو، يا صديقي العزيز، أعني، أنه تحدّث

إليك عنها، وهكذا وضع في رأسك الأفكار التي نَمَّأها انفعالك بعدها. أليس كذلك؟

عندئذٍ كَرَّرَ سيمبسون الوقائعَ مَرَّةً أُخْرَى. وصرَّحَ بأن ديفاجو قد ذكر الوحش بالكاد، وأنه، أي سيمبسون، لم يكن يعرف شيئاً عن القصة، وبقدر ما يتذكَّر، فإنه لم يقرأ عنها قطُّ، حتى الكلمة نفسها لم تكن مألوفةً لديه.

كان يقول الحقيقة بالطبع، واضطَّرَّ الدكتور كاثكارت -على مَضَضٍ- أن يعترف بالطابع الاستثنائي للأمر بِرُمَّتِهِ. مع ذلك، لم يفعل هذا بالكلمات بقدر ما فعله بالسلوك. أسند ظهره إلى شجرة مُناسِبة وقوية. حرَّكَ النار ليؤجَّجَها في اللحظة التي أظهرت فيها علاماتِ الخمود. كان أسرعَ من أيٍّ منهما في مُلاحَظَةِ أَقْلٍ صَوْتٍ في الليل من حولهم: سمكة تقفز في البحيرة، غُصْنٌ ينكسر في الدَّغْلِ، سقوط شظايا الثلج المتجمِّد، بشكلٍ عرضيٍّ، من على الأغصان فوقهم حيث حَلَحَلَتْها الحرارة. تَغَيَّرَ صَوْتُهُ، كذلك، لتصبح رَنَّتُهُ أَقْلَ ثِقَّةً، ونبرته أيضاً أَكْثَرَ خُفَوْتًا. بصراحة، كان الخوف يحوم على مقربةٍ من ذلك المخيم الصغير، وعلى الرغم من أن ثلاثتهم كان لِيُسْرُهُم أن يتحدَّثوا عن أمورٍ أُخْرَى، بدا أن الشيء الوحيد الذي يمكنهم مناقشتَه هو هذا، مصدر خوفهم. لقد حاولوا الحديث عن مواضيعٍ أُخْرَى من دون جدوى، لم يكن هناك ما يُقال بشأنها. كان هانك الأكثرَ صِدْقًا في المجموعة. لم يَقُلْ سوى أَقْلٍ من القليل. أدار ظهره للظلام، جاعلاً وجهه في اتجاه الغابة طيلة الوقت، وعندما كان يَلْزَمُهُم الحَظُّبُ لم يذهب أبعدَ ممَّا يَلْزَمُ لإحضاره.

VII

لَفَّهْم جِدَارٌ مِنَ الصَّمْتِ؛ إِذْ كَانَتْ الثَّلُوجُ كَافِيَةً لِإِخْمَادِ أَيِّ ضَوْضَاءٍ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ كَثِيفَةً، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ الصَّقِيعَ قَدْ حَافَظَ عَلَى تَمَاسُكِ الْأَشْيَاءِ. لَمْ يَكُنْ مَسْمُوعًا سِوَى أَصْوَاتِهِمْ وَأَزِيزِ اللَّهَبِ الْخَافِتِ. غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرٍ، كَانَ يَمُرُّ بِهِمْ، مِنْ خِلَالِ الْهَوَاءِ، شَيْءٌ نَاعِمٌ مِثْلَ رَفْرَفَةِ أَجْنَحَةِ فَرَّاشَةِ الصُّنُوبَرِ. لَمْ يَبْدُ عَلَى أَحَدٍ التَّلَهُفُ لِلذَّهَابِ إِلَى الْفِرَاشِ. كَانَ الْوَقْتُ يَنْسَلُّ بِاتِّجَاهِ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ.

- إنَّ الأسطورة مُعَبَّرَةٌ بِشَكْلِ كَافٍ.

أَبْدَى الدُّكْتُورُ كَاثَكَارْتُ هَذِهِ الْمُلَاحَظَةَ، بَعْدَ وَاحِدَةٍ مِنْ فُتْرَاتِ الصَّمْتِ الطَّوِيلَةِ، مُتَحَدِّثًا لِيَقْطَعَهَا أَكْثَرُ مِنْ أَنَّهُ كَانَ لَدَيْهِ أَيُّ شَيْءٍ يَقُولُهُ، وَوَاوَّصَلَ قَائِلًا:

- لِأَنَّ الْوِينْدِيغُو لَيْسَ سِوَى نِدَاءِ الْبَرِيَّةِ وَقَدْ تَجَسَّدَ، لِيَسْمَعَهُ بَعْضُ ذَوِي الطَّبَائِعِ فَيُدْمَرُوا.

- ذلك هو، وعندما تسمعه لن تُخطئه؛ فهو يناديك بالاسم بشكلٍ صحيحٍ كافٍ.

أعقب ذلك فترةٌ صمتٍ أخرى. ثم عاد الدكتور كاثكارت إلى الموضوع المحظور باندفاعٍ جعلت الآخرين يجفلان. أبدى ملاحظة وهو يتلَفَّت حوله في الظلام:

- إن الرمز واضحٌ؛ إذ أنهم يقولون إن الصوت يُمثلُ كُلَّ الأصوات الثانوية للغابة: الرياح، والماء المتساقط، وصيحات الحيوانات، وما إلى ذلك. وما إن تسمع الضحىة ذلك، فإنها تنطلق بشكل نهائيٍّ، بالطبع! ويُقال -علاوة على ذلك- إن أكبر نقاط ضَعْفِها هما القَدَمَان والعَيْنَان؛ القدمان -كما ترى- بسبب شهوة التَّجَوُّال، والعَيْنان بسبب شهوة الجمال. ينطلق الفتى المسكين بمثل هذه السرعة المروعة فينزف من تحت عينيه، وتحترق قدماه.

استمرَّ الدكتور كاثكارت في التحديق بقلبي، في العَتَمَةِ المحيطة، بينما كان يتحدث. انخفض صَوْتُهُ إلى نبرةٍ خافتة، وأضاف قائلاً:

- يقال إن الونديجو يحرق قدميه -بفعل الاحتكاك، الذي تُسبِّبه السرعة الهائلة، على ما يبدو- حتى تتضاءل، وتشكُل قدمان جديدتان تُشبهان قَدَمَيِ الونديجو بالضبط.

أنصت سيمبسون بذهول مُروَّع، لكن أكثر ما جذب انتباهه هو الامتقاع الذي كسا وجه هانك. كان سيصُمُّ أُذُنَيْهِ ويغمض عينيه بكل سرور لو أنه امتلك الجرأة. شارك في الحديث مُتَشَدِّقًا في بطءٍ وتثاقُل:

- كما أنه لا يُلَازِمُ الأرضَ دائماً؛ إذ يرتفع حتى يظنُّ أن النجوم قد أشعلت فيه النار. وأحيانًا ما يقوم بقفزاتٍ كبيرةٍ رائعة،

ويركض على قَمَمِ الأشجار، حامِلاً رفيقه معه، ثم يُسْقِطُهُ، بالضَّبْط، كما يسقط عُقاب البحر سمكة الكراكي ليقْتُلَهَا قبل أن يأكلها. وطعامه -من بين كل أحوال الدَّغْلِ- هو الطَّحالب! وضحك ضحكةً قصيرة غير طبيعية، وأضاف، وهو ينظر بإثارة في وجه رفيقَيْهِ، قائلاً:

- الونديجو هو آكل طحالب!

كرَّرَهَا، مع سلسلةٍ من أغرب أشكال السُّباب التي استطاع أن يَخْتَرِعَهَا.

حينها، أدرك سيمبسون الغرض الحقيقي من كل هذا الكلام. كان هذان الرجلان -وكلاهما قويٌّ وخبير على طريقته- يخشيان الصَّمْتَ أكثر من أيِّ شيء آخر. كانا يتحدثان لمجابهة الوقت. وكانا يتحدثان أيضاً لمجابهة الظلام، وغزو الهَلَج، وما قد يجلبه التفكير عليهما من تسليم بأنهما كانا في منطقة عدائيَّة، مُجَابَهَة أي شيء، في الحقيقة، بدلاً من السَّماح لأفكارهما الدَّفينة بتولي زمام الأمور. كان هو نفسه قد تجاوزهما في هذا الصَّدَد، بعد أن عرف الرعب، بالفعل، من خلال حلم اليقظة الرهيب. لقد بلغ المرحلة التي أصبح فيها مُحَصَّناً. لكن هذين الاثنين -الطبيب المحلَّل المستهزئ، ورجل الغابة المخلص العنيد- جلس كُلُّ منهما يرتعد في أعماق كيانه.

هكذا مرَّت الساعات، وهكذا، جلست هذه المجموعة الصغيرة من البشر بين فَكِّي البرية، تتحدَّث بأصواتٍ منخفضة، وبنوعٍ من مقاومة الروح الداخلية المتوتِّرة، عن الأسطورة الرهيبة والمؤرَّقة. كانت مُنافسةً غير مُتكافئة، عند أخذِ كُلِّ شيء بعين الاعتبار؛ إذ تَمَتَّعت البرية -بالفعل- بميزة الهجوم الأول واحتجاز رهينة. كان مصير رفيقهم قد خيَّم عليهم بضغْطٍ يتزايدُ ثِقْلُهُ باطرادٍ حتى أصبح في النهاية لا يُحْتَمَل. كان هانك أوَّل مَنْ أطلق العنان لكل هذه المشاعر المكبوتة

بطريقةٍ غير مُتوقَّعةٍ للغاية، بعد فترة صمت، أطول من سابقاتها، لم يَبْدُ أن أحداً قادِرٌ على كسرهما؛ إذ انتفض على قَدَمَيْهِ -فجأةً- مُطلقاً أعلى الصيحات المدوية التي يمكن تَخيلُها في الليل. بدا أنه لم يَعُد بإمكانه السيطرة على نفسه أكثر من ذلك. وليجعلها تتجاوز الصيحة العادية؛ راح يقطع إيقاعها بهزُّ راحة يده أمام فمه. ثم قال، وهو ينظر إلى الآخرين، مُطلقاً ضحكة غريبة مُتحدِّية:

- هذه من أجل ديفاجو؛ إذ أنني أوْمَن -هنا يمكن حذف السباب المرصوص- أن صديقي القديم ليس بعيداً عنا في هذه اللحظة بالتحديد.

كان في أدائه عُنْفٌ وَتَهوُّرٌ جَعَلَ سيمبسون يَثْبُ، هو الآخر، على قَدَمَيْهِ مذهولاً، وفضحا الدكتور بأن ترك الغليون ينزلق من بين شفتيه. كان وجهه هانك مروَّعاً، لكن كاثكارت أبدى ضعفاً مفاجئاً؛ إذ تخلخلت قُدْرَتُهُ كُلُّهَا. ثم اندلع غضبٌ خَاطِفٌ في عينيه، وانتصب هو الآخر على قدميه، وإن كان بترؤ ناتجٍ عن اعتياده ضبط النفس، وواجه الدليل المستثار. لأن هذا كان غير جائز، وأحمق، وخطير، وقد انتوى أن يَتَّهَمَ في مَهْدِهِ. قد يتكهَّن المرء بما كان ليحدث في الدقيقة أو الدقيقتين التاليتين، لكنه لن يعرف أبداً بشكل مؤكَّد؛ لأنه في لحظة الصمت العميق التي تَلَتْ صوتَ هانك الهادر، عَبَرَ شيءٌ ما، بسرعةٍ مُذهِلةٍ، في ظلام السماء فوقهم، وكأنه يَرُدُّ على ما حدث، شيء كبير جداً بالضرورة؛ إذ أنه أزاح قدراً كبيراً من الهواء، بينما سَقَطَتْ بين الأشجار صرخةٌ باهتةٌ وعاصِفةٌ من صوتٍ بشريٍّ، يصيح بنبرات مُعانةٍ واستغاثةٍ لا يُمكن وَصفُهما:

- أوه، أوه، هذا الارتفاعُ النَّاريُّ! أوه، أوه! قدماي الناريتان! قدماي الناريتان المحترقتان!

تطلّع هانك حوله بغبَاءٍ مثل الأطفال، مُبَيِّضًا حتى أطراف ملبسه. أطلق الدكتور كاثكارت صرخَةً مُبْهِمَةً نوْعًا ما، مستديرًا بعدها بحركةٍ غريزيّة، من الرعب الأعمى، نحو حماية الخيمة، ثم توقّف في المنتصف كما لو كان قد تجمّد. كان سيمبسون هو الوحيد بين الثلاثة، الذي احتفظ بثباتٍ عقله قليلًا. كان رُعبُه أعمقَ من أن يسمح بأي ردّةٍ فعِلٍ مباشرة. لقد سمع تلك الصرخة من قبل.

استدار نحو رفيقَيْهِ المصدومين، وقال بما يشبه الهدوء:

- تلك هي الصرخة التي سمعتها بالضبط، الكلمات التي استخدمها نفسها!

ثم رفع رأسه إلى السماء، وصاح بصوت مرتفع:

- ديفاجو، ديفاجو! انزلْ إلينا هنا، انزل...!

وقبل أن يسنح الوقت لأيّ منهم ليفعل شيئًا ما، بطريقة أو بأخرى، جاء صوتٌ شيءٍ يسقط بقوةٍ بين الأشجار، ضاربًا الأغصان في طريقه لأسفل، هابطًا على الأرض المتجمّدة بارتطامٍ مُخيف، كان اصطدامه وهديره مُروّعَيْن بحق.

- إنه هو، أَغْنِني أرجوك يا إلهي الرحيم!

قالها هانك بصرخَةٍ هامسة شبه مختنقة، موجّهًا يده، بشكلٍ تلقائيٍّ، نحو سكّين الصيد في حزامه. عندما أصبحت أصوات الخطوات الثقيلة، وهي تسحق الجليد، مسموعةً بشكلٍ واضح، تقترب عبر الظلام في اتجاه دائرة الضوء، أضاف بضحكة رُعبٍ خرقاء:

- إنه آتٍ! إنه آتٍ!

وبينما كانت الخطوات تقترب منهم أكثر فأكثر، بحركتها المتعَثِّرة، وقف الرجال الثلاثة حول النار، صامتين وبلا حراك. ظهر الدكتور كاثكارت بمظهر رجلٍ صُعِقَ فجأةً، حتى عينيه لم تتحرّكا. بدا هانك،

الذي كان يعاني بشكلٍ مُريعٍ، على شفا القيام بفعلٍ عنيفٍ مرَّةً أخرى، لكنه لم يفعل شيئًا. كان هو أيضًا قد قُدَّ من حَجَر. بدَّوا مثل أطفال مذعورين. كانت الصورة بَشَعَةً. وفي تلك الغضون، بقي المستحوذ عليهم غيرَ مرئي، اقتربت الخطى، وهي تسحق الثلج المتجمد. كانت بلا نهاية، ممتدَّة لدرجة لا تجعلها حقيقيَّةً تمامًا، هذا الاقتراب المحسوب وعديم الرحمة. كان لعينًا.

مكتبة

VIII

t.me/t_pdf

ثم تَمَخَّصَت الظُّلْمَةُ في آخر المطاف عن شَكْلِ، بعد أن حملت به حملًا شاقًّا. تقدَّم إلى منطقة الضوء غير المؤكَّد حيث اختلطت النار بالظُّلال، على بُعْدٍ يَقلُّ عن عشر أقدام، ثم توقَّفَ مُحدِّقًا فيهم بثبات. في اللحظة نفسها التي بدأ يتقدَّم فيها، مرَّةً أخرى، بحركة مُتَشَبِّهة وكأنَّها تتحكَّم فيها خيوطٌ، واقترب منهم، ليدخل في وَهَجِ النَّارِ بالكامل، أدركوا حينها أنه كان رَجُلًا، وكان من الواضح أن هذا الرجل هو ديفاجو.

في تلك اللحظة، انسدل على كُلِّ وجهٍ -بشكل يكاد يكون ملموسًا- شيءٌ يُشَبِّهُ غِشاءً من الرعب، ولاحت من خلاله ثلاثة أزواج من العيون، وكأنها تنظر، عبر حدود الرؤية العادية، إلى المجهول.

تقدَّم ديفاجو، بِخُطَى مترنِّحةٍ ومتردِّدة، شاقًّا طريقه، بشكل مباشر، نحوهم كمجموعة أولاً، ثم استدار بحدَّةٍ وَحدَقَ في وجه سيمبسون عن قرب. خرج صوت من بين شفثيه قائلاً:

- ها أنا ذا، يا رَيسَ سيمبسون. لقد سمعتُ شَخْصًا يناديني.

كان صوته جافًا وخافتًا، جعله المجهود الهائل مُتَقَطِّعَ الأنفاس وذا صَفيرٍ.

- أنا أقوم برحلة اعتيادية من النُّوع الجهنَّمي، أفعل ذلك.

وضحك مُلقِيًا برأسه إلى الأمام في وجه مُحدِّثه.

لكن تلك الضحكة حرَّكت مجموعةً تماثيل الشَّمع ذوات البشرة البيضاء كالشمع. قفز هانك على الفور إلى الأمام مع سَيْلٍ من السباب الغريب، حتى أن سيمبسون لم يُمَيِّز فيه اللغة الإنجليزية على الإطلاق، بل ظنَّ أنه تحوَّل إلى الهندية أو أي لغة أخرى. لم يدرك سوى أن وجود هانك، واندفاعه هكذا بينهما، كان مَوْضِعَ تَرْحيب، بشكلٍ غير معتاد. تقدَّم الدكتور كاثكارت خلفه، بهدوءٍ وتروٍّ أكثر، لكنه على الرغم من ذلك كان يتعَثَّر.

بدا سيمبسون مُشَوَّشًا بشأن ما قيل أو فُعِلَ في الثواني القليلة التي تَلَتْ ذلك؛ إذ كانت عينا هذا الوجه المحطَّم الكريه، اللتان تُحدِّقان في عينيه من مثل هذه المسافة القريبة، قد أربكتا حواسَّه تمامًا في بادئ الأمر، فلم يَزِدْ أن وقف ساكنًا. لم يَقُلْ شيئًا. لم يكن يملك الإرادة المدرَّبة التي يتمتَّع بها الرَّجُلان الأكبر سنًا، والتي دفعتهما إلى العمل في مواجهة جميع الضغوط الانفعالية. راقبتهما وهما يتحرَّكان وكأنه يراهما من خلف زجاج شَوْه حقيقتهما بشكل جزئي. كان الأمر مُتحوِّرًا كالحلم. يتذكَّر -مع ذلك- سماعَ نبرة عَمِّه السُّلطويَّة، صارمة وقاهرة، تتخلَّل سيلَ عبارات هانك عديمة المعنى، قائلةً عدَّة أشياء عن الطعام والدفع والأغطية والويسكي وغيرها... وعلاوة على ذلك، كانت نفحةً من تلك الرائحة النَّفاذة غير المعتادة، الكريهة لكنها مُربِّكة بلُطفٍ، قد هاجَمَت فتحتَي أنفه خلال كلِّ ما تلى.

لكن لم يكن أحدًا سواه -مع أنه أقل خبرةً ومهارةً من الآخرين- من تَلَفَظَ، على نحوٍ غريزي، بالجملة التي جَلَبَتْ قدرًا من الارتياح على الوضع المريع، بتعبيرها عن الشك والفكرة بداخل كلٍّ منهم. تساءل بصوتٍ خَفِيفٍ، وكلامٍ مُتَقَطِّعٍ من الرُعب:

- إنه أنت، أليس كذلك، يا ديفاجو؟

بادر كاثكارت على الفور بالإجابة بصوتٍ مُرْتَفِعٍ، قبل أن يُتَاحِ الْوَقْتُ للآخر أن يحركَ شَفَتَيْهِ:

- إنه هو بالطبع، ألا تستطيع أن ترى، سوى أنه يكاد يموت من الإرهاق والبرد والرُعب! ألا يكفي ذلك لتغيير الإنسان فلا يعود من السَّهل التَّعرُّفُ عليه؟

قالها لِيَقْنَعَ نفسه بقدر ما أراد إقناع الآخرين، وحدها نبرة المبالغة بَرَهَنَتْ على ذلك. وكان يضع المندبل على أنفه بشكلٍ مُسْتَمِرٍّ، بينما يتكلَّم ويتحرَّك. سادت تلك الرائحةُ المخيَّم بأكْمَلِهِ.

إذ لم يكن ديفاجو -الذي جلس مُحاطًا بالنيران الكبيرة، ومُلتفًّا بالأغطية، يشرب الويسكي الساخن ويحمل الطعام بيديْن مَهْزُولَتَيْنِ- يُشَبِّه الدَّلِيل الذي قد رآوه على قَيْدِ الحياة أكثر ممَّا تُشَبِّهُ صورة رَجُلٍ في السُّتَيْن؛ صورة على لَوْحٍ فَضِيٍّ من شبابهِ المَبْكَرِ، في ثياب جيلٍ آخر. ليس بوسع أي شيء -حقًّا- أن يَصِفَ ذلك الكاريكتور المريع، تلك المحاكاة الساخرة، المتنكِّرة في هيئة ديفاجو في ضوء النار. يؤكِّد سيمبسون، من أطلال الذكريات المظلمة والمروعة التي لا يزال يحتفظ بها، أن الوجه كان حيوانيًا أكثر منه آدميًا، والملامح ممطوطةٌ بِنَسَبٍ خاطئة، والبشرة رخوة ومتهدِّلة، كما لو كان قد تعرَّض لضغوطٍ وتوتُّراتٍ غير عادية. جعله يفكِّر، على نحوٍ غامِضٍ، في تلك الوجوه المملوءة بالهواء التي ينفخها الباعةُ الجائلون في "لُدجيت هيل"، والتي تُغَيِّرُ تعبيراتها عندما تنتفخ، وينبعث منها، عندما تنفث

هواءها، صوتٌ خافِتٌ يحاكي النحيب. كان كلُّ من الوجه والصوت يوحى -بعض الشيء- بمثل هذا التَّشابه البغيض. لكن يؤكِّد كاثارت بعد ذلك بوقت طويل، في سعيه لوصف ما لا يوصف، أنه هكذا قد يبدو وجهٌ وجَسَدٌ قد مَكَّنَّا في هواءٍ مُخلخل، زال عنه وزنُ الغلاف الجوي، حتى أصبح الهيكلُ بأكمله مُهذَّبًا بالتَّشظِّي إربًا وأن يصبح غَيْرَ مُتماِسِك...

كان هانك هو مَنْ دفع الأمورَ قُدَّما، من دون كثيرٍ من الصَّخب، على الرغم من أنه كان مذهولًا كُلِّيًا ويرتعد بقدرٍ كبيرٍ من الانفعال، لم يستطع أن يُعالِجه أو يفهمه. انتقل إلى نقطةٍ تَبَعُدُ قليلًا عن النار؛ كيلا يُبهره الضَّوءُ كثيرًا على ما بدا، وظلَّل عينيه بكلتا يديه للحظةٍ، صائحًا بصوتٍ مُرتَفِعٍ أثار الغضب والشفقة ممتزجين بشكلٍ مُروِّع:

- أنتَ لستَ ديفاجو! أنتَ لستَ ديفاجو على الإطلاق! أنا لا أهتم، لكن هذا ليس أنتَ، لستَ صديقي الذي أعرفه منذ عشرين عامًا!

حدَّق في الشخص المتكوِّم وكأما سيُدِّمره بعينيه. أضاف باندفاعٍ عنيف من الرُّعب والتَّقَرُّز:

- وإن كنتَ هو فسوف أمسح أرضيَّة الجحيم بقطعة قُطنٍ مَلْفوفَةٍ على خلال الأسنان، ساعدني أيُّها الرَّبُّ الرَّحيم!

كان من المحال إسكاته. لقد وقف يصيح مثل شَخْصٍ مَمْسوسٍ، من المروِّع رُؤْيَتُهُ، ومن المروِّع سَماعُهُ، لأنها كانت الحقيقة. كرَّر نفسه بخمسين طريقة مختلفة، كُلُّ وَاحِدَةٍ منها أغرب من سابِقَتِها. رَدَّدَت الغابةُ الأصدااء. بدا في وقتٍ من الأوقات وكأنه ينتوي أن يرمي بنفسه فوق "الدَّخيل"؛ إذ كانت يَدُهُ تنتفض بشكلٍ مُستمرٍّ نحو سَكِّين الصَّيد الطويل في حزامه.

لكنه لم يفعل شيئاً في النهاية، وانتهت العاصفةُ كُلُّها بالدموع بعد وقتٍ قصيرٍ للغاية. اختنق صوت هانك، وانهار على الأرض، وأخيراً أقنعه كاثكارت، بطريقةٍ أو أخرى، بالذهاب إلى الخيمة والتَّمُدُّد في هدوءٍ. شَهِدَ ما تَبَقَّى من الأمر -بالفعل- من وراء قماش الخيمة، وكان وجهه الأبيض المرعوب يَخْتَلِسُ النَّظَرَ من خلال شَقٍّ مِصرَعٍ باب الخيمة.

قام الدكتور كاثكارت بعد ذلك، يتبعه عن كَثْبٍ ابنُ أخيه -الذي احتفظ بشجاعته حتى تلك اللحظة أكثر منهم جميعاً- وتقدَّم بهيئةٍ حازِمةٍ، ووقف أمام شبح ديفاجو المتكوِّم فوق النار. نظر إلى وجهه مباشرةً وتحدَّث. كان صوته صارِماً في البداية:

- أَخْبِرْنَا يا ديفاجو بما حدث، القليل فقط؛ كي نستطيع أن نتوصَّل إلى أفضل طريقة لمساعدتك؟

هكذا سأله بنبرة سُلْطَة، تكاد تكون أَمِرةً. وفي تلك اللحظة، أصبحت أَمِرةً. على أن وَقَعَهَا تَغْيِيرٌ على الفور بعد ذلك؛ إذ أدار له الرجل وجهًا مُثِيرًا لِلشَّفَقَةِ، رهيبًا للغاية، وبعيدَ الشَّبه بالبشر. حتى أن الدكتور انكمشَ مُتراجِعًا وكَأَنَّمَا يبتعد عن شيءٍ مُلوَّث الرُّوح. يقول سيمبسون، الذي كان يُراقِبُ عن كثب من خَلْفِهِ، إِنَّهُ تَوَلَّدَ لديه انطباعٌ بأن قناعًا كان على وشك السقوط، وأنهم سيكتشفون تحته شيئاً أسودَ وشيطانيًا، ينكشف مُطْلَقَ العُريِّ. صاح كاثكارت برُعبٍ مضى كَتَفًا بكَتِفٍ مع التَّوَسُّل:

- تَكَلِّمْ يا رَجُل، تَكَلِّمْ! لا يستطيع أيُّ مِنَّا أن يحتمل أكثر من ذلك...!

لقد كانت صرخة الغريزة تعلو فوق المنطق.

حينذاك أجاب ديفاجو بابتسامةٍ شاحِبَة وصوتٍ خافِتٍ وضعيف بدا بالفعل وكأنه يتحوَّل لصوتٍ شَخْصِيَّةٍ أخرى تمامًا. همس مُسْتَنَشِقًا الهواء من حوله كما يفعل الحيوان بالضبط:

- لقد رأيتُ ذلك الشيء الرَّائِعَ، ونديجو، كنتُ معه أيضًا.

ليس بوسعنا أن نعرف إذا ما كان الشيطان المسكين يقول أكثر من ذلك، أو أن الدكتور كاثكارت كان ليوصل الاستجواب المستحيل، إذ سُمِعَ صوت هانك في تلك اللحظة يصرخ بأعلى صوته من خلف قماش الخيمة الذي كان يُخفي كُلَّ شيء سوى عينيه المرتعبتين. هذا العواء لم يُسَمِعْ مثله قط:

- قَدَمَيْهِ! يا إلهي، قَدَمَيْهِ! انظروا إلى قَدَمَيْهِ المتغيّرتين على نحوٍ كبير!

عندما اعتدل ديفاجو في مكانه، تحرّك بطريقةٍ جعلت ساقيه تصبحان في الضوء التّامّ للمرة الأولى، وكانت قدماه مرئيتيّن. مع ذلك، لم يسنح الوقت لسيمبسون كي يرى، على نحوٍ صحيح، ما رآه هانك. ولم يجد هانك مُطلقاً أنه من المناسب أن يخبر بما رأى. في تلك اللحظة نفسها، وبوثبةٍ تُشبه وثبة النمر المذعور، كان كاثكارت فوقه، يُحكّم طيّات البطانية حول ساقَيْهِ بسرعةٍ لم يَسْتَطِعْ معها الطّالب الشاب أن يلتقط سوى ما يزيد قليلاً عن لمحةٍ عابرةٍ لشيءٍ قائمٍ ومُتكتّلٍ بشكل غريب، حيث انبغى أن توجد القَدَمَينِ في حداثهما الجِلديّ، لكن حتى ذلك رآه رؤيةً غيرَ مُؤكّدة.

ثم قبل أن يُتاح الوقت للدكتور لفعل المزيد، ولسيمبسون لأن يفكّر حتى في سؤال، دَعَ عَنْكَ طرحه، كان ديفاجو قد انتصب أمامهم واقفاً، يتوازنُ بصعوبةٍ وألمٍ، وقد ارتسم على وجهه المشوّه والملتوي تعبيرٌ قائمٌ وشريرٌ للغاية، لدرجة أنه كان وحشياً، بالمعنى الحقيقي للكلمة. قال بفحيح:

- الآن وقد رأيتموها أيضاً، رأيتم قَدَمَيَّ الناريتَيْنِ المحترقتين! والآن، ما لم تنقذوني وتمنعوا ذلك يا أصحاب، فقد أَرَفَ الوقت لـ..

قُطِعَ صوته البائس المتضرّع بصوتٍ آتٍ عبر البحيرة يُشبه عويل الرياح. هزّت الأشجارُ أغصانها المتشابكة بالأعلى. وقَوَّست النارُ

المتأججةُ ألسنةُ اللهبِ وكأنَّها توشكُ على الانفجار. واجتاح شيءٌ ما المخيمَ الصغير بضجيجٍ مُرعبٍ ومندفعٍ، وبدا أنه سيُحيط به تمامًا في ومضةٍ من الزمن. أزاح ديفاجو البطانيات المتشبثة عن جسده، واستدار إلى الخلف نحو الغابة، وذهب بنفس الحركة المتعثرة التي أتى بها، ذهب قبل أن يتمكن أي شخص من تحريك ساكنٍ ليمنعه، ذهب بسرعةٍ مذهلة ومُتخبطة لم تُتح أي وقتٍ للتصرف.

ابتلعه الظلامُ على نحوٍ أكيد، وبعد أقل من عشر ثوانٍ، سمع الرجالُ الثلاثة، الذين كانوا يراقبون ويُصِتون بقلوبٍ واجفةٍ، صرخةً علَّت فوق جلبةِ الأشجار المتأرجحة وزعيق الرياح المفاجئة، وبَدَت بعيدةً وكأنها تسقط عليهم من أعالي السماء:

- آه، آه! هذا الارتفاع الناري! آه، آه! قدماي الناريتان! قدماي المحترقتان الناريتان!!!

ثم تلاشت في فضاء وصمت غير محدودين.

بالكاد استطاع الدكتور كاثكارت -الذي سيطر على نفسه فجأةً، وبالتالي على الآخرين- أن يقبض على ذراع هانك بعنفٍ أثناء محاولته الاندفاعَ بتهوُّرٍ إلى داخل الغابة. صاح الدليل بصوتٍ مُرتفع:

- لكنني أريد أن أعرف... مَنْ أنت! أريد أن أرى! ذلك ليس هو على الإطلاق، لكنَّ شيطانًا ما حلَّ محلَّه...!

مَمَّكُن من إبقائه في الخيمة وتهدئته بطريقةٍ أو بأخرى، ويعترف أنه لم يَعْلَمْ قطُّ كيف أمكنه أن يفعلها. بدا أن الدكتور قد بلغ المرحلة التي ظهرت عندها ردودُ أفعاله وَسَمَحَت لقوَّته الفِطْرِيَّة بالتفوق. من المؤكَّد أنه نجح مع هانك بشكلٍ مُثيرٍ للإعجاب. كان ابن أخيه، الذي خضع للسيطرة بشكلٍ رائع حتى تلك اللحظة، هو الذي أثار لديه أسبابَ القلق؛ إذ نتج عن التوتر المتراكم، حينئذٍ، حالة من هستيريا

البكاء أوجبت عزله، على فراش من الأغصان والأغطية، بعيداً قدر
الإمكان عن هانك في ظل هذه الظروف.

وهكذا نام، بينما مرّت ساعات تلك الليلة المسكونة بالرعب فوق
المخيّم المنعزل، يصيح في طيّات غطائه ببعض الجمل الخائفة، ومقاطع
من الجمل. اختلط قذّر من الهذيان عن السرعة والارتفاع والنار،
بشكل غريب، مع ذكريات الكتاب المقدّس من فصول الدراسة.
"أناس ذوو وجوه مُحطّمة أمسكت بهم النيرانُ قادمون نحو المخيّم
بسرعة مُروعة للغاية!". قد يئنّ في دقيقة، ويجلس في الدقيقة التالية
ويحدّق في الغابة، ويصغي باهتمام، ويهمس:

- كم هي رهيبة أقدامهم في البريّة حتى أنها...

إلى أن يأتي عمّه ليغيّر من وجهة أفكاره ويبرّحه.

ثبت أن الهستيريا كانت مُوقّنة لحسن الحظّ. تعافى بالنوم، تمامًا
كما تعافى هانك.

حافظ الدكتور كاثكارت على يقظته حتى لاحت العلامات الأولى
لضوء النهار، بعد الساعة الخامسة بقليل. كان وجهه في لون الطباشير،
وكان هناك احمرار غريب تحت عينيه. تصارع رعب الرّوح المروّع
مع إرادته خلال هذه الساعات الصّامتة. كانت هذه بعض من
العلامات الخارجية...

أشعل النّار بنفسه عند الفجر، وأعدّ الفطور، وأيقظ الآخرين،
وبحلول السابعة كانوا في طريق عودتهم إلى المخيّم الأساسي: ثلاثة
رجال ذاهلين ومفجوعين، لكن كلّ منهم كان قد قلّص اضطرابه
الداخليّ بطريقته الخاصّة إلى حالةٍ من النّظام الممنهج تقريبًا.

مكتبة

t.me/t_pdf

IX

تحدّثوا قليلاً، وبعدها لم يتحدّثوا سوى في أكثر الأمور حَذَرًا وعموميّةً؛ إذ كانت عقولهم مَشحونةً بأفكارٍ مُؤلمةٍ تُطالب بالتفسير، إلّا أن أحدهم لم يجرؤ على الإشارة إليها. كان هانك -بوصفه أقرب إلى الحالة البدائيّة- أوّل مَنْ وَعَى بنفسه؛ إذ كان أقلّ تعقيدًا أيضًا. في حالة الدكتور كاثكارت دَعَمَت "الحضارة" قواه في مُواجهة هجومٍ فريدٍ بشكلٍ كافٍ. ربما يكون غير مُتأكّدٍ من أمورٍ مُحدّدةٍ حتى يومنا هذا. على أيّ حال، استغرق وقتًا أطول كي "يعي نفسه".

كان سيمبسون طالِب اللاهوت، هو الذي رَتَّب استنتاجاته بأفضل مظهرٍ من التنظيم، وإن لم يَكُن الأكثرَ علميّةً. هناك، في قلب البريّة غير المروّضة، كانوا بالتأكيد قد شهدوا شيئًا بدائيًا بشكلٍ فجٍّ وأساسيٍّ. شيئًا قد نجا بطريقةٍ ما من تطوُّر البشرية وانبثق بصورة مُرعبّة، كاشفًا عن طبقةٍ من الحياة ظَلَّت وحشيّةً وغير ناضجة. لقد تصوّرها بالأحرى كنظريةٍ خاطئةٍ إلى داخل عصور ما قبل التاريخ، عندما كانت

الخُرَافَات العَمَلَاة وَالْفَجَّة، لَا تَزَال تُثْقِلُ قُلُوبَ الْبَشَرِ، عِنْدَمَا كَانَتْ طَاقَاتُ الطَّبِيعَةِ مَا زَالَتْ غَيْرَ مُرَوَّضَةٍ، وَالْقَوَى الَّتِي رُبَّمَا سَكَنَتْ الْكَوْنَ الْبَدَائِيَّ لَمْ تَكُنْ قَدْ انْسَحَبَتْ بَعْدُ. يَفْكَرُ، حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا، فِيمَا اصْطَلَحَ عَلَى تَسْمِيَتِهِ بَعْدَ سِنَوَاتٍ فِي إِحْدَى الْمَوَاعِظِ "بِالطَّاقَاتِ الْوَحْشِيَّةِ الْهَائِلَةِ الْمُسْتَتِرَّةِ خَلْفَ أَرْوَاحِ الْبَشَرِ، رُبَّمَا لَا تَكُونُ شَرِّيرَةً بِذَاتِهَا، لَكِنهَا عَدَائِيَّةٌ بِالْغَرِيزَةِ تَجَاهَ الْبَشَرِيَّةِ إِذَا مَا تَوَاجَدَتْ".

لَمْ يَنَاقِشِ الْمَوْضُوعَ بِالتَّفْصِيلِ مَعَ عَمِّهِ قَطُّ؛ إِذْ أَنْ الْحَاجِزَ بَيْنَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْعُقُولِ جَعَلَ الْأَمْرَ صَعْبًا. مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ، بَعْدَ مَرُورِ سِنَوَاتٍ، قَادَهُمَا شَيْءٌ مَا إِلَى حُدُودِ الْمَوْضُوعِ، إِلَى تَفْصِيلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ عَلَى الْآخَرَى. سَأَلَهُ:

- أَلَا تَسْتَطِيعُ حَتَّى أَنْ تُخْبِرَنِي، مَاذَا كَانَتْ تُشْبِهُ؟
- وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْ الرَّدَّ صِغَ بِحِكْمَةٍ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُشْجَعًا:
- مِنْ الْأَفْضَلِ بِكَثِيرٍ أَلَّا تُحَاوَلَ أَنْ تَعْرِفَ، أَوْ تَكْتَشِفَ.
- اسْتَمَرَ ابْنُ الْأَخِ فِي إِصْرَارِهِ:

- حَسَنًا، وَتِلْكَ الرَّائِحَةُ... مَاذَا تَرَى فِيهَا؟
- نَظَرَ الدَّكْتُورُ كَأَنَّكَ تَكُنْتَ إِلَيْهِ وَرَفَعَ حَاجِبِيهِ، ثُمَّ أَجَابَ:
- لَيْسَتْ الرِّوَائِحُ سَهْلَةً مِثْلَ الْأَصْوَاتِ وَالتَّوَاصُلِ بِرُؤْيِ التَّخَاطُرِ.
- لَا أَرَى فِيهَا مَا يَزِيدُ أَوْ يَنْقُصُ، رُبَّمَا، عَمَّا تَرَاهُ أَنْتَ.
- لَمْ يَكُنْ سَلِسًا كَعَادَتِهِ فِي التَّفْسِيرِ. كَانَ هَذَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ.

مَعَ الْغُرُوبِ، وَصَلَ أَغْضَاءُ الْفَرِيقِ إِلَى نَهَايَةِ تَرْحَالِهِمْ، يَشْعُرُونَ بِالْبَرْدِ وَالْإِرْهَاقِ وَالْجُوعِ، وَجَرُّوا أَنْفُسَهُمْ إِلَى الْمَخِيْمِ الَّذِي بَدَأَ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى خَالِيًا. لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ أَيْ نَارٍ، وَلَمْ يَكُنْ بَانَكَ مَوْجُودًا لِيُقْبَلَ عَلَيْهِمْ

مَرْحَبًا. كانت الطاقة العاطفية للثلاثة مُسْتَنْزَفَةً بدرجةٍ لم تسمح لهم أن يلاحظوا أيَّ من المفاجأة أو الانزعاج، لكن صرخة التأثير العفوي التي انطلقت من بين شَفَتَي هانك، وهو يتقدَّمهم مُندَفِعًا في اتجاه مكان النار، ربما جاءت كتحذيرٍ من أن نهاية الأمر المذهل لم تكن قد أتت بعد. وقد اعترف كلُّ من كاثكارت وابن أخيه -فيما بعد- بأنهما حين شاهدها يجثو في تأثُّرٍ على رُكْبَتَيْهِ ويحتضن شيئًا مضطجعًا، مُتَحَرِّكًا بَوَدَاعَةٍ، بجانب الرماد المطفأ، شَعْرًا في أعماقهما أنه سيَتَّضِحُ لهما أن هذا "الشيء" هو ديفاجو، ديفاجو الحقيقي، وقد عاد.

وهكذا كان الأمر بالفعل.

إنه قولٌ مُتَسَرِّع. كان الكندي الفرنسي -ما بَقِيَ منه- مُنْهَكًا إلى درجة الهزال، يتخَبَّط بين الرماد، محاولًا إشعال النار. جَثَمَ جَسَدُهُ هناك، تَمَثَّل أَصَابِعُهُ الضعيفة بَوَهْنٍ للعادة الغريزيَّة التي مارسها طيلة عُمُرِهِ بالأعوادِ والثُّقَاب. لكن لم يَعُدْ لديه أيُّ عَقْلٍ لتوجيه العمليَّة البسيطة، لقد ذهب عَقْلُهُ ولم يَعُدْ مُمَكِّنًا استعادَتُهُ. وذهبت معه الذاكرة أيضًا. ليست الأحداث الأخيرة وحدها، بل أصبحت حياته السابقة كُلُّهَا صفحةً بَيضاء.

كان الرَّجُلُ الحقيقيُّ هذ المرة، على الرغم من انكماشه بشكلٍ مُرَوِّعٍ لا يُصَدَّق. لم يكن هناك أيُّ تعبيرٍ من أي نوع على وجهه، سواء كان خوفًا أو ترحيبًا أو تَعَرُّفًا عليهم. لم يَبْدُ عليه أنه تَعَرَّفَ على الشخص الذي احتضنه، أو الذي أطعمه وأدْفأه وتحدَّثَ إليه بكلمات الرِّاحَةِ والمواساة. فعل الرَّجُلُ الضَّئِيلُ كُلَّ ما طُلِبَ منه بخنوع، بائسًا ومُنْكَسِرًا، وبعيدًا عن مُتَنَاوَلِ أيِّ عَوْنٍ إنسانيٍّ. كان الشيء الذي يجعل منه "شخصًا مُتَفَرِّدًا" قد اختفى إلى الأبد.

كان الأمر مُؤَثِّرًا، من بعض النواحي، بشكلٍ أكثر رهبةً من أي شيء قد رأوه من قبل. تلك الابتسامة البلهاء وهو يستخرج حشوات

الطَّحَالِبُ الخَشْنَةُ مِنْ وَجَنَّتَيْهِ الْمُنْتَفَخَتَيْنِ وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ كَانَ "آكِلَ طَحَالِبٍ مَلْعُونًا". الْقِيءُ الْمَتَوَاصِلُ حَتَّى مِنْ أَبْسَطِ الطَّعَامِ. وَالْأَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ، الصَّوْتُ الشَّايِ الطُّفُولِي، الْمَثِيرُ لِلشَّفَقَةِ، الَّذِي يُخْبِرُهُمْ بِهِ أَنَّ قَدَمَيْهِ تَوَلَّمَانِهِ - "تَحْرِقَانِ كَالنَّارِ" - الْأَمْرُ الَّذِي بَدَأَ طَبِيعِيًّا عِنْدَمَا فَحَصَهُمَا الدُّكْتُورُ كَاتِكَارْتُ وَوَجَدَهُمَا مُتَجَمِّدَتَيْنِ بِشَكْلِ مُخِيفٍ. كَانَتْ هُنَاكَ عِلَامَاتُ بَاهِتَةٍ تَحْتَ الْعَيْنَيْنِ تُشِيرَانِ إِلَى نَزِيفٍ حَدِيثٍ.

إِنَّ التَّفَاصِيلَ الْخَاصَّةَ بِنَجَاتِهِ مِنَ التَّوَاجُّدِ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ فِي الْعِرَاءِ، وَالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ، أَوْ تِلْكَ الْخَاصَّةَ بِالْكِيفِيَّةِ الَّتِي قَطَعَ بِهَا الْمَسَافَةَ الْكَبِيرَةَ مِنْ مُخَيِّمٍ إِلَى الْآخَرِ، بِمَا فِي ذَلِكَ الْإِلْتِفَافِ الْهَائِلِ حَوْلَ الْبُحَيْرَةِ - إِذْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ قَارِبٌ - بَقِيَ كُلُّ هَذَا مَجْهُولًا. ائْتَمَحَتْ ذَاكِرَتُهُ بِشَكْلِ تَامٍّ. وَقَبْلَ نَهَايَةِ الشِّتَاءِ الَّذِي شَهِدَتْ بَدَايَتُهُ هَذَا الْحَدَثَ الْغَرِيبَ، تَأَقَّلَمَ دِيْفَاغُو مَعَ تَجَرُّدِهِ مِنَ الْعَقْلِ وَالذَّاكِرَةِ وَالرُّوحِ. لَمْ يَتَخَلَّفْ سِوَى بِضْعَةٍ أَسَابِيعَ.

مَا كَانَ بَوَسَعِ بَانَكَ أَنْ يُسَهِّمَ بِهِ فِي الْقِصَّةِ، لَا يُلْقِي عَلَيْهَا الْمَزِيدَ مِنَ الضُّوءِ. كَانَ يُنْظَفُ السَّمَكُ عَلَى ضِفَّةِ الْبُحَيْرَةِ فِي حَوَالِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ مَسَاءً، أَيْ قَبْلَ سَاعَةٍ مِنْ عَوْدَةِ فَرِيقِ الْبَحْثِ، عِنْدَمَا رَأَى شَبَحَ الدَّلِيلِ، هَذَا، يَشْقُ طَرِيقَهُ بِوَهْنٍ إِلَى الْمَخِيْمِ. وَصَرَّحَ أَنَّ نَفْحَةً خَفِيفَةً مِنْ رَائِحَةِ مُتَفَرِّدَةٍ بَعَيْنَهَا كَانَتْ قَدْ سَبَقَتْهُ.

فِي اللَّحْظَةِ نَفْسَهَا عِنْدَمَا كَانَ بَانَكَ الْعَجُوزُ يُغَادِرُ الْمَخِيْمَ عَائِدًا إِلَى بَيْتِهِ. أَجْمَلَ رَحْلَةَ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ كَامِلَةً كَمَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجَمِّلَهَا سِوَى شَخْصٍ مُتَحَدِّرٍ مِنْ دِمَاءِ هِنْدِيَّةٍ. مَدْفُوعًا بِرُغْبٍ عِرْقٍ بِأَكْمَلِهِ. كَانَ يَعْرِفُ مَا يَعْنِيهِ كُلُّ ذَلِكَ: "لَقَدْ رَأَى دِيْفَاغُو الْوِينْدِيغُو".

مكتبة
t.me/t_pdf

الصفصاف 9 الونديجو

“وبمعزل كامل عن عناصر الطبيعة، ربط الصفصاف نفسه بانزعاجي، علي نحو بارع، مهاجماً العقل بشكل مُخاتِل إلي حَدِّ ما، بفعل أعدادهِ الهائلة، وساعياً -بطريقة أو بأخرى- إلي تجسيد قُوَّةٍ جديدة وجبارة أمام الخيال، هي فوق ذلك، ليست قُوَّةٌ ودِّيَّةٌ تماماً بالنسبة لنا”

الصفصاف

“كان ضوء الفجر الرمادي، الذي يسقط بن الأشجار بارداً وبراقاً، يكشف المشهد بشكل جيّد قدر الإمكان. انتصبت الخيمة ورائه مُشبعة بالندى، بقي رماذ النار القاتم دافئاً. كانت البحيرة بيضاء تحت طبقة من الضباب، ترتفع الجُرُز من داخلها داكنة مثل عناصر مُغلّقة بالصوف. وبَقَّ من الثلج فيما وراء المساحات الأكثر وضوحاً من الدَّغل. كان كل شيء بارداً وساخنًا، ينتظر الشمس. لكن لا توجد في أي مكان علامة علي الدليل المختفي. إنه، بلا شك، مُستمر في الطيران بسرعة محمومة عبر الغابات المتجمّدة. لم يكن هناك -حتى- صوت خطوات الأقدام المختفية، ولا أصدااء الصوت المحتضر. لقد ذهب تماماً”

الولديجو

telegram @t_pdf



مركز
المكرهسة
للنشر و الخدمات المصححة و المعلومات